كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

المفردة القرآنية
بين إبداع اللفظ وإبداع الدلالة

(دراسة في جمالية الكلمة في السياق القرآني)

إعداد

د/ ممدوح إبراهيم محمود محمد

أستاذ أصول اللغة المساعد في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الخامس والثلاثون الجزء الأول ٢٠١٦م)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علَّم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على أكرم مبعوث ، وأعرب من نطق بالبيان سيدنا محمدٍ ، وعلى آله وصحابته نجوم العرفان ، ومن تبعهم إلى يوم الدين بإحسان . **وبعد:**

فقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب وهم أهل الفصاحة والبيان ، فجاء معجزة لغوية فائقة ، وتحداهم أن يأتوا ولو بمثل آية منه فعجزوا . وقد تنوعت وجوه الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم ، وكان من بينها إعجاز القرآن الكريم في انتقاء مفرداته ، ورصف حروفه . فألفاظه غرة في كل كلام ، ولها رونق ، ولها دخل في إعجازه . وصورة الكلمة ومخارج حروفها ، وجرسها مع تناسق دلالتها لها روعة ذاتية في موضعها الأشكل بها والأوفي بمضمون الخطاب.

فقد عني القرآن الكريم بالمفردة القرآنية من حيث تآلف أصواتها وطريقة صوغها وعلاقتها بأختها المجاورة لها في النظم ، ودقة دلالتها عناية تامة فكانت المفردة في جمله بمنزلة الفريدة من حب العقد ، فلا يقع مثلها لمخلوق ، ولا يستطيع أحد الإتيان بمثلها ؛ لذا كانت المفردة القرآنية في غاية الأهمية في دراسة الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم وبلاغته من حيث كونها الوحدة المكونة للآيات.كما تميز القرآن الكريم ببراعة التركيب لمفرداته اللغوية وبجمال الأسلوب فقد جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، متضمنًا أصح المعاني ؛ لأن ذلك من عند العزيز الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه.

وقد استفدت في هذ البحث من دراسات بعض السابقين في جمالية الكلمة غير أن منها ما يتميز بالناحية الأدبية البحتة ومصطلحات الأدب كما فعل د/ أحمد ياسوف في كتابه (جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير) ومن الموضوعات التي تناولها في كتابه : جمال المفردة في الأدب ، إسهام المفردة في التجسيم ، مفردات الطبيعة والأحياء ، الأثر الموسيقي لمفردات القرآن ، إسهام المفردة في التشخيص ، مظاهر الأونوماتوبيا ، الدلالة التهذيبية في مفردات

القرآن،سمة الاختزال في مفردات القرآن،مناسبة المقام،تمكن الفاصلة.إضافة إلى بعض الموضوعات التي كان فيها وجه اشتراك في عناوينها بين البحثين فابتعدت عنها ولم أتأثر بها كما في مفهوم خفة المفردات ، وجمالية الحركة المفردة ، والانسجام في المخارج . كما استفدت من دراسات د/ فاضل صالح السمرائي عن التعبير القرآني ، وهي دراسات غلب عليها الدراسة البلاغية البحتة .

وقد تميز هذا البحث عما عداه مما ذكرت بأنه قد تخصص في بيان إبداع المفردة القرآنية من حيث اللفظ والدلالة من منظور علم اللغة ؛ فعني البحث ببيان إبداع المفردة القرآنية من حيث انسجام حروفها ، وتناسق أصواتها ، وجمالية حركاتها ، كما عني ببيان إبداع المفردة القرآنية من حيث بنيتها الصرفية وتنوع هذه البنى بتنوع السياق ومدى ارتباط ذلك بالدلالة ، وأيضا عني البحث ببيان الخواص الدلالية للمفردات الدلالية في السياق القرآنيومدى علاقة ذلك بالسياق والنظم ، واستعمال القرآن الكريم لمفردات ذات طبيعة خاصة لأداء دلالة معينة . وقد اعتمد هذا البحث في بيان إبداع المفردة القرآنية وإبداع الدلالة وإبراز جماليتهما على المنهج الوصفي التحليلي.

من هنا جاء البحث في مقدمة ، وأربعة مباحث على النحو التالي :

المقدمة : وفيها تحدثت عن أهمية الموضوع ، وسبب اختياره ، والدراسات السابقة ، وخطة البحث .

المبحث الأول : وعنوانه (المفردة القرآنية أهميتها،والمراحل التي تمر بها ،ودور السياق في إبراز إبداعها) ،وفيه عرفت بالمفردة القرآنية،وبجمالية المفردة وبينت أهميتها، وذكرت خصائصها،والمراحل التي تمر بها عند تفسيرها،ووضحت دور السياق في إبراز إبداعها وبيان جماليتها من حيث اللفظ والدلالة .

المبحث الثاني : وعنوانه(النسيج الصوتي للمفردة القرآنية ودوره في إبداع اللفظ وإبداع الدلالة)،وفيه تحدثت عن:التناسق الصوتي في المفردة القرآنية وعن الجرس الصوتي أو صفات الحروف ودورها في إبداع المفردة وبيان جماليتها ، وعن جمالية الحركات في المفردة القرآنية وارتباطها باللفظ والمعنى.

المبحث الثالث : وعنوانه(البناء الصرفي للمفردة القرآنية ودوره في إبداع اللفظ والدلالة) ، وفيه تحدثت عن : تغاير الصيغ الفعلية ذات الأصل الاشتقاقي الواحد ، واستعمال المفردة اسمًا تارة وفعلا تارة أخرى في متشابه النظم القرآني وتغاير الصيغ الاسمية للمفردة بتغاير السياق القرآني .

المبحث الرابع : وعنوانه (صور أخرى من إبداع اللفظ وإبداع الدلالة في المفردة القرآنية) ، وفيه تحدثت عن : تفرد المفردة القرآنية وخصوصيتها في موضعها بالمعنى المراد ، وعن المفردة القرآنية بين خفة النطق وثقله ومظاهر هذه الخفة ، وعن استعمال القرآن الكريم لبعض المفردات الثقيلة أو الغريبة ، وكذا استعماله للمفردات المعربة . كما تحدثت عن الاقتران اللفظي ،وعن المجاز وعن المشاكلة ووضحت دورها في بيان جمالية المفردة القرآنية وإبداعها اللفظي والدلالي، كما تحدثت عن استعمال اسم الإشارة البعيد في موضع القريب وأثره في إبداع اللفظ والدلالة .

الخاتمة : وفيها ذكرت أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

المصادر والمراجع .

وبعد فإني أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت فيما صبوت إليه إنه نعم المولى ونعم النصير ، والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفعني يوم العرض عليه . فإن كان فيه من نقص أو تقصير أو خلل فهو مني ، فالله الكامل والنقص في الناس شامل .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

المبحث الأول
المفردة القرآنية أهميتها والمراحل التي تمر بها ودور السياق في إبراز إبداعها

تقع المفردة القرآنية في غاية الأهمية في دراسة الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم وبلاغته من حيث كونها الوحدة المكونة للآيات ، وكونها عنصراً رئيساً في بيان المعنى وتقريبه إلى الأذهان في صورة بيانية تثري العقول وتغذي النفوس بقوة التأثير ، وعذوبة النطق وسهولته ، ومن ثم توصيل الرسالة في أوفى شكل وأبلغ مضمون ؛ إنه البيان الإلهي المحكم المتماسك الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه ..... فلا غنى فيه عن مفردة ولا عن حرف ، ولا تستبدل فيه مفردة بأخرى ، ولا حرف بآخر كما هو الحال في النثر البشري . فللقرآن الكريم خصوصيات في استعمال مفردات بعينها في السياق بحيث لا يمكن أن تحل غيرها محلها مما يظن بعض العلماء ترادفها بما في ذلك التراكيب المتشابهة ذات السياق المتشابه . وفي تأمل ذلك على النحو الذي سنراه في هذا البحث تجد المفردة القرآنية مع ما تقترن به كالدرة التي ترى في سلك من خرز ، وكالياقوتة في واسطة العقد . فكلما تأملت في ذلك ازددت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير الإلهي العظيم .

وقد بدأ الاهتمام بالمفردة القرآنية منذ الرعيل الأول كاهتمام أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وابن عباس – رضي الله عنهم – فيما يعرف بـ سؤالات نافع بن الأزرق ، ونجدة بن عويمر . وغيرهم ، حين شرحوا للناس بعض المفردات الغريبة في القرآن الكريم ، وقد توقفوا عند ما لم يعرفوه كلفظ (الأب) في قوله تعالى : ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [1] ، وكذا عندما تصدى بعض العلماء لبيان معاني غريب القرآن فجمعوه وصنفوه وأفردوه بمؤلف مستقل كـ ابن قتيبة والراغب الأصفهاني وغيرهما . إلا أن أبا عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) في كتابه

(١) سورة عبس الآية (٣١).

(مجاز القرآن) يعد أول من نبه على جمالية المفردة القرآنية فبين جماليتها من خلال تقريب المجاز إلى الحقيقة . ثم كان الجاحظ الذي يعد أول من وضع مسألة الجمالية القرآنية في نسقه البديع ونظمه الجميل وربط ذلك بالتحدي النبوي حيث يقول : " وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد ". (١)

وتابع الجاحظَ الإمامُ الخطابي (ت ٣٨٨هـ) الذي خص المفردة بالجمالية القرآنية في النظم القرآني حيث قال : " إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه – (اللفظ الحامل ، والمعنى الذي به قائم ، والرباط الذي لهما ناظم) – في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تآلفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها ... واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني " . (٢)

ومن هنا عرف بعضهم الجمالية في القرآن الكريم بأنها : " علم الجمال القرآني الذي يعنى بالكشف عن ألوانه وأسراره وأساليبه من خلال الموضوعات القرآنية المتعددة " . (٣)

والمقصود بالمفردة : المجموعة الصوتية التي تدل على معنى ، وهذه المجموعة هي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة ، وهي الجزء الأول في بناء النظم والوحدة المكونة له ، فلا يغني أحدهما عن الآخر . (١)

---

(١) الحيوان – الجاحظ – ٤/ ٣٠٥ – دار الكتب العلمية / بيروت – ط/الثانية ١٤٢٤هـ ،
(٢) بيان إعجاز القرآن – أبو سليمان الخطابي – ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني) صـ ٢٧ – سلسلة ذخائر العرب – تح/ محمد خلف الله ، ود/ محمد زغلول سلام – دار المعارف / مصر – ط/ ثالثة – من دون تاريخ .
(٣) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم – نذير حمدان صـ ٤٣١ – دار المنايرة جدة / السعودية – ط/ أولى ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

أما جمالية المفردة : فيقصد بها الجمال الموضوعي الذي ينشأ من أجزاء الموضوع الجميل وتركيبه . (٢)

فجمالية المفردة القرآنية إنما تكون في انتقائها واختيارها في موقعها في نظم الجملة من دون غيرها بحيث تكون في موضعها الذي هو أخص بها . وجمال انتقاء المفردة متمم لأسلوب النظم وهذا ما وضحه أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) في قوله : "كل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها ، مما تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناها " . (٣)

ومن آثار هذه الجمالية استخدام القرآن الكريم للمفردة في غير مجالها المعهود في الاستعمال العربي المشهور على لسان الفصحاء حيث قلص دلالات كثيرة ، وبث فيها المعاني المغايرة بصبغتها الدينية كمصطلحات العقيدة والتشريع فالقرآن الكريم كتاب علم وعقيدة وتشريع سماوي ومواعظ وأخبار أو قصص ، ونواه وزواجر ... ونحو ذلك مما جعل للمفردة فيه ظلالاً روحية تتسم بالوجدانية التي لا تبين ولا تتضح معالمها إلا عن طريق فقه المعنى القرآني ومعرفة معالمه من خلال إدراك مناسبة المقام ومعرفة أسباب النزول ، وهذا ما سيتضح جلياً أثناء البحث إن شاء الله تعالى .

فالمفردة المنتقاة الصافية تعد أحد بل أبرز عناصر الجمالية القرآنية التي تشمل: المفردة ، والتركيب الجزل ، والصورة البارعة ، والحكمة البليغة ، والمثل السائر ، والقصة الواعظة ، والتشريع السامي ، والتصور الكامل ، والتهذيب المربي . من هنا كانت الجمالية علم ؛ لأنها تعتمد على قواعد من العلوم المختلفة كالنحو والصرف والبلاغة ، ولأنها تضع قواعد للتناسق الجمالي بين سور القرآن

(١) جماليات المفردة القرآنية – د/ أحمد ياسوف صـ ٢٠ – دار المكتبي دمشق/ سوريا – ط/ثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
(٢) جماليات المفردة القرآنية صـ ٢٠.
(٣) إعجاز القرآن – أبو بكر الباقلاني – تح/ السيد أحمد صقر صـ ١٩٠ – دار المعارف / مصر – ط/خامسة ١٩٩٧م .

وآياته ، ولأنها تعنى بمقادير صوتية محددة متلقاة تبرز التناسب الترتيلي في علم التجويد . (١)

وإذا كانت المفردة عامة تعبر عن مهارة مستخدمها في فنون القول المختلفة وعن شخصيته ، فإن المفردة القرآنية خاصة سامية بنسبتها إلى منزلها الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه ؛ لما فيها من رقة اللفظ ، وحلاوة الحروف ، وسهولة المخرج ، وعذوبة المنطق ، وحسن الجرس ، وما تشتمل عليه من ظلال وإيحاء بالمعنى لا يستفاد من غيرها وهو ما يسمى في علم اللغة الحديث باسم الدلالة الهامشية ؛ ولذا وصفت بالجمال ، خلافاً للدلالة المركزية ذات الأصول المعنوية التي جعلها المعجم العربي الركيزة الرئيسة في إيضاح معاني المفردات وأغفل تماماً الدلالة الهامشية .

خصائص المفردة القرآنية :

لا خلاف بين أهل العلم في أن التعبير القرآني تعبير فريد في علوه وسموه وأنه أعلى كلام وأرفعه ، وأنه بهر العرب وهم أهل فصاحة وبيان ، وتحداهم أن يأتوا بمثل آية منه فعجزوا . وكانت المفردة القرآنية في موقعها وسياقها ودلالتها وبنيتها التركيبية المؤلفة من ذات الحروف العربية التي يستعملونها في كلامهم وجرسها ، وكذا صيغتها أو بنيتها الصرفية ، وفي ائتلافها مع غيرها في نظم الكلام من أبرز مظاهر هذا الإعجاز ؛ لأن القرآن الكريم – وهو من مصدر إلهي فكان بذلك فريداً في نوعه فلا يُضاهى ولا يُقارن به غيره – يختار المفردة اختياراً دقيقاً يتناسب مع مضمون الخطاب ، فكانت له خصوصيات في استعمال الألفاظ مما يدل على القصد الواضح في انتقاء المفردة دون غيرها في هذا الموضع أو ذاك حتى أضحت كالعقد الثمين ذي الفصوص المتنوعة . فقد تجاوزت المفردة القرآنية حدودها المعجمية واعتمدت أساساً على التأثير الحسي من حيث تصويرها لمظاهر الطبيعة متحركة كانت أو ساكنة ، وكذا في إبرازها المعقول في صورة المحسوس تجسيماً تارة وتشخيصاً أخرى ، وكذا التأثيرين النفسي والمعنوي في القارئ والمستمع في آن

(١) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم – نذير حمدان صـ ٤٣١ .

واحد ؛ ولذا تميزت المفردة القرآنية على كافة المستويات بخصائص معينة تختلف عن غيرها وإن كانت من جنس المفردات العربية ، وكان من أهم ما تميزت به من خصائص على مستوى (نسيجها الصوتي) ما يلي :

١. تلاؤم نسيجها الصوتي وجمال وقعها في السمع وخلوها من التنافر .

٢. استغلالها الجرس الصوتي للكلمة بما تشتمل عليه من حروف ذات صويت ما وما تحويه من ظلال للمعاني في إثراء معنى الكلمة والإيحاء بمضمونها قبل أن يوحي مدلولها اللغوي به .

٣. اعتدالها في التركيب والوضع حتى جاءت في معظمها من أعدل التراكيب وهو الثلاثي الذي يبدأ بحرف وينتهي بحرف ويتخذ من الحرف الثالث وُصْلة بين الحرفين . ويقل كثيرًا في القرآن الرباعي حيث لا يكاد يبلغ بضع عشرات من الكلمات ويخلو تمامًا من الخماسي إلا ما كان من لفظ عُرِّب .

٤. خلوها من اللفظ الغريب المستنكر أو الوحشي المستكره مما جعلها قريبة من الأفهام يبادر معناها لفظها إلى القلب ، ويسابق المغزى منها عبارتها إلى النفس. وحين ترد في القرآن كلمة غريبة أو لفظة شديدة فإنها تكون مطلوبة في محلها محمودة لوقوعها موقع الحاجة في وصف ما يلائمها .

٥. تلاؤم حركاتها في الوضع والتركيب وجريها مجرى حروفها في أمر الفصاحة وتهيئة بعضها لبعض ومساندة بعضها بعضًا حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيًا كان أو ربما كانت غير مستساغة في الكلام ، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبًا ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد مهدت لها حتى جاءت متمكنة من موضعها ، وكانت في هذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة . [١]

أما من حيث (اللفظ) فقد تميزت المفردة القرآنية بالعديد من الخصائص وأهمها ما يلي :

(١) أسرار التعبير القرآني – محمد سعيد باصالح – مقال في النت .

١. أن المفردات القرآنية هي المادة الأساسية للإعجاز القرآني وجمالياته ، في الصورة والحوار والقصة والحكمة والتشريع والتوجيه الخلقي والتربوي .

٢. الدقة في الانتقاء : فالمفردات القرآنية منتقاة ومختارة لفظاً ودلالة وجرساً ، وصفاؤها وعذوبتها وظلالها من أخص صفاتها وسماتها .[١] وتعود دقة الانتقاء إلى اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى ؛ لتؤدي المناسبة التي ترد في النظم . ومعناه أن اللفظة القرآنية مختارة – في موضعها وصيغتها – في التركيب بفعل السياق ، فلا يمكن أن تستبدل بلفظة أخرى ، بل قد انتقيت من بين ألفاظ أخرى دعت إلى ذلك الانتقاء ... كجزالة صيغتها وسلاستها وجمال تركيبها وحسن اشتقاقها ، وبديع تصويرها ، كل ذلك كان داعياً إلى رجحان اختيارها وانتقائها . [٢]

٣. أضفى القرآن الكريم على المفردات اتجاهاته الفكرية الجديدة ، وحملها من الدلالات التي تجددت معها اللفظة العربية معنى ومبنى .

٤. أكثر القرآن الكريم من المفردات الروحية والمعنوية والفكرية والجمالية والكونية الكلية والإنسانية العامة مما لم تألفه العرب من قبل .

٥. نسق بين اللفظة وأختها في التركيب الواحد ، وبينها وبين الصورة في المشهد الحي ، وبينها وبين الألفاظ الأخرى في التناسب الجرسي والترتيلي المنفرد . [٣]

٦. دقتها في الاستعمال أو الوضع حتى تبدو بطريقة استعمالها وبدقة دلالتها كأنها فوق اللغة ، فإن أحدًا من البلغاء لا تمتنع عليه مثل هذه الألفاظ إذا أرادها ، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في مواقعها ؛ لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع ، وتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم ، وتكوّن بتركيبها

---

(١) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم صـ ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني – رسالة دكتوراة بكلية التربية/ جامعة بغداد للباحث / محمد ياس خضر الدوري صـ ١٧ – ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٣) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم صـ ٧٧ ، ٧٨ .

المعجز طبقة خاصة داخل طبقات اللغة . [١] فاللفظة القرآنية تأخذ مكانها في الجملة دون تأخير أو تقديم ، أو زيادة أو نقص بحيث يستبعد الاستغناء عنها بغيرها ، ولا يمكن تقديمها أو تأخيرها ، فلها موضعها المختص بها من دون غيرها .

وأما من حيث (الدلالة) فقد تميزت المفردة القرآنية بخصائص منها :

١. التوسع في استعمال المفردة في أقصى طاقاتها ، واسيفاء دلالات جديدة باستخدامها في مجالات متعددة وأحياناً متعارضة . [٢]
٢. ملاحظة الفروق الدلالية الطفيفة بين كلمات يستخدمها ابن اللغة العادي على أنها مترادفة أو متطابقة . [٣]
٣. اتساق المفردة القرآنية تمام الاتساق مع المعنى المراد من الآية ، بل مع السورة كلها أو القرآن الكريم بأجمعه ... وذلك لا يكون إلا للكلام المعجز الذي تحدى أرباب الفصاحة أن يأتوا بمثله . [٤]
٤. الدقة في تحديد المعنى : إذا ما تضافرت الخصائص المتقدمة : من دقة الوضع ، واتساقِ المعنى مع السياق ، ودقة الوصف لذات المفردة ، وانتقائها بما يتفق ومقام الآية ومناسبتها ، كان ذلك داعية لدقة تحديد المعنى ، حيث تكون له خصوصية الدلالة مما لا تتسع له دلالات الكلمات الأخرى .... وخصوصية الانتقاء القرآني تدعونا إلى الإقرار بتفرد كل كلمة بمعناها الخاص ، مستندين في بيان ذلك إلى السياق القرآني في تحديد هذا المعنى .

المراحل التي تمر بها المفردة القرآنية حال تفسيرها

تمر ألفاظ القرآن الكريم عند تفسيرها بخمس مراحل هي :

---

(١) أسرار التعبير القرآني – محمد سعيد باصالح – مقال في النت .
(٢) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم صـ ٧٧ ، ٧٨ .
(٣) أسرار التعبير القرآني – محمد سعيد باصالح – مقال في النت .
(٤) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني صـ ١٦ .

الأولى : أن تأتي اللفظة على الأصل الاشتقاقي وهو ما سماه اللغويون باسم (الحقيقة اللغوية) : فلا تكاد لفظة قرآنية تخلو من وجود أصل اشتقاقي ، ومعرفة هذا الأصل تزيد المفسِّر عمقاً في معرفة دلالة الألفاظ ومعرفة مناسبة تفسيرات المفسرين لأصل هذا اللفظ . ولم تخل تفسيرات السلف من الإشارة إلى مسألة الاشتقاق ، فتجد في تفسيراتهم التنبيه على هذه المسألة اللغوية المهمة ، ومن ذلك ما ذكره مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) وغيره في تفسير قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ .[١] حيث قال : " وسمي آدم ؛ لأنه خلق من أديم الأرض كلها ، من العذبة ، والسبخة من الطينة السوداء ، والبيضاء ، والحمراء " .[٢] وكذا قال أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠ هـ).[٣] وأبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١ هـ)[٤] وغيرهم من المفسرين واللغويين . ومعرفة أصل اشتقاق اللفظ تفيد في معرفة أصل اللفظ وتطوره ، وفي جمع جملة من المفردات القرآنية المتناثرة بتصريفات متعددة تحت معنى كلي واحد ، وهذه المعرفة تسوق إلى تفسير اللفظ في سياقه بحيث يُعبَّر عنه بما يناسبه في هذا السياق ، ويعبر عنه بما يناسبه في السياق الآخر ، وكلها ترجع إلى هذا المعنى الاشتقاقي الكلي . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ .[٥] فمادة (و س ق) تدل على حمل الشيء وجمعه .[٦] ولفظة وسق واتسق مشتقة منها . والمفسرون يقولون : وسق جمع وضم وحوى ولف . والمعنى : جمع وضم ما كان منتشرًا بالنهار في تصرفه ،

---

(١) سورة البقرة من الآية (٣١) .

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان – مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى – تح/عبد الله محمود شحاته ٧٩/٢ – دار إحياء التراث/ بيروت – ط/أولى ١٤٢٣هـ.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – محمد بن جرير الطبري – تح د/ عبد الله بن عبدالمحسن التركي ٥١١/١ وما بعدها – دار هجر– ط/ أولى ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م .

(٤) معاني القرآن وإعرابه – أبو إسحاق الزجاج – تح/عبد الجليل عبده شلبي ٤٢٢/١ – عالم الكتب / بيروت – ط/أولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٥) الانشقاق الآيتان : (١٧ . ١٨) .

(٦) معجم مقاييس اللغة – أحمد بن فارس الرازي – تح/عبد السلام محمد هارون – مادة (و س ق) – دار الفكر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

وذلك أن الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه ومعنى اتسق : استوى واجتمع وتكامل وتم . [١] قال الفراء(ت ٢٠٧هـ) : اتساقه امتلاؤه ثلاث عشرة إلى ست عشرة فيهن اتساقه ". [٢] وبهذا تدل مادة اللفظتين على أصل واحد ، وهو الجمع والضم .

الثانية : أن تأتي اللفظة على الاستعمال الغالب عند العرب : وهو ما سماه اللغويون المحدثون باسم (الحقيقة العرفية) . والمراد هنا أنه يغلب استعمال أحد هذه التصريفات اللفظية على معنى مشهور متبادرٍ بين المخاطبين ، فإذا وقع في الكلام فإن الذهن ينصرف إليه ، لكن قد يأتي تفسير آخر للكلام بناءً على أن هذا التصريف في اللفظة يرد بمعنى آخر ، فيُحمل الكلام عليه . مثال ذلك مادة (ل ب س) فهي أصل صحيح واحد يدل على مخالطة ومداخلة . من ذلك : لَبِسْتُ الثوب أَلْبَسُه ، وهو الأصل ، ومنه تتفرع الفروع . [٣] بينما جعله الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) أصلاً في السَّتر حيث قال : " لَبِسَ الثّوب : استتر به، وأَلْبَسَهُ غيره، ومنه : ﴿ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً﴾[٤] واللِّبَاسُ واللَّبُوسُ واللَّبْسُ ما يلبس .... وجعل اللّباس لكل ما يغطّي من الإنسان عن قبيح ، فجعل الزّوج لزوجه لباساً من حيث إنه يمنعها ويصدّها عن تعاطي قبيح . قال تعالى : ﴿هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ﴾ [٥] فسماهن لباسا ... ولباس التقوى من اللّبس . أي : الستر. وأصل اللَّبْسِ : ستر ستر الشيء ، ويقال ذلك في المعاني ".[٦] والذي يظهر من هذه المادة أن أصلها ما ذهب إليه ابن فارس ، وما قاله الراغب إنما هو أثر من آثار أصل هذه المادة ،

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد – أبو الحسن النيسابوري – تح الشيخ/عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين ٤/٤٥٤– دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/أولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٢) معاني القرآن – الفراء – تح/ أحمد يوسف النجاتي وآخرين ٣/٢٥١ – الدار المصرية للتأليف والترجمة / مصر – الطبعة/ الأولى .

(٣) معجم مقاييس اللغة مادة (ل ب س) .

(٤) سورة الكهف من الآية : (٣١) .

(٥) البقرة من الآية : (١٨٧) .

(٦) المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني – تح / صفوان عدنان الداودي ص ٧٣٤ ، ٧٣٥ – دار القلم ، الدار الشامية/ دمشق ، بيروت – ط/أولى ١٤١٢هـ .

وليس هو أصلها ، فالاختلاط والمداخلة مظِنَّةُ الستر ، ويمكن أن يقال : كل مخالطة يقع فيها ستر ، ولا يلزم أن كل سترٍ يكون فيه مخالطة . ومما جاء على أصل معنى المادة في القرآن قوله تعالى : ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . [١] وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ . [٢] وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ . [٣] وأشهر المعاني والإطلاقات في هذه المادة يعود إلى الثياب الملبوسة ، وقد غلب هذا الاستعمال – وهو الثياب الملبوسة – على هذه المادة ، حتى عد أصلاً لها كما ذكر ابن فارس . ومنه قوله تعالى : ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِين﴾. [٤] وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.[٥] يَذَّكَّرُونَ﴾.[٥] وقوله تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. [٦]

الثالثة : أن يكون للفظة استعمال سياقي : وهذه هي المرحلة الثالثة التي تقع للمفردة القرآنية ، فأي كلمة لها في سياقها معنى مراد ، قد يكون خارج المعنى اللغوي المطابق ، وهذا المعنى المراد للكلمة في هذا السياق قد يكون في أكثر من سياق قرآني ، وقد لا يكون له إلا سياق واحد . ومن هذا الاستعمال السياقي انطلقت كتب الوجوه والنظائر – (كـ الوجوه والنظائر لمقاتل بن سليمان البلخي ، الوجوه والنظائر للدمغاني ، الوجوه والنظائر لابن الجوزي وغيرهم) – في تعيين الوجوه للألفاظ القرآنية ؛ لذا تعددت الوجوه للفظ الواحد الذي يعود إلى معنى لغوي

(١) البقرة الآية : (٤٢) .
(٢) الأنعام الآية : (٩) .
(٣) الأنعام الآية : (٨٢) .
(٤) الدخان الآية : (٥٣) .
(٥) الأعراف الآية : (٢٦) .
(٦) فاطر الآية : (٣٣) .

واحد ؛ لأنه لا اعتبار لأصل اللفظ ولا لاستعمال العرب في تحديد الوجوه إلا إذا كان هو المعنى المراد في السياق .

الرابعة : المصطلح الشرعي : وهذا كثير في القرآن الكريم ، والمقصود به أن يكون استخدام اللفظ في القرآن والسنة على معنى خاص كالصلاة ، والزكاة والحج ، والجهاد ، وغيرها . وهو ما يسمى عند اللغويين باسم (الحقيقة الشرعية) ، وكان ابن فارس أول من أشار إلى هذه الألفاظ وذكر كثيراً منها ، وعالجها في كتابه الصاحبي تحت باب (الأسباب الإسلامية) حيث قال : " كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم . فلما جاء الله – جلّ ثناؤه – بالإسلام حالت أحوال ، ونُسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونُقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أُخَر بزيادات زيدت وشرائع شُرعت ، وشرائط شُرطت . فعفَّى الآخرُ الأوّلَ " . (١)

الخامسة : المصطلح القرآني : وهو أخص من المصطلح الشرعي ومن الاستعمال السياقي ؛ لأن المراد به أن يكون اللفظ في القرآن قد أتى على معنى معين من معاني اللفظ ، فيكون معنى اللفظ الأعم قد خُص في القرآن بجزء من هذا المعنى العام ، أو يكون له أكثر من دلالة لغوية فتكون أحد الدلالات هي المستعملة لهذا اللفظ في القرآن .

السياق ودوره في بيان إبداع المفردة القرآنية وجماليتها

يعد السياق – (وهو : الغرض الذي ينتظم به جميع ما يرتبط بالنص من القرائن اللفظية والحالية) – أصلاً من الأصول التي يجب على المفسر أن يعتمد عليها حتى يقف على المعنى المراد من اللفظ ومن ثم على حقيقة إعجازه اللغوي وإبراز كيفية انتقاء مفردات بعينها من دون غيرها تناسب كل سياق وإن اتحدت القصة أو تشابهت ، ومن ثم يستطيع الكشف عن القيمة التعبيرية للمفردة في سياقها ، ويبرز جماليتها التي تنبثق عن انفرادها في هذا الموضع بخصوصية

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها – أحمد بن فارس صـ ٤٤ – دار الكتب العلمية – ط/أولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

معنوية من دون غيرها مما يظن بعض العلماء ترادفها معها ، وهذا ما أكده ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) حيث قال : " ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه ، وما يبين معناه من القرائن والدلالات ، فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقاً ، ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب وطرد الدليل ونقضه ".[١]

وقد أشار كثير من علماء التفسير وغيرهم إلى أهمية السياق في وضوح الدلالات وإيضاح المعاني ومنهم ابن القيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) الذي يقول : " إنه يرشد إلى تبيين المجمل ، وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظره ، وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾ [٢] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير ... " .[٣]

وقال عز الدين بن عبد السلام : " السياق مرشد إلى تبيين المجملات ، وترجيح المحتملات ، وتقرير الواضحات ، وكل ذلك بعرف الاستعمال ، فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحاً ، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذماً ".[٤]

كما تبرز أهمية السياق في كونه محدداً لأحد المعاني التي يمكن أن يحتملها اللفظ في النص ويرد ما عداه . يقول فندريس : " الذي يعين قيمة الكلمة في كل الحالات التي ناقشناها إنما هو السياق ، إذ إن الكلمة توجد في كل مرة

(١) مجموع الفتاوى – ابن تيمية الحراني – تح/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ١٨/٦ – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،المدينة النبوية/ السعودية – ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٢) سورة الدخان آية : (٤٩) .

(٣) بدائع الفوائد – ابن القيم الجوزية ٤/ ٩ ، ١٠ – دار الكتاب العربي/ بيروت .

(٤) المقدمات الأساسية في علوم القرآن – عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب – صـ ٤١١ – مركز البحوث الإسلامية ليدز – بريطانيا – الطبعة/ الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

تستعمل فيها في جوٍّ يحدد معناها تحديدا مؤقتا . والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي بوسعها أن تدل عليها ". [١] وكذا قوله : "إننا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما ، إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذى يعينه سياق النص أما المعاني الأخرى جميعها فتمحى وتبدد ولا توجد إطلاقا ... والذى يعين معنى الكلمة إذن إنما هو السياق..." [٢]

وإذا عُلِمَ فضل هذا العلم ومنزلته عامة ، ففضله ومنزلته في التفسير أعلى وأدق حتى جعله الزركشي(ت ٧٩٤ هـ)عمدة التفسير ،وأعظم أركان المفسر.[٣] فلدلالة السياق القرآني أهمية بالغة في تفسير كلام الله – ﷻ – ، فهي أصل أصيل من أصول هذا العلم ، وبإهمالها يضع المفسر قدمه على عتبات الزلل ، ويركب مراكب الخلل ، وتوسم آراؤه بالعلل ، فيعظم الخطب ويصبح جللاً . وهذا ما أكده ابن تيمية – رحمه الله – الذي بين أن الخطأ في التفسير منشؤه إهمال دلالة السياق حيث قال : " من تدبر القرآن ، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها ، وعرف مقصود القرآن : تبين له المراد ، وعرف الهدى والرسالة ، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج . أما التفسير بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه ، فهذا منشأ الغلط من الغالطين ، لا سيما ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية ". [٤]

ولا أدل على أهمية السياق بالنسبة للمفسر من أنه يجد نفسه أما تعابير قرآنية مختلفة الصياغة من موضع إلى آخر – وسنورد بعضها كل في موضعه –

---

(١) اللغة – فندريس – تر د/ عبد الحميد الدواخلى ، و د/ محمد القصاص صـ ٢٢٨ – طبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٠م .

(٢) اللغة صـ ٢٢٨.

(٣) البرهان في علوم القرآن – الزركشي – تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ١/ ٣١١– دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه – ط/أولى ١٣٧٦هـ /١٩٥٧م.

(٤) مقدمة في أصول التفسير – ابن تيمية ص ٨٢ – دار مكتبة الحياة/ بيروت١٤٩٠هـ/١٩٨٠م.

مثل تعبير القرآن الكريم عن خلق الإنسان بأنه : خلقه من طين،ومن طين لازب ، ومن تراب ، ومن ماء ، ومن صلصال كالفخار . والحق أن هذه مراحل خلق الإنسان : ماء ، فتراب ، فطين لازب ، فصلصال . وكان لورود كل مفردة في موضعها أمر اقتضاه المقام ولم يكن مجرد اتفاق ، ولا مجرد تعبير خالٍ من الدقائق والأسرار . وتوضيح ذلك على النحو التالي :

يقول الزركشي : " ومتى كان اللفظ جَزْلًا كان المعنى كذلك ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ من تراب﴾ [1] ، ولم يقل من [طِينٍ] كما أخبر به سبحانه في غير موضع : ﴿إني خالق بشرا من طين﴾ [2] إنما عدل عنِ الطينِ الذي هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد التراب ؛ لمعنى لطيف وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثفهما ، لما كان المقصود مقابلة منِ ادَّعى في المسيح الإِلَهِيَّةَ أتى بما يُصَغِّر أمر خلقه عند منِ ادَّعى ذلك ، فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أَمَسَّ في المعنى من غيره من العناصر ، ولما أراد – ﷻ – الامتنان على بني إسرائيل أخبرهم أنه يخلق لهم من الطينِ كهيئة الطير تعظيمًا لأمر ما يخلقه بإذنه إذ كان المطلوب الاعتداد عليهِم بخلقه ليعظِّموا قَدْر النِّعمة به . ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دابة من ماء﴾ [3] فإنه سبحانه إنما اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر ؛ لأنه أتى بصيغة الاستغراق وليس في العناصر الأربع ما يعُمّ جميع المخلوقات إلا الماء لِيَدْخُل الْبَحْرِيُّ فيها " . [4]

ويقول د/ المطعني : " إن اختلاف الصياغة من موضع إلى آخر أمر اقتضاه المقام ولم يكن مجرد اتفاق . ونضرب لذلك مثلاً : قال إبليس في " الحِجْر " معتذِراً عن مخالفته أمر ربه : ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [5] بينما نسب خلقه إلى الطينَ في كل من الأعراف والإسراء وسورة " ص

(١) سورة آل عمران من الآية : (٥٩) .
(٢) سورة ص من الآية : (٧١) .
(٣) سورة النور من الآية : (٤٥) .
(٤) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٧٨ .
(٥) سورة الحجر الآية : (٣٣).

". والطين سابق على الصلصال والحمأ المسنون . قال الراغب : الصلصال تردد الصوت مِن الشيء الجاف ومنه قيل : صل المسمار ، وسمي الطين الجاف صلصالاً قال : ﴿مِن صَلصَالٍ كَالفَخَّارِ﴾ ، ﴿مِن صَلصَالٍ مَنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ . فأوثر الصلصال في " الحِجْر " لتقدمه في قوله تعالى : ﴿إِنِّي خَالِق بَشَراً مِن صَلصَالٍ مَّنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [1] ولعل إيثار هذا أيضاً على أن يقول : " من طين " لأن مبدأ خلق الإنسان هنا قوبل بمبدأ خلق الجانِّ ، ولما قال في خلق الجان : (مِن نارِ السَّمُوم) ناسب أن يكون القابل له : (صَلصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) لأن الطين إذا قوبل بالنار جف ويبس وسُمِعَ له صوت إذا حُرك . ومما يؤيد هذا قوله في الرحمن : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [2] .. فآثر الصلصال في مقابلة المارج الذى من نار. أما إيثار الطين في الأعراف والإسراء وسورة " ص " فحيث لم يقتض المقام سواه ، ولأنه أسبق وجوداً من الصلصال . هذا مثل أذكره للقياس ولبيان أن كل اختلاف في الصياغة إنما هو لسبب وداع . وليس لمجرد التعبير الخالي من الدقائق والأسرار" . [3]

فالسياق القرآني مظهر من مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم والذي لا يوجد بغيره ؛ لأنه وإن كان جزءا من السياق بعمومه في معناه العام ، إلا أن له مكونات أو عناصر خاصة يتميز بها لا بد من اعتبارها فيه ، وهي :

أولاً : ما بنيت عليه الآية من الأغراض : فمن أعظم ما تميز به القرآن الكريم تضمنه لأغراض متعددة في الآية الواحدة ، ولا شك أن هذا من كمال القرآن ، فإنه محتمل للوجوه بحسب اختلاف الأغراض التي تضمنتها الآية وهذا سر تعدد المعاني في الآية واختلافها ، ولهذا لا بد من اعتبار هذه الخاصية في السياق القرآني . وتشمل الأغراض التي تتضمنها الآية :

---

(١) سورة الحجر الآية : (٢٨) .
(٢) سورة الرحمن الآيتان : (١٤ ، ١٥) .
(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية – د/عبد العظيم المطعني صـ ٣٥٣ ، ٣٥٤ – مكتبة وهبة – ط/أولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

١. أغراض القرآن ومقاصده العظمى .
٢. غرض السورة .
٣. غرض المقطع أو القصة الواردة في موضوع واحد .
٤. غرض الآية .

فكل هذه الأغراض لا بد من اعتبارها في تفسير الآية ، ولا يظهر كمال معنى الآية إلا بها ، وهي متآلفة متكاملة مبنية على بناء واحد . قال ابن القيم(ت ٧٥١هـ) في بيان قيمة معرفة الغرض ومراد المتكلم : " والفقه أخص من الفهم ، وهو فهم مراد المتكلم ، وهذا قدر زائد على مجرد وضع اللفظ في اللغة ، وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا ، تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم ". (١)

وعلى هذا ينقسم السياق القرآني إلى أربعة أنواع متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى . وهو بذلك يختلف عن غيره من السياقات ، فالآية القرآنية تنشئ دلالة سياقية ، وإذا ضمت إلى مجموعة من الآيات نخرج بدلالة أو دلالات سياقية أخر ، ومجموع السورة ينشئ دلالات سياقية أخر ، وبالنظر إلى مجموع القرآن كوحدة موضوعية واحدة وطريقته وأغراضه ومقاصده نخرج بدلالات سياقية مغايرة . وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم ولا يوجد بغيره كما ذكرت .

ثانياً: النظم القرآني والأسلوب البياني المعجز : إذ يمثل النظم القرآني ، والأسلوب البياني الذي ائتلف منه القرآن البناء المحكم المتسق الذي تميز به القرآن عن سائر الكلام ، وهو خاصية مهمة في السياق القرآني بل هو ركن فيه ؛ إذ لا يمكن تفسير القرآن إلا باعتباره . قال الزركشي : " وهذا العلم أعظم أركان المفسر فإنه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة ، والمجاز ، وتأليف النظم ، وأن يواخى بين الموارد ، ويعتمد ما سيق له الكلام

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين – ابن قيم الجوزية – تح/ محمد عبد السلام إبراهيم ١٦٧/١ – دار الكتب العلمية / بيروت – الطبعة/ الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م .

حتى لا يتنافر وغير ذلك ... إلى أن يقول : "واعلم أن هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير، المطلع على عجائب كلام الله ، وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة" . (١)

ثالثاً: أسباب النزول والأحوال التي نزلت فيها الآية وأحوال المخاطبين بها : فمعرفة أسباب النزول والأحوال التي نزلت فيها الآية من أعظم ما يدل على تحديد الغرض والمعنى المقصود في الآية . فالسياقات تختلف لاسيما في المتشابه اللفظي والتركيبي في القرآن الكريم باختلاف الأحوال ، ومعرفة وقت النزول ، والغرض من تكرار السياق أو القصة أو الحدث ، وما يتضمنه في كل مرة يذكر فيها من مدلولات ترتبط بالغرض والمناسبة أو سبب النزول . وعليه لا بد من اعتبار هذه الخاصية في السياق القرآني ، وهذا ما وضحه السيوطي (ت ٩١١ هـ) في قوله نقلاً عن الواحدي : " لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها " . (٢)

ومن هنا يمكننا القول : إن السياق القرآني هو : الأغراض التي بنيت عليها الآية، وما انتظم بها من القرائن اللفظية – (وهي ما احتواه النص من التعبير والتركيب والارتباط بين الآيات) – والحالية – (وهي الأسباب والأحوال التي نزلت الآية فيها) – وأحوال المخاطبين بها .

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١١ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن – السيوطي – تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ١/ ١٠٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .

المبحث الثاني
النسيج الصوتي للمفردة القرآنية
ودوره في إبداع اللفظ وإبداع الدلالة

إن روعة القرآن الكريم وتفرده تأتي من أمور كثيرة لا تدخل تحت حصر ، ولا تختص بعلم من العلوم ؛ إذ يجد فيه كل باحث في كل علم غايته التي ينشدها والحقيقة التي يبحث عنها ، ولا يمكن إرجاع روعته وتفرده وإعجازه إلى جانب واحد فقط ، غير أن الجانب اللفظي واللغوي من القرآن الكريم – وهو أحد جوانب الإعجاز وركن من أركانه – كان له نصيب لا يستهان به في بيان روعة هذا القرآن وفرادته وإعجازه ؛ ذلك أن القرآن نزل على أمة تقيم وزناً للكلمة ، وتهتم بشأن اللغة بياناً وأسلوباً غاية الاهتمام ، وأي شيء في تاريخ الأمم – كما يقول الرافعي (ت ١٣٥٦هـ) – : " أعجب من نشأة لغوية ، تنتهي بمعجزة لغوية ، ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمه مما تنطوي عليه هذه المعجزة وتأتي به على أكمل وجوهه وأحسنها ، وتخرج به للدهر خير أمة كان عملها في الأمم صورة

أخرى من تلك المعجزة " . [1] فضلاً عن ذلك تحديه لأرباب الفصاحة والبيان على لسان الأمي الذي لا يقرأ كلمة وهو سيد الخلق أجمعين وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد – ﷺ – .

فالقرآن الكريم اختص بأنه معجزة لغوية بالغة تتحدى كل إنسان في كل زمان ومكان مهما كانت ثقافته وأدبه ، وأنه معجز وفق أي مقياس لغوي صحيح وذوق جمالي سليم في كل عصر وزمان . وأن أي عصر مهما تقدم في الدراسة اللغوية لا يحيط بالإعجاز اللغوي للقرآن الكريم . وهذا ما أكده الشيخ/ محمد عبدالعظيم الزُّرْقاني (ت ١٣٦٧هـ) في قوله : " إن الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن والمزايا التي توافرت فيه حتى جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر ، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف وبعد أن دميت أقدامهم وحفيت أقلامهم لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قِلاً من كثره وقطرة من بحر معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء ، وأن ما خفي عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه ، وأنهم لم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين . أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب ". [2]

وكان الاهتمام بجمال صوت الكلمة – أي صورتها الأولى – كـ وجه أساس من وجوه الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم وخصيصة من خواصه من أبرز ما أدركه بعض علماء العربية قديماً وحديثاً ، إذ نجد في مؤلفاتهم عبارات وألفاظاً تشير إلى حسن التأليف الصوتي للمفردة القرآنية وإلى ضوابطه مثل : رقة اللفظ ، وحلاوة الحروف ، والسلاسة ، والسهولة ، والعذوبة ... ونحو ذلك مما يدل على تذوقهم للألفاظ واعتبارهم حسن السمع مقياساً حاكماً على جمال المفردة أو العكس . وكذا حديثهم عن براعة التركيب للمفردات القرآنية في النظم ، ومقارنتها بورودها في

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – الرافعي صـ ١١٠ – دار الكتاب العربي/بيروت – ط/ثامنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن – الزُّرْقاني ٢/ ٣٠٩ – مطبعة عيسى البابي الحلبي– ط/ثالثة .

فصيح كلامهم وهو الشعر العربي . وكذلك وضعهم للمقاييس الصوتية لبنية الكلمة العربية وهي مقاييس مستوحاة من تدبر لغة القرآن الكريم مثل : ما يأتلف من الحروف في الكلمة ، وما لا يجوز ائتلافه منها وتقديم حرف على آخر في بناء الكلمة ضرورة أو تأخيره عنه وجوباً ، ومعرفة الفصيح والأفصح ، والمأنوس وغيره ، والشاذ والغريب والنادر وسببه ، وما يكثر استعماله وما يقل وسببه وإن خالف الأصول اللغوية التي استنبطوها من لغة القرآن الكريم ، ومن فصيح الكلام .

فللصوت اللغوي أهمية قصوى في دراسة المفردة القرآنية من حيث كونه البنية اللغوية الصغرى واللبنة الأساسية المكونة للكلمات والتراكيب والآيات ، إلى جانب ذلك فهو عنصر أساس في الإعجاز القرآني ، فالقرآن الكريم ينتقي الأصوات بحسب الدلالات لتجسيد المعاني في أحسن صورة . من هنا كان للنسيج الصوتي للمفردة القرآنية – (من حيث تآلف حروفها ، وحسن تلاؤمها ، وعذوبة وقعها في السمع ، وارتباط ذلك كله بدقة الدلالة التي يقتضيها السياق والمقام أو الحدث المعبر عنه) – مكانته في بيان الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم الذي تحدى ببلاغته وفصاحة مفرداته ، وبراعة تراكيبه ، وروعة بيانه ، ودقة تصويره أرباب الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن الإتيان بمثل آية منه وأقروا بذلك في أنفسهم ؛ وذلك بانتقائه لمفرداته اللغوية انتقاءً دقيقاً معبراً وموحياً ؛ لذا استخدم القرآن الكريم بعض المفردات التي حواها المعجم العربي الفصيح ولم يستوعبها جميعاً على النحو الذي سيأتي تفصيله في موطنه من البحث إن شاء الله تعالى . وبالتأمل فيها تجد أنها مفردات اتسمت من حيث بنيتها الصوتية بسمات معينة تبرز جمالها وإبداعها ودقة مضمونها وبديع صنع منشئها – ﷻ – وإن لم يكن بعضها في الأصل من لهجة قريش وإن استعملوها ، ولا من لغة العرب الذين استعملوها قبل البعثة المحمدية وقبل نزول القرآن الكريم في فصيح كلامهم تأثراً أو اقتراضاً ، فلم تكن غريبة عليهم أو غير مألوفة .

يقول يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥هـ) : " إن القرآن يتميز عن كلام النبي – ﷺ – وكلام أمير المؤمنين علي – ﷺ – ، وغيرهما ممن يشهد له بالفصاحة والبلاغة وهذا التميز تارة يكون راجعاً إلى ألفاظه من فصاحة بنيتها ، وعذوبة

تركيب أحرفها ، وسلاسة صيغها ، وكونها مجانبة للوحشي الغريب وبعدها عن الركيك المسترذل..."[١]

وكان هذا الجمال الصوتي للمفردة القرآنية بأنواعه المختلفة أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن الكريم ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام سواء أكان مرسلاً أم مسجوعاً . من هنا كانت مسحة القرآن اللفظية مسحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي البديع ، وكان من أبرز ما اتسمت به المفردة القرآنية على هذا المستوى ما يلي :

أولا : التناسق الصوتي في المفردة القرآنية :

وضع علماء العربية والبلاغة القرآنية شروطاً مستوحاة من فصاحة وبلاغة الكلمة القرآنية عرف عن طريقها أن لغة القرآن الكريم قد بلغت الذروة في الفصاحة والبلاغة وهو الأمر الذي أعجز العرب مجتمعين وهم أرباب الفصاحة والبيان عن معارضته والإتيان بمثل آية منه ، فنظروا من بين ما نظروا في مفرداته وتدبروها بعقلية الباحث عن أسرار الإعجاز الصوتي في مكونات المفردة القرآنية ، فوجدوا أنها قد بلغت الغاية في الإتقان، والإحكام في تآلف أصواتها ، وفي تقديم ما قدم منها ، وتأخير ما أخر منها ، وفي منع ما منع أن تبنى منه المفردة القرآنية .

يقول أحد الباحثين المحدثين : " لعلك إذا قلبت النظر بين ألفاظ القرآن ومعانيه تجد إعجازه يشع عليك منهما معاً ، فترتب حروفه بما لها من صفات وإيحاءات ، وتناسق كلماته بما لها من شعاع يتألق من رصفها وترتيبها ، وتساوق المعاني التي تسابق إلى النفس وقع ألفاظها في السمع كل ذلك من أسرار الإعجاز البياني في القرآن . فقد قدر في ترتيب حروفه مخارجها ونبراتها وصفاتها وما يوحي به كل حرف من أثر في النفس ، كما قدر في ترتيب الكلمات التناسق العجيب بحيث تكون كل كلمة منها لقف أختها ، فلا تجد بينها ما ينبو عنه السمع أو ينفر منه الطبع . وما أجمل وصف الأستاذ الرافعي لحروف القرآن إذ وصف كل

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي ٣/٢١٥ – المكتبة العصرية/ بيروت – ط/أولى ١٤٢٣هـ.

حرف منها بأنه يمسك الكلمة ليمسك بها الجملة ، وما أروع المثل الذي ضربه للقرآن حيث جعل مثله مثل نظام الكون في ترتيبه الدقيق وتناسقه العجيب بكل ما فيه من الذرة إلى المجرة " . (١)

وقد اهتدى علماء البلاغة العربية بعد تأمل وطول نظر وعمق البحث والدراسة والاستقصاء إلى أن المفردة القرآنية بنسيجها الصوتي وبتآلف أصواتها قد خلت من تنافر حروفها في تركيبها الصوتي المعجز ، وحرصت على تناسق أصواتها على امتداد القرآن الكريم من أوله إلى آخره تناسقاً يعجز الإنسان عن الإتيان بمثله ، وقد توصلوا في ذلك إلى ضابط عُد هو الأصل الأول في الحكم على فصاحة الكلمة وهو : البعد عن تأليف الكلمة من حروف متقاربة في المخارج . فتباعد المخارج بين الحروف المتجاورة في نظم الكلمات أصلية الحروف يعد أهم الأصول التي تتألف منها الكلمات في لغة القرآن الكريم حتى تكون متلائمة .

ومن هنا نقول : إن قوة الكلمة القرآنية وخفة طبعها تكمن في اختيار تركيب الكلمات من حروف متباعدة في مدارجها الصوتية ليختلف الصوتان ، فيعذبا بتراخيهما ، فأما أن ينتقل عنه – أي الحرف – إلى مخرج يجاوره وصدى يناسبه ، ففيه من الكلفة ... فلذلك حسن تأليف ما تباعد من الحروف ، وكان تضعيف الحرف عليهم أسهل من تأليفه مع ما يجاوره (٢) ؛ لذا عد تلاؤمُ الحروف وجهاً من وجوه الفضيلة وداخلاً في عداد ما يُفاضَلُ به بين كلام وكلام ، إلا أنه لا ينبغي أن يعد أصلاً وحيدًا في إعجاز القرآن الكريم .

والتلاؤم الصوتي هو نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف ؛ لأن تأليف الكلام على ثلاثة أوجه : متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ،

(١) الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم – جمع وإعداد/ علي بن نايف الشحود ص ٤٦٥ – بالمكتبة الشاملة.

(٢) سر صناعة الإعراب – ابن جني١/٣٣١– دار الكتب العلمية/بيروت– ط/أولي١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

ومتلائم في الطبقة العليا . [١] ويعود الرماني بالتلاؤم إلى تجانس الأصوات حيث يقول : " ولما كانت أصوات القرآن متجانسة تماماً ، فإن القرآن كله متلائم في الطبقة العليا ، وذلك بيّن لمن تأمله ، والفرق بين القرآن وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى ، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض " . [٢]

والتلاؤم في أصوات القرآن الكريم عنده يكون من وجوه :

١. السبب في التلاؤم ويعود به إلى تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما .

٢. الفائدة في التلاؤم ويعود بها إلى حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يَرِد عليه من حسن الصورة وطريق الدلالة .

٣. ظاهرة التلاؤم ويعود بها إلى مخارج الحروف في اختلافها . فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو في الوسط ويبدو ذلك من قوله: " والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد . وذلك يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه في الأسماع ، وتقبله في الطباع ، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ؛ ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام " . [٣]

وعلى هذا يكمن التلاؤم الذي نقصده في معالجة المفردة القرآنية في إثبات جمالية الائتلاف الحرفي حتى يكون للفظ حُسْنٌ في السمع ، وسهولة في النطق به ، وتقبل النفس لمعناه لما يرد عليها من جماليات الصورة والدلالة ، إذ يؤدي

---

(١) النكت في إعجاز القرآن – الرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن(للرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني) تح/محمد خلف الله أحمد ، ود/محمد زغلول سلام صـ ٩٤ ، ٩٥ – دار المعارف/ مصر – ط/ثالثة من سلسلة ذخائر العرب.

(٢) النكت في إعجاز القرآن صـ ٩٥ .

(٣) السابق صـ ٩٦ .

هذا الجمال اللغوي الناشئ عن الاتساق والانسجام بين أصوات الكلمة إلى سرعة فهم المعنى وتذوقه .

فقد امتاز القرآن الكريم – كما يقول الزرقاني – " برصف حروفه وترتيب كلماته ترتيباً دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس في كلامهم .... ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس ؛ لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه ، واختل نظامه في آذان سامعيه . ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي وذاك النظام الصوتي أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية كانا سوراً منيعاً لحفظ القرآن من ناحية أخرى ، وذلك أن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي أن يسترعي الأسماع ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم ، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقاً لقوله – ﷻ – : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [1] . [2]

من هنا يكون المقصود بالتناسق الصوتي هو : " اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته وسكتاته اتساقاً عجيباً وائتلافًا رائعاً يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور ". [3]

وقد خصصت لهذا الملمح الجمالي – (التناسق الصوتي) – بحثاً مستقلاً.[4] تحدثت فيه عن مفهوم التناسق الصوتي ومظاهره وضوابطه ، وبيان ما يأتلف من الحروف مع غيره في بنية المفردة القرآنية ، وما لا يجوز ائتلافه منها ، وما يكثر دورانه منها في لغة القرآن الكريم وما يقل ، ووضحت العلة في ذلك بما يغني عن إعادة الحديث عنه هنا .

---

(١) سورة الحجر الآية : (٩) .
(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ٣١٣/٢ .
(٣) السابق ٣١٠/٢ .
(٤) التناسق الصوتي في لغة القرآن الكريم – للباحث – بحث منشور في مجلة كلية أصول الدين بأسيوط ٢٠١٢م .

ثانيا : الجرس الصوتي أو صفات الحروف ودورها في إبداع المفردة وبيان جماليتها

لقد وظف الصوت أو الحرف داخل المفردة القرآنية توظيفاً دقيقاً لخدمة المعنى المقصود بحيث لو حذف هذا الصوت أو حل غيره محله اختل المعنى المراد ، وكان للجرس الصوتي النابع من بعض الأصوات التي تتميز بصفات جرسية خاصة كالأصوات الاحتكاكية التي يتبعها صويت أو صفير ، أو النابع من الاندماج الصوتي بحرف آخر وتضعيفه ، أو تكريره ، أو إبداله بآخر أقوى منه دوراً رئيساً وبارزاً في وضوح معنى المفردة القرآنية ، وهذا مما يوحي بتفرد المفردة القرآنية ، ويبرز جمالها في موقعها من النظم وسياقها الواردة فيه ، فضلاً عن حسن وقعها في السمع بحسن جرسها وسلاسة وعذوبة منطقها . ولا أدل على صحة ذلك من تأمل حال هذه المفردات في السياق القرآني، فقد عُنيَ القرآن الكريم بالجرس عنايته بالمعنى وهو لذلك يتخير الألفاظ ذات الجرس المعبر تخيراً يتسق مع جو الآية وجو السياق بل جو السورة كلها في كثير من الأحيان وبخاصة تلك السور القصار التي حَفِلَ بها العهد المكي ... لتأكيدها أصول العقيدة : من الإيمان بالله وتوحيده ... إلخ .

وبهذا يمكن الاستفادة من معطيات علم اللغة الحديث في بيان سر جمالية المفردة القرآنية وإبداعها اللفظي والمعنوي . فالبحث اللغوي الحديث – مستنداً على إشارات بعض القدماء من علماء العربية ومفسري القرآن الكريم – يرى أن للألفاظ قيمة ذاتية إيجابية من حيث ما يوحي به جرس حروفها من إحساس يعزز المعنى المعبر عنه ، وقد أشار د/إبراهيم أنيس إلى هذا النوع من الدلالة التي تستمد من طبيعة الأصوات والتي يسميها علم اللغة الحديث (الدلالة الصوتية) أو (رمزية الألفاظ) كما سماها (جسبرسن) [1] ؛ لأن لكل كلمة ذائقة سمعية – تكتسبها من استقلالها بحروف معينة – قد تختلف عما سواها من الكلمات التي تؤدي نفس

(١) دلالة الألفاظ – د/ إبراهيم أنيس صـ ٦٨ ، ٧٠ – الأنجلو المصرية ١٩٩٧م .

المعنى مما يجعل الكلمة المختارة مؤثرة أكثر من الأخرى – وإن اتحدت معها بالمعنى – بما تضفيه الدلالة الصوتية التي تتجلى بكلمات مختارة . [١]

ففي القرآن الكريم مفردات شديدة الإيحاء قوية البعث لما تتضمنه من المعاني ، وعليه يجب أن يكون الغرض الأول في التعبير هو – كما قال أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ) – : " صحة المعنى ، والغرض الثاني في تخير اللفظ – (لأن الألفاظ تابعة للمعاني وخدم لها كما ذكر ابن جني الذي جعل المعنى أهم من اللفظ . [٢]) – أما الغرض الثالث فيكمن في تسهيل النظم ، وحلاوة التأليف واجتلاب الرونق ، والاقتصاد في المواخاة ، واستدامة الحال ، ليستمر الثاني على الأول ، والثالث على الثاني " . [٣] أي حسن الرصف وبراعة التركيب وجمال الأسلوب . " فخير الكلام ما أيده العقل بالحقيقة ، وساعده اللفظ بالرقة ، وكان له سهولة في السمع ، ووقع في النفس ، وعذوبة في القلب ، وروح في الصدر . يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام . فأما صحته فمن جهة شهادة العقل بالصواب ، وأما بهجته فمن جهة جوهر اللفظ واعتدال القسمة ، وأما تمامه فمن جهة النظر الذي يستعير من النفس شغفها ويستثير من الروح كلفها " . [٤]

والمقصود بالجرس كظاهرة صوتية هو : أثر سمعي غير ذي ذبذبة مستمرة مطردة كالنقرة على الخشب أو الطبلة . [٥] أما الجرس كظاهرة لغوية ترتبط بفقه المعنى فهو : " أن يأتي مسموع الأصوات على حذو محسوس الأحداث " . [١]

---

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية – د/ محمد حسين الصغير صـ ٢٣٨ – دار الهادي١٩٩٢م.

(٢) الخصائص – ابن جني ١/ ٢٢١ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة/ الرابعة .

(٣) أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين) أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد – أبو حيان التوحيدي – تح/ محمد بن تاويت الطنجي صـ ١٣٥ – دار صاد / بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب – د/ إحسان عباس صـ ٢٣٧ – دار الثقافة/ بيروت– ط/رابعة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

(٤) أخلاق الوزيرين صـ ١٣٥.

(٥) مناهج البحث في اللغة – د/ تمام حسان صـ ٥٩ – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٠م.

وقد عده علماء البلاغة العربية من المحسنات البديعية اللفظية ، وذلك بأن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد منها . ومن هذه الملاءمة أن يحكي صوت الكلمة صوتاً يوجد فيما دلت عليه ، مثل "حفيف" لحركة أوراق الشجر، و" فحيح " لصوت الأفعى، و" صَرْصَر" لصوت الريح الشديدة ، والهمز للصوت الذي يصدر عنه إقفال القفل أو تحريك المزلاج في "مؤصدة" ، و"سلسبيل" لصوت الماء الذي يجري بيسر ، و"خرير" للماء النازل في شلاّل . [٢] وهو ما عناه ابن جني بـ مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث حيث قال في باب الإمساس : " أما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم . وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها ، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها ، وذلك أكثر مما نقدره ، وأضعاف ما نستشعره .... ومن ذلك قولهم : النضخ للماء ونحوه والنضخ أقوى من النضح ، قال الله سبحانه : ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فجعلوا الحاء – لرقَّتها– للماء الضعيف ، والخاء – لغلظها – لما هو أقوى منه " . [٣]

فابن جنى يؤمن بقيمة الحرف التعبيرية الخاصة ، وهو يعتقد أن كل حرف معبر عن غرض ، وأن الكلمة العربية مركبة من مادة صوتية يمكن حل أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوال المعبرة . فكل حرف منها يستقل ببيان معنى خاص مادام يستقل بإحداث صوت معين ، وكل حرف له ظل وإشعاع ؛ إذا كان لكل حرف صدى وإيقاع . وإثبات القيمة التعبيرية للصوت البسيط وهو حرف واحد في كلمة كإثبات هذه القيمة نفسها للصوت المركب .

وعلى نهجه سار كثير من علماء اللغة المحدثين ومنهم : مصطفى صادق

---

(١) البلاغة الصوتية في القرآن الكريم – د/ محمد إبراهيم شادي صـ ٢٨ – الرسالة / مصر – ط/أولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .

(٢) البلاغة العربية – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة ٥٢٠/٢ – دار القلم/ دمشق، الدار الشامية/ بيروت – ط/أولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

(٣) الخصائص – ابن جنى – تح / محمد على النجار ١٦٠/٢ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط/ ثالثة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) ، وأحمد البدوي (ت ١٣٨٤هـ) في كتابه (من بلاغة القرآن) ، على حين حدد د/ إبراهيم أنيس المجالات التي تلحظ فيها وثوق الصلة بين الأصوات والمدلولات بحيث تقتصر الظاهرة على ألفاظ قليلة ولا تتعداها [١] ، ود/ صبحي الصالح في كتابيه : (دراسات في فقه اللغة ، ومباحث في علوم القرآن) وإن جعلها قاصرة على ألفاظ محددة في اللغة . [٢] ود/ محمد إبراهيم شادي في كتابه (البلاغة الصوتية في القرآن الكريم) ، وغيرهم . وقد اصطلحوا على تسميتها باسم (المحاكاة الصوتية) ويعنى بها عندهم : اختيار ألفاظ يوحي صوتها بمعناها ، خلافاً لجمهور الأصوليين [٣] ، وابن سينا ، وأبى حاتم الرازي (ت ٣٢٢هـ) [٤] ، والآمدى (ت ٦٣١هـ)[٥] ، والبطليوسى (ت ٥٢١هـ) [٦] ، وغيرهم من القدامى الذين نفوا هذه الصلة بين اللفظ ومدلوله ، ووافقهم أ/ محمد المبارك ، وغيره من المحدثين . [٧]

أما أول من تعرض لهذه الظاهرة الجمالية من المفسرين المحدثين فهو الشيخ/ سيد قطب – رحمه الله – وذلك في كتابيه (في ظلال القرآن ، والتصوير الفني في القرآن) ، إلا أنه لم يفد من منهج ابن جني الذي اعتمد معطيات فقه اللغة في معرفة طبيعة الأصوات حيث اعتمد على تذوقه الشخصي للموقف والسياق وما يصوره من مشاهد ومدلولات تتوافق معها ، فلمح وأشار إلى العلاقة الكائنة بين

(١) من أسرار اللغة – د/ إبراهيم أنيس صـ ١٤٥ – الأنجلو المصرية – ط /سابعة ١٩٩٤م.
(٢) دراسات في فقه اللغة – د/ صبحى الصالح صـ ١٤٦ – دار العلم للملايين – ط / ثانية عشر ١٩٨٩م .
(٣) المزهر في علوم اللغة وأنواعها – السيوطي – تح/ محمد جاد المولى ، وآخرين ١ /٤٧ – المكتبة العصرية / بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م .
(٤) علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق – د/ فايز الداية صـ ١٧ – دار الفكر/ دمشق – ط/ ثانية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
(٥) الإحكام في أصول الأحكام – الآمدى ٤٨٧/١ – مطبعة المعارف ١٩١٤م .
(٦) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب – ابن السيد البطليوسي صـ ١٥٧ ، ١٥٨ – المطبعة الأدبية / بيروت ١٩٠١م .
(٧) فقه اللغة وخصائص العربية – محمد المبارك صـ ٨٥ – دار الفكر الحديث/ لبنان – ط/ثانية ط/ثانية ١٩٦٤م.

الصوت وما يوحي به جرسه وبين معناه ، ولم يشر إلى صفات الصوت التي ينتج عنها الجرس كما فعل ابن جني ومن سار على نهجه من اللغويين . فهو يقف عند الآية : ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾ (١) ، ويقول : " على أن لفظة (الزقّوم) نفسه يصور بجرسه ملمسا خشنا شائكا مدبّبا يشوك الأكف – بله الحلوق – وذلك في مقابل السدر المخضود والطلح المنضود ". (٢)

ولو أنه احتذى حذو ابن جني لتجنب هذا التلميح الخفي ، ولقال بقوة القاف الحرف المجهور الشديد ، خصوصاً إذا كان مدغماً ، وهناك الوقوف على الميم الذي تنطبق الشفتان انطباقاً تاماً عند النطق به ، فيحبس الهواء حبسا تاما في الفم . وهذا الحبس يلائم اختناق آكل هذا الطعام ، وانسداد حلقومه ، ويلائم القاف معالجة اللقمة غير السائغة بشدته وتكرره . (٣)

وعندما ننظر في المفردات القرآنية التي تميزت بسمت الجرس نلحظ أنها ربما اكتسبت جرسها وقدرتها على حكاية معناها من مخارج وصفات حروفها ومن ذلك ما يلي :

. كلمة (يصطرخون) في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ (٤) . إذ تتحدث الآية الكريمة عن فعل الكافرين يوم يوم القيامة وهم يعذبون في نار جهنم ، فهم يصرخون قائلين : ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل . فاستعمل القرآن الفعل (يصطرخون) دون (يصرخون) للمبالغة ؛ لأنه افتعال من الصراخ وهو الصياح بشدة وجهد ، فالاصطراخ مبالغة

(١) سورة الواقعة الآية : (٥٢) .
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب إبراهيم ٦/ ٣٤٦٥– دار الشروق / بيروت– طبعة(١٧) ١٤١٢هـ.
(٣) جماليات المفردة القرآنية صـ ٢٢٦ .
(٤) سورة فاطر من الآيتين (٣٦ ، ٣٧) .

فيه أي يصيحون من شدة ما نابهم .[١]

(١) التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور ٣١٨/٢٢ - الدار التونسية للنشر/تونس ١٩٨٤هـ.

كذا اكتفى الشيخ/ سيد قطب بالإشارة إلى دور الجرس وذكر الأثر النفسي في إفادة المعنى دون أن يبين كيف نتج هذا الجرس حيث قال : " ثم ها نحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء ، متناوح من شتى الأرجاء ، إنه صوت المنبوذين ، وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعا.. فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول . إنه يقول : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) إنه الإنابة والاعتراف والندم إذن ولكن بعد فوات الأوان" .[1] فهو لم يذكر العلاقة القائمة بين الصوت والمعنى الذي ينتج عنها الجرس ؛ لأن في هذا اللفظ أربعة أحرف احتكاكية تقوم بدور حسّي يصور معالجة النار لأجسادهم .

وهذا ما وضحه د/ تمام حسان بقوله: " فكأن ارتفاع أصواتهم بالصراخ ومشاركتهم جميعا فيه وتكرار ذلك منهم لا يكفي أن يعبر عنه بالفعل المجرد فيقال مثلا (وهم يصرخون فيها) فجاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة في إيقاع الحدث ، وقد قصد لها أن تجاور الصاد المطبقة فتتحول بالمجاورة إلى التفخيم ؛ ليكون في تفخيمها فضل مبالغة في إيقاع الفعل ". [2]

بينما نص د/ عبدالعظيم المطعني على جرس اللفظ الناتج عن تآلف الحروف في بنية المفردة ودوره في بيان جماليتها حيث قال : " الكلمة بجرسها الغليظ الصاخب ورنينها الخشن الصاك ، الذي يكاد يخترق صماخ الأذن ، تمثل الموقف أدق تمثيل . فإن الصراخ المنبعث من نفوس تئن تحت وطأة العذاب صراخ عال مدو يختلط بعضه ببعض – بدءا ونهاية – ويملأ المكان صخباً ورنيناً وإنك لتلحظ أثر" الصاد " و " الطاء " في إبراز الصوت بمثل هذه الصورة الغليظة، فهل كنت تحس شيئاً من ذلك لو وُضعَت كلمة " يدعون " الهادئة الوديعة مكان "يصطرخون" – الهادرة العنيفة . وهل كنت تقف على بلوغ قلقهم الذي لولا كلمة

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٥ .
(٢) البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية وأسلوبية للنص للقرآني) – د/ تمام حسان ٢٠٤/٢ – عالم الكتب.

"يصطرخون" الملائمة لجوهم النفسي أدق ملاءمة وأبرعها " . [١]

ـ ومن ذلك أيضاً : مجيء كلمة في بناء تعبيري ممتد فيكون لجرسها من الأثر ما يغني عن عديد من الكلمات مثل كلمة (صر) في قول الله – ﷻ – : ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٢] حيث جاءت كلمة (صِرَّ) في هذا السياق المصوِّر نفقة الذين كفروا ، وما يحيط به من هلاك لا يبقى ولا يذر، فترسم كلمة (صِرّ) بجرسها هول ما يحيط بالحرث من الريح المهلكة ، ولو استبدلت بها كلمة أخرى بل كلمات لما استطاعت بدلالتها المباشرة الصريحة أن تقوم بما قام به هذا الجرس المالئ سمعك وقلبك بصوت الريح المهلكة المفزعة التي تخلع القلوب قبل أن تخلع الحرث وتهلكه. [٣]

وكان د/ أحمد البدوي ممن اقتدى بابن جني في بيان جمالية المفردة القرآنية من خلال جرسها المعبر بل عده لوناً من إعجاز القرآن الكريم وفصاحته لعدم قدرة البشر على تحقيق ذلك مهما فصحت ألسنتهم أو برعوا في نظمهم حيث يقول : "هناك عدد كبير من الألفاظ ، تصور بحروفها ، فهذه (الظاء والشين) في قوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ﴾ [٤] ، و(الشين والهاء) في قوله – ﷻ – : ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ * إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ﴾ [٥] و(الظاء) في قوله تعالى : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى﴾ [٦] ، و(الفاء) في قوله – ﷺ – : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية – د/ عبدالعظيم المطعني صـ ٢٦٣– مكتبة وهبة – ط/أولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
(٢) سورة آل عمران الآية : (١١٧) .
(٣) ينظر: التصوير الفني – الشيخ/ سيد قطب صـ ٤١ – دار الشروق/ مصر – ط/ رابعة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، وفي ظلال القرآن صـ ٤٤٥.
(٤) سورة الرحمن (٣٥) .
(٥) سورة الملك (٦ ، ٧) .
(٦) سورة الليل (١٤) .

بِالسَّاعَةِ سَعِيراً * إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ [١] حروف تنقل إليك صوت النار مغتاظة غاضبة . وحرف (الصاد) في قوله – ﷻ – : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [٢] يحمل إلى سمعك صوت الريح العاصفة ، كما تحمل (الخاء) في قوله – ﷻ – : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٣] إلى أذنك صوت الفلك ، تشق عباب الماء . وألفاظ القرآن مما يجرى على اللسان في سهولة ويسر، ويعذب وقعه على الأذن في اتساق وانسجام . قال البارزى في أول كتابه (أنوار التحصيل في أسرار التنزيل) : اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بدّ من استحضار معانى الجمل ، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر، في أكثر الأحوال ، وذلك عتيد حاصل في علم الله ، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملا على الفصيح والأفصح ، والمليح والأملح .. " [٤]

كما بين د/ صبحي الصالح جمالية المفردة القرآنية من حيث جرسها المعبر فقال: " اللفظة المفردة في كل آية من آياته ، تكاد تستقل – بجرسها ونغمها – بتصوير لوحة كاملة فيها اللون زاهياً أو شاحباً ، وفيها الظل شفيفاً أو كثيفاً . أرأيت لوناً أزهى من نضرة الوجوه السعيدة الناظرة إلى الله ، ولوناً أشد تجهماً من سواد الوجوه الشقية الكالحة الباسرة في قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [٥] ؟ لقد استقلت في

(١) سورة الفرقان (١١ ، ١٢) .
(٢) سورة القمر (١٩) .
(٣) سورة فاطر (١٢) .
(٤) من بلاغة القرآن – أحمد عبد الله البيلي البدوي صـ ٦٠ – نهضه مصر/ القاهرة ٢٠٠٥م. ٢٠٠٥م.
(٥) سورة القيامة : الآيتان (٢٢–٢٥) .

لوحة السعداء لفظة "ناضرة" بتصوير أزهى لون وأبهاه ، كما استقلت في لوحة الأشقياء لفظة "باسرة" برسم أمقت لون وأنكاه .

وحين تتسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح إلى خفة وقعها في قوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (١) . بينما تقع الرهبة في صدرك وأنت تسمع لاهثاً مكروباً صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة "تحيد" بدلاً من "تنحرف" أو "تبتعد" في قوله : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.(٢) وتقرأ قوله تعالى : ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (٣) ، فلا ترى في المعجم غير كلمة "زحزح" تصور مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات ، وما يصاحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصلاه !. وليأخذنك من الغيظ مثل ما يأخذ جنهم حين تتسمع لفظ " تميز" من قوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (٤) .... وما أحسب شفتيك إلا منقبضتين استقباحاً واستهجاناً لحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه ، في قوله تعالى : ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ (٥) فتستشعر في لفظ "التجرع" ثقلاً وبطئاً يدعوان إلى التقزز والكراهية ! . ولا أحسبك إلا مستشعراً عنف لفظة الكبكبة في قوله : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (٦) حتى لتكاد لتكاد تتصور أولئك المجرمين يكبون على وجوههم أو على مناخرهم، ويلقون إلقاء المهملين، فلا يقيم أحد لهم وزناً ! . (٧)

---

(١) سورة التكوير الآيتان : (١٥-١٨) .
(٢) سورة ق الآية : (١٩) .
(٣) سورة آل عمران : الآية (١٨٥) .
(٤) سورة الملك الآية : (٨) .
(٥) سورة إبراهيم من الآيتين : (١٧) .
(٦) سورة الشعراء الآية : (٩٤) .
(٧) مباحث في علوم القرآن – د/ صبحي الصالح – صـ ٣٣٤ وما بعدها – دار العلم للملايين – – الطبعة/ الرابعة والعشرون ٢٠٠٠م.

فلفظ (كبكبوا) يشير بجرسه إلى أنهم يكبون كباً عنيفاً غليظاً ، كما يدل تكرار المقطع (كب) على تكرار هذا الدفع ، كما يدل على الحركة المضطربة وهم يُدفعون كأن بعضهم يدخل في بعض . وحاجة المقام هي التي اقتضت التعبير بـ (كبكبوا) دون (كبوا) ، ويتبين هذا بالنظر إلى قوله تعالى في سورة النمل : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [1] فترى التعبير هنا عن السقوط في النار بقوله (فكبت) وهناك بقوله (فكبكبوا) وكل ملائم لغرضه موافق لسياقه فحيث تعددت أصناف الكفار وكثر عددهم فشمل الغاوين والذين أضلوهم ثم جنود إبليس أجمعون ناسبهم التعبير بـ كبكبوا ؛ ليكون أبلغ في الدلالة على حشرهم جميعاً على هذه الصفة القوية العنيفة المناسبة لعتوهم وكثرتهم ، وحيث لم يذكر تلك الأصناف في سورة النمل اكتفى بقوله : (فكبت وجوههم في النار) على أن السياق في سورة النمل يحرص على إبراز إهانتهم بطريق معينة هي إسناد الكب لأشرف جزء في الإنسان وهو الوجه .. وهناك في الشعراء لم يرد للوجه ذكر ؛ لأن المقصود الأوضح فيها هو إبراز دفعهم دفعاً قوياً متكرراً عنيفاً يجعلهم مضطربين متداخلين مذعورين . [2]

. وقد يستفاد الجرس من طريق الأداء للمفردة كالإدغام في كلمة (اثاقلتم) في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا قَلِيلٌ﴾ [3] فالمتأمل للآية الكريمة يجد أنها قد اشتملت على أداء قام به اللفظ (اثاقلتم) بكل ما يتكون به من حروف ، وبصورة ترتيب هذه الحروف ، وحركة تشديد على الحرف اللثوي (الثاء) ، والمد بعده ، ثم مجيء القاف الذي هو أحد حروف القلقلة ، ثم التاء المهموسة ، والميم التي تنطبق عليها الشفتان ويخرج

(١) سورة النمل الآيتان : (٨٩ ، ٩٠) .
(٢) البلاغة الصوتية في القرآن الكريم – د/ محمد إبراهيم شادي صـ ٣١ ، ٣٢ – الرسالة /مصر – ط/أولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
(٣) سورة التوبة الآية : (٣٨) .

صوتها من الأنف .... هذا بالإضافة إلى ما يشعر به البطء في نطق الكلمة ذاتها من حركة بطيئة موجودة من المتثاقل . (١)

فكلمة (اثاقلتم) الثقيلة في نطقها على اللسان مثلت – بجرسها – الجسد الثقيل المسترخي اللاصق بالأرض ، كلما رفعته روحه للتحليق جذبته جواذب الأرض ليخلد إليها ، ومن أجل هذه الصيغة آثرها العليم الخبير وقدمها على (ركن) و(أخلد) . (٢)

والإدغام إلى جانب رصف الحروف هو الذي حقق لهذه الكلمة جرساً صوتياً وميزها عن (تثاقل) ولو أنك قلت : " تثاقلتم " لخفَّ الجرس ، ولضاع الأثر المنشود ، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها . ومما يؤكد ذلك ويقرره قول أحد الباحثين المحدثين : " جرب أن تبدل المفردة القرآنية وتحل محلها لفظة (تثاقلتم) ، ألا تحس أن شيئاً من الخفة والسرعة بل والنشاط أوحت به (تثاقلتم) بسبب رصف حروفها وزوال الشدة وسبق التاء قبل الثاء ؟ إذن فالبلاغة تتم في استعمال (اثاقلتم) للمعنى المراد ، ولا تكون في (تثاقلتم) . فسبحان من نظم هذه المفردة في هذا الموقع المناسب " . (٣)

فجرس الألفاظ ووقعها فيما يحدثه من أصوات وأصداء سمعية قد يكون متجانساً ومقارباً لما يدل عليه أو ينتج عنه . وإن يكن هذا كله في اللفظة المفردة حتى أضحت تعبر مستقلة عن لوحة كاملة ، فكيف بالآية التي تتناسق في جوها الكلمات ، أو في السورة التي تنسجم حول فكرتها جميع الآيات !.

---

(١) لغة القرآن دراسة توثيقية فنية – د/ أحمد مختار عمر صـ ١٤١ – ١٤٢ – مؤسسة الكويت للتقدم العلمي – ط/ الثانية ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ونظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا – د/ سامي هشام حريز ص ٧١،٧٢ – دار الشروق/عمان، الأردن ٢٠٠٥م.

(٢) التضمين النحوي في القرآن الكريم – محمد نديم فاضل ١/ ٢٦١ – دار الزمان/ المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .

(٣) نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا صـ ٧٢ .

. ومما هو من قبيل تناسق الأصوات بجرسها في مفردات الآية بأكملها للتعبير عن المشهد وتصويره بدقة متناهية ومعجزة ما نلمسه في المفردات الواردة في سياق الآيات التالية من سورة الحج ، يقول تعالى : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (١) ، فالمشهد هنا عنيف ترتسم فيه مشاهد متنوعة من تقطيع الثياب من النار للمعذَّبين ، ومن صبِّ النار فوق الرؤوس ليصهر به ما في البطون والأمعاء والجلود ، ثم ما أُعِدَّ لهم من مقامع مصنوعة من الحديد الذي ليس بحديد كالحديد . وقد رُسِمَت هذه الصورة بالألفاظ المناسبة التي تألفت من الأصوات القوية والشديدة كالطاء المشددة ، والقاف المضمومة في كلمة (قُطِّعَت) ، والباء المشددة المضمومة ، والصاد كلمة (يُصَبّ) ، والهمزة المضمومة في كلمة (رؤوسهم) ، والباء والطاء المضمومتين في كلمة (بطونهم) ، والجيم المضمومة في كلمتي (الجلود) و (أن يخرجوا) ، والدال المكسورة في كلمة (من حديد) ، والذال المضمومة في كلمة (ذوقوا) . كما أن صوت القلقلة الذي يتكرر في حروف الفاصلة في الآيات وهو حرف (الدال) عامل إيقاعي مهم في إبراز هذه اللوحة . وهكذا تتجمع الألفاظ بأصواتها في سياق تصويري رائع ، يضاف إليه صفات هذه الأصوات كالجهر والشدة والاستعلاء والتفخيم والإطباق والقلقلة ، وكلها من صفات القوة في الأصوات ، بما يتوافق مع سياق الآية ، كما أن توزيع الحركات في هذا الإطار يعبر أيضاً عن عنف المشهد ، فما الضمة والكسرة والتشديد بكل أجراسها القوية إلا عامل تجميلي لهذا السياق .(٢)

فكل زيادة في قوة الصوت وجهره تستلزم قوة في الدلالة ، وارتقاء في المعنى ، وتلك واحدة من أبرز الخصائص الصوتية للغتنا الخالدة التي يدق فيها الالتحام بين الصوت والدلالة . وليس يخفى أن الاتساق الصوتي الدلالي يبلغ ذروته في

(١) سورة الحج الآيات رقم : (١٩ – ٢١) .

(٢) جمَاليَّات التلْوِين الصَّوْتِيّ في القرآن الكريم – د/ أسامة عبد العزيز جاب الله صـ ١٢٦– رسالة دكتوراة في قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ .

انتقاء المفردات القرآنية ، حيث نجد أن أصوات المفردة في السياق تنهض لأداء الدلالة ، مصحوبة بجرسها اللائق ، وصيغتها المناسبة ، وإيحائها المتميز.

فالكلمة القرآنية تختار بدقة متناهية ، وتوضع في موضعها من الآية بإحكام تام يجمع لها بين مناسبة السياق القريب ، ومناسبة السياق البعيد ، وليس هناك أي تعارض بينهما .

ومن هنا ندرك أن القرآن الكريم قد اختار اللفظ المناسب للصوت المناسب في الموقع المناسب ، فجاء كل لفظ بمكانه الصوتي من العبارة القرآنية أو الجملة أو الآية، واستنباط ذلك صوتياً يوحي باستقلالية الكلمة المختارة لدلالة أعمق ، وإشارة أدق ، بحيث يتعذر على أية جهة فنية استبدال ذلك بسواه ؛ إذ لا يؤدي غيره مراده ، وذلك معلم واضح من معالم الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن .[1] ذلك أن الإيحاء الصوتي في القرآن ينهض به الصوت اللغوي وحده ، مفردًا كان أو مركّبًا ، فيصور المعنى الذي في السياق بدقة ، بحيث لا يسد آخر مسده .

فانتقاء الأصوات ذات الجرس الصوتي الموحي بالأثر الحسي أو النفسي يمنح اللفظ تآلفا بين الحروف بل الكلمات والتراكيب أيضا ، وينشأ عنه سلاسة النطق وانسيابية التلاوة . وبهذا يكون جرس الكلمة رافداً رئيساً من روافد الدلالة على معناها، فمما لا شك فيه أن استقلالية أية كلمة بحروف معينة ، يكسبها صوتياً ذائقة سمعية منفردة ، تختلف – دون شك – عما سواها من الكلمات التي تؤدي المعنى نفسه ، مما يجعل كلمة ما دون كلمة وإن اتحدا في المعنى ، لها استقلاليتها الصوتية ، إما في الصدى المؤثر ، وإما في البعد الصوتي الخاص ، وإما في المعنى المنوط بها ، وهذه ما سنتحدث عنه تفصيلاً في المبحث الأخير .

فالقرآن الكريم يستعمل الألفاظ ذات الجرس الناعم الرخي والسلس الموحي في المواضع التي يشيع فيها جوّ من الحياة الهانئة الجميلة ، وتجد عكس هذا حين تقتضي الدلالة الشدة في جرس الأصوات والألفاظ وإيقاع العبارات .

(١) الصوت اللغوي في القرآن – محمد حسين علي الصغير صـ ٢٠٤ بتصرف – دار المؤرخ العربي / بيروت – ط/ أولى بدون .

ثالثا : جمالية الحركات في المفردة القرآنية وارتباطها باللفظ والمعنى

للحركات القصيرة والطويلة دور بارز في تحقيق جمال المفردة أو قبحها ، فمن كمال اللفظ وجماله الاعتدال في توزيع حركاته وسكونه بحيث لا تتوالى فيه أكثر من أربع حركات من دون سكون يفصل بينها ، فإذا توالت خمسة متحركات كان ذلك في غاية الثقل إلا إذا كان ذلك لغرض يوجبه مضمون الكلام ، ولا يجمع فيه بين حركتين ثقيلتين كالانتقال من الكسر إلى الضم ، أو الانتقال من الضم إلى الكسر وإن كان أخف من سابقه ، فاللسان العربي يكره الخروج والانتقال من الكسر إلى الضم في الحركات اللازمة في البناء الثابت ، وذلك لأن في هذا الانتقال خروجاً مما هو جزء من الياء (الكسر) إلى الضم الذي هو شيء من التفخيم . ويرى أهل الصرف أن هذا الانتقال من الكسر إلى الضم ثقيل ، وثقله " ليس راجعاً إلى الحروف ، وإنما هو استثقال منهم للخروج من ثقيل إلى ما هو أثقل ". [١] وقد أنكر الرضي حدوث مثل هذا الانتقال تماماً ، ونسبته – إن وجد – إلى الشواذ نظراً لقلة ما ورد عليه من كلمات وندرته . [٢]

كذا يكره اللسان العربي توالي الحركات الثقيلة يقول ابن الأثير : " إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم يستثقل ، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة فإنه إذا توالى حركتان منها في الكلمة استثقلت . ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء ". [٣] وعلل ذلك أحد الباحثين المحدثين بأن : " الجهاز النطقي يمتلك إمكانية محددة في نطق الكلمات مع الحركات الموجودة على حروفها ، فلم نسمع عن توالي أربعة متحركات في كلمة ، أو خمسة في كلمتين ، لثقل ذلك على الجهاز النطقي ". [٤]

---

(١) سر صناعة الإعراب ١/٣٤.

(٢) شرح الشافية ابن الحاجب – رضي الإستراباذي– تح/ محمد نور الحسن ، وآخرين ١/ ٣٨ دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين ابن الأثير – تح/ محمد محي الدين عبدالحميد ١٩٣/١ – المكتبة العصرية / بيروت ١٤٢٠هـ .

(٤) ظاهرة التخفيف في العربية – د/ أحمد عفيفي صـ ١٤٩.

ومن هنا اشترط أهل اللغة لفصاحة الكلمة أن تكون خفيفة الحركات ليسهل النطق بها ، وتلذ في السمع ، فتنأى بذلك عن حيز الثقل والتنافر . وأجمل الحركات الفتحة فالألف لخفتهما ، ثم الكسرة فالياء ، ثم الضمة فالواو لثقلها. وقد بينت في بحث سابق العلة الصوتية لخفة ما خف منها ، وثقل ما ثقل منها ، وكذا العلة اللهجية لاستخدام الناطقين العرب الخلص لبعض الألفاظ بحركات مختلفة خفة وثقلاً .[١]

وفي دراسة حديثة قام بها علي حلمي موسى باستخدام الآلات الحاسبة الإلكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم وجد أن الفتحة تستخدم أكثر من غيرها في تشكيل ألفاظ القرآن الكريم بنسبة ٤٤% ، وتليها في التردد الكسرة بنسبة ١٨% ، ثم ألف المد بنسبة ١٥% ، ثم الضمة بنسبة ١٤% ، وفي آخر القائمة تأتي كل من الواو بنسبة ٥% ، ثم الياء بنسبة ٤% . وقد وضحت القول في ذلك في بحث سابق . [٢] ولذا قرر أهل الفصاحة استثقال الضمة على الواو والكسرة على الياء ، لأن الضمة من جنس الواو ، والكسرة من جنس الياء ، فتصير عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان . وتوزيع الحركات جزء من نظم الكلام ، وتأليف الأصوات في الصياغة اللفظية ؛ لأن منها ما هو خفيف ، ومنها ما هو ثقيل ؛ لهذا لم تكن الحركات على درجة واحدة في الاستعمال العربي الفصيح ولا في القرآن الكريم ، وإنما كان بعضها أكثر استعمالاً فيهما من بعض . فالفتحة يكثر استعمالها في القرآن الكريم عن أختيها الكسرة والضمة ، والكسرة يكثر استعمالها فيه بنسبة قليلة عن الضمة . وما ذلك إلا لخفة الفتحة في نطقها عن أختيها ، وثقل الضمة عن الكسرة ، وهم لما خف نطقه أكثر استعمالاً له مما ثقل .

وعلى هذا نجد المفردة العربية توصف بالجمال تارة ويسلب عنها هذا الوصف تارة أخرى بسبب اختلاف تأليف حركاتها ، وكونها مؤلفة من حركات ثقيلة أو غير

(١) العلة اللغوية عند ابن جني في ضوء علم اللغة الحديث – د/ ممدوح إبراهيم محمود – مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط العدد (٢٧) سنة ٢٠٠٨ م .

(٢) الوحدات القطعية في لغة القرآن الكريم عددها واستعمالاتها وملامحها الصوتية المميزة لها – الباحث نفسه – بحث منشور في كلية اللغة العربية بأسيوط ٢٠١١م

مؤتلفة ، أو غير موزعة بطريقة مستقيمة . فاللفظة تخف أو تثقل ، وتحسن أو تقبح بحسب الانتقال من حركة إلى حركة تلائمها أو لا تلائمها قرباً أو بعداً ، وكان ذلك من الأصول التي بني عليها كلام العرب .

وبالنظر في النظام الصوتي البديع للمفردة القرآنية نجد أنه قد قُسّمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط ، يساعد على ترجيع الصوت به ، وتهادي النفَس فيه آناً بعد آن إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى ، فيجد عندها راحته العظمى ، عندما تقف على رأس الآية ، وهذا لا تجده في أجود الأشعار.

وبتأمل وتدبر نظام الحركات في المفردات القرآنية نجدها في الأغلب الأعم على هذا النسق من المقاييس اللغوية ، إلا أنه خالفها في بعض المفردات حيث توالت بعض الحركات الثقيلة كالضمة والكسرة في المفردة القرآنية خلافاً لمقاييس علماء العربية ، ولا تشعر مع ذلك بكراهة أو ثقل أو نبو في السمع بل تجد تلويناً صوتياً معبراً وموحياً بمضمون الخطاب ومتوافقاً مع المقام ومقتضى الحال . يقول ابن الأثير : " واعلم أنه قد توالت حركة الضم في بعض الألفاظ ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقل كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ .[1] ، وكقوله – ﷻ – : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾.[2] وكقوله – ﷻ – : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ .[3] فحركة الضم في هذه الألفاظ متوالية وليس بها من ثقل ولا كراهة ... فالغالب أن يكون توالي حركة الضم مستثقلاً ، فإذا شذ عن ذلك شيء يسير لا ينقض الأصل المقيس عليه " .[4]

وقد بين الرافعي (ت ١٣٥٦هـ) القيمة الجمالية لتوالي الحركات الثقيلة في بعض المفردات القرآنية وعلاقة ذلك بالإعجاز اللغوي للقرآن الكريم نحو : (النذر ،

(١) سورة القمر آية (٣٦)
(٢) سورة القمر آية (٤٧)
(٣) سورة القمر آية (٥٢)
(٤) المثل السائر ١٩٤/١ .

الرسل ، سُعُر ، دُثُر ، دُبُر ، زُبُر ، السُّدُسُ ، الثُّلُثُ ، الرُّبُعُ ، الثُّمُنُ ، أُذُنُ ، الْعُمُرُ ، نُزُلُهُمْ) فقال : " لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة ، فيهيئ بعضها لبعضٍ ويساند بعضاً ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان ، فلا تعذب ، ولا تساغ ، وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلامِ من الحرف والحركة ، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امْتَهَدَتْ لها طريقاً في اللسان ، واكتنفتها بضروبٍ من النغم حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيءٍ ، وأرفه ، وجاءت متمكنة في موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة " .(١)

وكان أكثر وضوحاً في بيان القيمة الجمالية للمفردة القرآنية ذات الحركات الثقيلة في قوله : " وأنت تراه يصحبك في تدبره وتذوقه البيان بكلمة (النُّذُر) في قول الله – ﷻ – : ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ وأشار إلى ما تحسه من ثقل الضمة لتواليها على " النون" و" الذال " معاً ، مضافاً إلى ذلك جسأة حرف (الذال) وصلابته وخشونته ونبوه في اللسان وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ، ويفصح عن موضع الثقل فيه ، ولكنه جاء في هذه الآية على العكس من ذلك . تأمل موقع القلقة في "دال" "لقد" وفي "الطاء" من " بطشتنا" وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء " الطاء" إلى "واو" " تماروا" مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا جرت على اللسان ؛ ليكون ثقل الضمة عليها مستخفاً بعد ، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة . ثم ردد نظرك في " الراء" من " تماروا" فإنها ما جاءت إلا مساندة لـ "راء" " النذر" حتى إذا انتهى إليها مثلها ، فلا تجْفُ عليه ولا تغلظ ، ولا تنبو فيه .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي صـ ١٥٦ – دار الكتاب العربي/ بيروت – الطبعة/ الثامنة ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥م.

ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت " الطاء " في " نون " " أنذرهم " وفي ميمها وللغنة الأخرى التي سبقت " الذال " في " النذر ". (١)

فالرافعي – رحمه الله – يرى أن توالي الحركات الثقيلة في المفردة القرآنية – وإن خالف ذلك الأصول اللغوية في بناء الكلمة العربية – يجعل لها شأناً عجيباً يشعرك بعذوبتها ورقتها ، وأنها في هذا الموضع أروع وأولى من استعمال ما هو أخف منها ، وغير ذلك مما يوقفك على إعجاز القرآن الكريم في تأليفه الصوتي ، ويقف بك مشدوهاً ببلاغته وروعته وحسن فصاحته ، ويصل بك إلى حقيقة مفادها أنه لا بد من الإقرار والاعتراف من كل ذي لب متدبر ومتذوق للقيم الجمالية والتعبيرية فيه بأنه تنزيل من لدن حكيم خبير .

أما عن القيمة التعبيرية لورود مثل هذه الحركات في بنية المفردة القرآنية داخل السياق القرآني الذي وظفت فيه ؛ لارتباطها بالسياق وبالمعنى . فتبدو على سبيل المثال في كلمة (رُسُل) حيث تتابعت فيها حركات الضم وهي أثقل الحركات ، وبإنعام النظر في السياقات القرآنية التي وردت فيها هذه الكلمة نجد أن الضم فيها ضرورة حتمية يوجبها السياق النصي ، وتفرضها جمالية الأداء ؛ لأن الدلالة فيها معقودة على معنى الشدة والتعنيف لأقوام هؤلاء الرسل في معاندتهم إياهم ، وعدم قبولهم الدعوة بالهداية والإيمان ، فناسبت الحركة سياقها الدلالي ، فجاء الصوت بدلالته ، وجاءت الدلالة بما يدعمها من تلوينات صوتية . (٢)

فتتابع الحركات الثقيلة وتواليها في الكلمة القرآنية غالباً ما يكون فيه ملمح دلالي يقتضيه المقام ، فعلى الرغم من تنافر الجمع بين الحركات الثقيلة إذا توالت في كلمة واحدة في العربية الفصحى ، فإننا نجد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة على استعماله لهذه الحركات الثقيلة متوالية متكررة في الكلمة الواحدة وكانت في سياقها الصوتي ومقامها البلاغي أوفى بمضمون الخطاب وبيان المعنى المراد ، وأنسب

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ ١٥٧.
(٢) جمَالِيَّات التلوين الصوتي في القرآن الكريم صـ ١٧٣

للسياق مما هو أخف منها ، وكل هذا كان وفقاً لمقتضيات سياقية وجمالية رائعة . فقد اختيرت فيه الكلمات اختياراً دقيقاً ، ليشاطر بناؤها الحركي حالتها التعبيرية .

ومن دقة اختيار القرآن الكريم لحركة البنية في المفردة القرآنية والتفريق عن طريقها بين المتشابهات اللفظية ذات الأصول اللغوية الواحدة وأثر ذلك في الدلالة ما ورد في القرآن الكريم من استعمال كلمة (الحَياة) للدنيا ، واستعمال كلمة (الحَيَوَان) للآخرة . في قوله – ﷻ – : ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون﴾ [1] فلأن الدنيا دار لهو ولعب وزوال عُبِّر عنها بالحياة . ولأن الآخرة دار كرامة وعز وبقاء عُبَّر عنها بالحَيَوَان . ومعنى (إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ) : أى ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها ، فكأنها في ذاتها حياة . والحيوان : مصدر حي ، وقياسه حييان ، فقلبت الياء الثانية واوا ، كما قالوا : حيوة ، في اسم رجل وبه سمى ما فيه حياة : حيوانا . قالوا : اشتر من الموتان ، ولا تشتر من الحيوان " . [2]

والعلة في استعمال القرآن كلمةَ (الحَيَوَان) للدار الآخرة ، دون استعمال كلمة (الحياة) التي أطلقها على الدار الدنيا ، مع إن كلاً منهما مصدر للفعل : حَيِيَ، يَحيَى هي : أن كلمة (الحَيَوَان) صيغة مبالغة بالألف والنون ، وفي بنائها " زيادةُ معنى ليس في بناء (الحياة) ، وهي ما في بناء (فَعَلَان) من معنى الحركة والاضطراب ... والحياة حركة ، كما أن الموتَ سكون ، فمجيئه على بناءٍ دالٍّ على معنى الحركة ، مبالغة في معنى الحياة ، ولذلك اختيرت (الحَيَوَان) على (الحَياة) في هذا الموضع المقتضي للمبالغة " . [3] وقد علل ابن جني ذلك بأنهم " قابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال " . [4] وهو ما يتناسب مع الحياة المستمرة الدائمة الخالدة في الآخرة ، ولم يذكر لفظ (الحَيَوَان) في القرآن إلا وصفاً لها .

---

(١) سورة العنكبوت الآية : (٦٤) .

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – الزمخشري ٣/ ٤٦٣ – دار الكتاب العربي / بيروت الطبعة/ الثالثة ١٤٠٧هـ .

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل .

(٤) الخصائص ٢/١٥٤.

ومن جمال الحركة وإبداعها في المفردة القرآنية لفظا ومعنى : العدول بها عن معتاد حالها في أصل اللغة لتحقيق غرض جمالي أو دلالي ، ومن ذلك ضم هاء الضمير للمفرد الغائب إذا سبق بياء أو كسر خلافاً لما هو عليه في أصل اللغة كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [1] يقول أحد الباحثين المحدثين موضحاً سر هذا العدول في حركة الضمير : " لو عدنا إلى سبب نزول هذه الآية لوجدناها نزلت في بيعة الرضوان ، ونظرًا لعظم شأن هذه البيعة كان الله شديدًا في وعيده للمخالفين . والظاهر من ضم الضمير المجرور في (عليه) أن الآية وردت في أمر عظيم ، فالبيعة لله تعالى تستلزم التعظيم والتوثيق ، والضم أوفى دلالة على هذه المناسبة ، ولذلك لو ورد الضمير المجرور في عليه مكسوراً حسب القاعدة المألوفة يكون ترقيقاً ، وهو قد لا يتناسب والمقام ، فالمعاهدة والوثاق عظيم على كاهل الصحابة ، فكان للضم دور في إظهار الموقف وتصوير جسامته في صورة صوتية جمالية مناسبة . [2]

ومما يبرز جمال الحركة وإبداعها في المفردة القرآنية : اختلاف المعنى لاختلاف الحركة في المفردة ذات الأصوات المتحدة وارتباط ذلك بالنظم والتركيب ومنه على سبيل المثال (الضر) بفتح الضاد وضمها ، وقد ورد اللفظ بالحركتين كثيرًا في السياقات القرآنية المختلفة ، وبتأمل هذه السياقات نجد قيمة جمالية ودلالية تناسب السياق بحيث لا تحل إحدى الصورتين مكان الأخرى فينتفي بذلك الإبدال بين الحركتين ، ويثبت الفرق بينهما ، وأن كلاً منهما أصل قائم بذاته . فالضَر بفتح الضاد خلاف النفع ، وهو عام في الضرر في كل شيء ؛ لذا اقترن بالنفع في غالب آيات الكتاب العزيز كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً وَاللَّهُ هُو السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [3]

---

(١) سورة الفتح الآية : (١٠) .

(٢) الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم دراسة دلالية – د/ دفة بلقاسم – مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة محمد خيضر بسكرة / الجزائر ٢٠٠٩م – غير مرقم .

(٣) سورة المائدة الآية : (٧٦) .

أما الضُر بضم الضاد فاسم جامع لكل ما يصيب البدن من هزال ، وشدة وفقر ، وسوء حال فخاص بما يقع في الجسد من مرض كقوله تعالى على لسان أيوب – عليه السلام – : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١) ومن شدة الفقر وشظف العيش قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِينَ﴾ . (٢) وقوله تعالى : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ . (٣) وسوء الحال يحتمل المرض والسقم والفقر وغيرها كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤) ويظهر في هذه الآيات اقترانه بالمس.

وتشعر الضمة في الضر بأنه من علو وقهر ، والفتحة بأنه ما يكون عن مماثل ونحوه .. والفتحة أخف من الضمة ؛ لذا اختصت بأخف الحالين وهو الضَر المضاد للنفع ، أما القهر الذي في الضُر ؛ فلأنه صادر عن غير المخلوقين ، وليس لمخلوق سبيل إليه . (٥)

ومثل ذلك من اختلاف الحركة ما نجده في الوقر بفتح الواو وكسرها ، فالوَقر بفتح الواو يكون خاصاً بالأذن كما في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ (٦) ، وكذا قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ

(١) سورة الأنبياء الآية : (٨٣) .
(٢) سورة يوسف الآية : (٨٨) .
(٣) سورة النحل الآية : (٥٣) .
(٤) سورة يونس الآية : (١٢) .
(٥) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني – صـ ٣٥٣ ، ٣٥٤ بتصرف .
(٦) سورة الكهف الآية : (٥٧) .

أَلِيمٍ﴾ [١] مما يدل على أنه مختص بثقل السمع . أما الوِقر بكسر الواو فخاص بما يحمل على ظهر كالسفينة ونحوها كما في قوله تعالى : ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْراً﴾ [٢]، ولم يرد في القرآن الكريم بالكسر إلا في هذا الموضع .

فاختلاف الحركة في المفردة القرآنية كان له دوره البارز والمؤثر في إيضاح القيمة التعبيرية والجمالية للمفردة القرآنية وتناغمها مع السياق الواردة فيه . وسنعرض تفصيلا عن هذه المفردات – (الضر ، الوقر) – ونحوها في المبحث الأخير إن شاء الله تعالى عند حديثنا عن المصاحبة اللفظية ودورها في إبداع المفردة وإبداع الدلالة ، وكذا دورها في إثبات الفروق اللغوية بين ما يظن أنه من المترادف .

أما الحركات الطويلة أو حروف المد واللين في المفردة القرآنية فقد جاء توظيف القرآن الكريم لها على نسق جمالي فريد في سياقات النص الكريم . إذ نجد فيه مقاطع صوتية مغرقة في الطول والمد والتشديد وبالرغم من ندرة صيغة هذه المركبات الصوتية في اللغة العربية حتى أنها لتعد بالأصابع ، فإننا نجد القرآن الكريم يستعل أفخمها لفظاً ، وأعظمها وقعاً ؛ فتستوحي من دلالتها الصوتية مدى شدتها ، لتستنتج من ذلك أهميتها وأحقيتها بالتلبث والرصد والتفكير. ومن تلك الألفاظ : الحاقّة ، الطّامة ؛ الصّاخة . فهذه الكلمات بما تحويه من مقاطع صوتية مغرقة في الطول والمدّ والتشديد يوظفها النص القرآني في أدق ما يكون من توظيف ، فنستوحي من أدائها الصوتي مدى شدتها . حيث تستدعي نسبة عالية من الضغط الصوتي ، والأداء الجهوري لسماع رنتها ، بما يتوافق نسبياً مع إرادة جلجلة الصوت ، وشدة الإيقاع دلالة على مقدار الفزع الهائل في هذا اليوم ، كل ذلك مما يوضح مجموعة العلاقات القائمة بين اللفظ ودلالته في مثل هذه العائلة الصوتية الواحدة ، فإذا أضفنا إلى ذلك معناها المحدد في كتاب الله تعالى ، وهو يوم القيامة ، خرجنا بحصيلة علمية تنتهي بمصاقبة الشدة الصوتية للشدة الدلالية

(١) سورة لقمان الآية : (٧) .
(٢) سورة الذاريات الآية : (٢) .

بين الصوت والمعنى الحقيقي ، فقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾ (١) . إشارة إلى يوم القيامة ، وعلم عليها فيما أفاد العلماء ، قال الفراء (ت ٢٠٧هـ) : " الحاقة : القيامة ، سميت بذلك لأن فيها الثواب والجزاء " . (٢)

وبمثل هذا التلوين يؤدي اللفظ ما أنيط به من حكاية أصواته لمعانيه وفقاً لمقدرات الأحداث التي وظف فيها . ويندرج في الإطار ذاته كلمات دالة على القيامة مثل كلمة (الصاخة) في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ﴾ (٣)، وكلمة (الطامة) في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ (٤) ، وكلمة (القارعة) في قوله : ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ (٥) ، وكلمة (الواقعة) في قوله تعالى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (٦) ، و(الآزفة) في قوله تعالى : ﴿أَزِفَتْ الْآزِفَةُ﴾ (٧) ، وكلمة (الغاشية) في قوله : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (٨) .

وهكذا يتعامل النص القرآني مع كلماته من حيث الاختيار أولاً ثم من حيث فنيات التوظيف لهذه الكلمات بما تتضمنه من أصوات يقوم بتوزيعها في نسيج الكلمة ثم العبارة ، مما يحقق التأثير المطلوب من هذا التوظيف والاختيار . كما أن هذا التوظيف للأصوات في السياق القرآني يتم بحيث يكون لهذه الأصوات " تأثير ذو إيقاع قوي إذا كانت نسبة الأصوات ذات الجرس القوي غالبة عليها ، ويكون ذا إيقاع رخي إذا كانت نسبة الأصوات اللينة والضعيفة غالبة عليها " (٩)

(١) سورة الحاقة الآيات (١ ، ٢ ، ٣) .
(٢) الصوت اللغوي في القرآن ١٦٨ ، ١٦٩ ، ومعاني القرآن – الفراء ١٧٩/٢ .
(٣) سورة عبس آية : (٣٣) .
(٤) سورة النازعات آية : (٣٤) .
(٥) سورة القارعة الآيات : (١، ٢ ، ٣).
(٦) سورة الواقعة آية : (١).
(٧) سورة النجم آية : (٥٧) .
(٨) سورة الغاشية آية : (١) .
(٩) جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم صـ ١٣٨ وما بعدها بتصرف .

ومن جماليات الحركات الطويلة وإبداعها في المفردة القرآنية : إظهار الصوت الواقع قبلها ومساعدته على مضاعفة ذبذباته واسترساله في الزمن ، فإذا كان من الأصوات الجميلة العذبة الخفيفة على اللسان جعلته الأصوات الطويلة أكثر جمالاً وعذوبة ، وإذا كان من الأصوات القبيحة الثقيلة على اللسان جعلته أكثر قبحاً . فانظر إلى لفظ (اللب ، والكوب ، والحبر) يقبح مفرداً ولا يقبح مجموعاً ، بل إن الجمع (ألباب ، أكواب ، أحبار) يكسبها من الحسن ما لم يوجد لها حالة الإفراد" [١] [١] بسبب الحركة الطويلة الخفيفة ذات الامتداد النغمي الجميل وهي (الألف) التي عدها سيبويه صوتاً خاصاً بالترنم حيث قال : " إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون ؛ لأنهم أرادوا مد الصوت " [٢] ؛ لذا لم ترد هذه الألفاظ الثلاثة في القرآن الكريم إلا مجموعة في جميع مواضعها ، فقد ورد لفظ (الألباب) في القرآن الكريم ست عشرة مرة ، ولفظ (أكواب) أربع مرات ، ولفظ (الأحبار) ثلاث مرات . كما في قوله تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [٣] . وقوله : ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٥] . فالألف بامتدادها وانتشارها وانبساطها واتساعها ولينها ساعدت على جمالية الكلمة المجموعة .

ومن هنا نستطيع القول : إن جمال المفردة القرآنية ينبع أحياناً من أصواتها المؤتلفة والتي تجعل المعنى أقرب إلى ذهن المتأمل فيها بما توحيه تأثيراتها إيقاعا

(١) أصوات الحركات العربية دراسة دلالية جمالية – د/ منال محمد هاشم نجار – المجلة الأردنية الأردنية في اللغة العربية وآدابها – المجلد (٦) العدد (٣) صـ ١٥٨– سنة ٢٠١٠م.
(٢) الكتاب – سيبويه – تح/ عبد السلام محمد هارون ٤/ ٢٠٤ – مكتبة الخانجي / القاهرة – –الطبعة/ الثالثة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
(٣) سورة الواقعة الآية : (١٨) .
(٤) سورة البقرة الآية : (٢٦٩) .
(٥) سورة التوبة الآية : (٣٤) .

أو جرساً أو إيحاءً أو انتقاءً لصوت معين أو حركة معينة في بنيتها الصوتية بحيث يكون مؤثراً في دلالتها المتناسبة مع السياق والمقام .

❁ ❁ ❁ ❁

المبحث الثالث

البناء الصرفي للمفردة القرآنية ودوره في إبداع اللفظ والدلالة

للقرآن الكريم دقائق في صوغ مفرداته اللغوية في أبنية صرفية متعددة ، تدرك عن طريقها أن ألفاظه وصيغه قد اختيرت بعناية لتتناسب مع سياقها الواردة فيه ، وذلك لأن أهم وظيفة لدلالة السياق القرآني هي : بيان المعنى ، فقد تأتي بعض الألفاظ متحدة المعاني ، متشابهة المباني ، والسياق هو السبب الرئيس لهذا الاختلاف في الصيغة ؛ لتتناسب الألفاظ مع الجمل الواردة فيه ، والغرض العام للسورة . فالمفردات اللغوية عامة ومنها الصيغ خادمة لأغراض السورة ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم .

فاستعماله للمفردة في صيغ صرفية جاء في غاية الدقة والجمال ، وتوظيفه لها كان توظيفاً رائعاً ؛ لما فيه من ملاءمة السياق ومتطلباته الدلالية واللفظية . إذ نلحظ فيه تنوع الصيغ المشتقة من أصل واحد بانتقالها من هيئة إلى هيئة أخرى

بحيث لا تحل إحداهما محل الأخرى ؛ نظراً لما تتميز به كل منهما بخاصية دلالية فوق ما فيها من وظيفة صرفية ، فكلما أمعن الباحث الفكر في أسرار الصيغ عند استعمالها في أساليب القرآن الكريم ، ودقق النظر فيها حينما ترد في آياته وجد أسراراً عظيمة ودقائق لغوية وخصائص جمالية ودلالية في استعمال كل صيغة منها في موضعها المناسب . وتنبع هذه الخصائص لا سيما الدلالية من سياق الآية ، وسبب نزولها في المقام الأول على النحو الذي سنجده قمة الإعجاز في تغاير الصيغ لا سيما في متشابه النظم القرآني . يقول ابن الأثير : " وهو من هذه الصناعة بمنزلة علية ومكانة شريفة وجل الألفاظ اللفظية منوطة به ، ولقد لقيت جماعة من مدعي فن الفصاحة وفاوضتهم وفاوضوني وسألتهم وسألوني فما وجدت أحداً منهم تيقن معرفة هذا الموضع كما ينبغي ، وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق إليها ... أما اختلاف صيغ الألفاظ فإنها إذا نقلت من هيئة إلى هيئة كنقلها مثلا من وزن من الأوزان إلى وزن آخر وإن كانت اللفظة واحدة ، أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل ، أو من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم ، أو كنقلها من الماضي إلى المستقبل ، أو من المستقبل إلى الماضي ، أو من الواحد إلى التثنية أو إلى الجمع أو إلى النسب أو إلى غير ذلك انتقل قبحها فصار حسناً وحسنها صار قبحاً .... وههنا فلينعم الخائضون في هذا الفن نظرهم ويعلموا أن في الزوايا خبايا وإذا أنعموا الفكر في أسرار الألفاظ عند الاستعمال وأغرقوا في الاعتبار والكشف وجدوا غرائب وعجائب " . (١)

فلكل كلمة عربية مشتقة جذر لغوي هو الأصل في صيغتها التي اشتقت منه . وهذا الجذر غالباً ما يكون ثلاثياً . وهذا الأساس الاشتقاقي موظف في السياق القرآني على هيئة جمالية وإبداعية فريدة وبدقة بالغة ، ولذا فلا بد من الوقوف على تنوعات الاشتقاق من الجذر الواحد في هذا السياق ، وإدراك قيم هذا التلاؤم بين الصيغ .

(١) المثل السائر ١/ ٢٧٤ وما بعدها بتصرف .

وقد تحدثت في بحث سابق [1] عن المفردة القرآنية من حيث عدد حروفها ، وتكوينها الصوتي ، وبينت فيه مجموع الجذور الثلاثية للكلمات القرآنية هو : (١٦٤٠) ، وأن القرآن الكريم قد استخدم ما نسبته (٣٤ %) ، أي أكثر من ثلث الجذور الثلاثية للألفاظ العربية ، في حين قل استعمال الرباعي وندر الخماسي ووضحت العلة في ذلك . كما وضحت فيه جمالية استعمال القرآن الكريم للألفاظ الطويلة ومدى تناسقها صوتياً بما يغني عن إعادة الحديث عن جمالية هذه المفردات الثلاثية المجردة أو التساعية أو العشرية بالزيادة ، وكذا ما استعمل في القرآن الكريم على قلة من الأصول الرباعية أو الخماسية ، وما في ما استعمل منها خاصة من قيم جمالية وتعبيرية أو دقائق لغوية استوجبت استعمالها ؛ لذا سنقتصر في حديثنا هنا عن تعاور أو تغاير الصيغ التي ترد عليها المفردة القرآنية في السياق القرآني لنبين وجه الإعجاز أو جمالية الانتقاء ومدى إبداعه ودقته ، وسر اختيار المفردة القرآنية على هذه الصيغة في هذا السياق ، ومجيئها على صيغة أخرى في سياق آخر ، وعلى صيغة ثالثة في سياق ثالث للوقوف على تنوعات الاشتقاق من الجذر الواحد ، وإدراك جماليات التلاؤم بين هذه الصيغ وبين السياق بأركانه الأربعة التي سبق الحديث عنها في المبحث الأول . بما يوحي بالتفرد والخصوصية والإقرار بأن هذا القرآن من لدن حكيم عليم ، ولا قدرة لفصيح مهما أوتي من قدرة على الإبداع في فن القول من معارضته أو محاكاته . وسنعرض في هذا المبحث لبعض النماذج من هذه الصيغ من دون حصر أو استقصاء لها لضيق المجال ، وتتوزع هذه النماذج على النحو التالي :

أولا : تغاير الصيغ الفعلية ذات الأصل الاشتقاقي الواحد

يوظف القرآن الكريم مفرداته الفعلية بكل تشكيلاتها الصرفية في سياقات متنوعة توظيفاً جميلاً بل فريداً بحيث تتلاءم المفردة بتشكيلاتها المختلفة وهذه السياقات . بالرغم من اتحاد الجذر لهذه الأفعال في عودتها إلى (مادة لغوية واحدة) . والتناسب اللفظي بتركيب وترتيب مفردات الآية وعلاقة بعضها ببعض في نظم

(١) التناسق الصوتي في لغة القرآن الكريم .

حسن التأليف بديع التركيب جميل التجسيد أو التصوير ، والتناسب الدلالي بمعرفة الغرض وسبب النزول هو المعيار الرئيس في هذا التنوع . فكل آية تختص بصيغة فعلية تناسبها ولا يصلح غيرها ؛ لخاصية دلالية ودقيقة لغوية وقيمة جمالية تظهر بالتأمل وإمعان النظر في مادة الكلمة ، وصيغتها الاشتقاقية ، والغرض من الآية أو المقطع أو السورة ، ومعرفة سبب النزول . ومن بديع ذلك ما يلي :

- استعمال الفعل مجردًا تارة ومزيدا تارة أخرى كما في قوله تعالى : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [1] وقد فسر العلماء الآية بقولهم : " (لَهَا ما كَسَبَتْ) : يريد من الحسنات ، (وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) : يريد من السيئات ، قاله السدي وجماعة من المفسرين ، لا خلاف في ذلك ، والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان . وجاءت العبارة في الحسنات بـ (لها) من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه ويسر بها فتضاف إلى ملكه ، وجاءت في السيئات بـ (عليها) من حيث هي أوزار وأثقال ومتحملات صعبة . وهذا كما تقول : لي مال وعلي دين ، وكما قال المتصدق باللقطة : اللهم عن فلان فإن أبى فلي وعليّ ، وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسنا لنمط الكلام " . [2]

فقد وظف القرآن الكريم في هذه الآية فعلين هما (كَسَبَ) ثلاثي صحيح على وزن (فَعَل) ، و(اكْتَسَبَ) خماسي على وزن (افْتَعَل) ، وكلاهما يعود إلى مادة (كَسَبَ) . إلا أن الفعل المجرد (كسب) قد استعمل في الخير خاصة ؛ لأنه قد تعدى بحرف الجر (اللام) ، أما الفعل المزيد (اكتسب) فقد استعمل في الشر خاصة؛ لأنه قد تعدى بـ (على) .

---

(١) سورة البقرة الآية : (٢٨٦)

(٢) النكت والعيون – أبو الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي – تح/ السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ٣٦٣/١ – دار الكتب العلمية/ بيروت ، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية – تح/ عبد السلام عبد الشافي محمد ٣٩٣/١ – دار الكتب العلمية/ بيروت .

وقد علل بعض العلماء هذا الاستعمال للمفردة القرآنية بصيغتيها فقال الزمخشري: " فإن قلت : لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكتساب ؟ قلت : في الاكتساب اعتمال ، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمّارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه . ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال . أى لا تؤاخذنا بالنسيان أو الخطأ إن فرط منا " . (١)

وقال ابن عطية : " والذي يظهر لي في هذا أن الحسنات هي مما يكسب دون تكلف ؛ إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه ، والسيئات تكتسب ببناء المبالغة إذ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى ويتخطاه إليها ، فيحسن في الآية مجيء التصريفين إحرازا لهذا المعنى ". (٢)

أما عن جمالية المفردة بصيغتيها في الآية فقد أبرزها ابن جني في قوله : "وتأويل ذلك أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر. وذلك لقوله – عز اسمه – : ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ (٣) ؛ أفلا ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها ، صغر الواحد إلى العشرة ، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تحتقر إلى الجزاء عنها ، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة ؛ ولذلك قال – تبارك وتعالى – : ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٤) فإذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية عظم قدرها،وفخم لفظ العبارة عنها،فقيل:لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . فزيد في لفظ فعل السيئة،وانتقص من لفظ فعل الحسنة ؛ لما ذكرنا . ومثله سواءً بيت الكتاب :

(١) الكشاف ١/ ٣٣٢
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/ ٣٩٣ .
(٣) سورة الأنعام من الآية : (١٦٠)
(٤) سورة مريم الآية : (٩٠)

إنّا اقْتَسَمْنا خطَّتينا بيننا .·. فَحَمَلْتُ بَرّةَ واحْتَمَلْتَ فَجارِ [١]

فعبر عن البر بالحمل ، وعن الفجرة بالاحتمال " . [٢]

فلفظ الاكتساب يظهر المشقة في جانب السيئة لثقلها على النفس ؛ لما فيه من الاعتمال ، بخلاف فعل الحسنات الذي لا تكلف فيه . فزيد في المبنى لزيادة المعنى . ومتى كان اللفظ على وزن من الأوزان ثم نقِلَ إلى وزنٍ آخر أعلى منه، فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً كما ذكر ابن الأثير . [٣] على حين يبرز ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ) القيمة الجمالية للمفردة بصيغتيها عن طريق النظم أو الأسلوب فيقول : " كان يمكن أن تأتي اللفظتان بغير زيادة فيقال : (لها ما كسبت وعليها ما كسبت) ، وإنما منع من ذلك ما يجعل للنظم من العيب ، وإغماض المعنى الذي قُصِدَ . أما العيب فاستثقال تكرار لفظة (كسب) بغير زيادة في نظم قَرُبَتْ فيه الثانية من الأولى فسمج . وأما الإغماض فلأن المراد الإشارة إلى الفطرة التي فطر الله – ﷻ – الناس عليها ، فطرة الخير. فالإنسان بتلك الفطرة السابقة في أصل الخلق لا يحسن أن ينسب إليه إلا كسب الحسنات ، وما يعمله من السيئات فيعمله لمخالفته الفطرة ، فكأنه تكلف من ذلك ما ليس في جبلّته ، فوجب زيادة التاء التي للافتعال ، فحصلت بزيادته إماطة العيب عن النظم لمخالفة إحدى اللفظتين أختها ، والإشارة إلى المعنى المراد " . [٤]

وبعض العلماء لا يفرقون بين اللفظين (كسب واكتسب) في المعنى بل يسوون بينهما وقد ذكر الإمام الرازي (ت ٦٠٦هـ) هذا الخلاف . [٥]

---

(١) البيت في الكتاب لسيبويه للنابغة وهو من بحر الكامل ٢٧٤/٣.

(٢) الخصائص ٣/ ٢٦٨ ، ٢٦٩.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣٤/٣ .

(٤) جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم صـ ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٥) مفاتيح الغيب – الرازي ٧/ ١١٨ – دار إحياء التراث العربي / بيروت – ط/ ثالثة ١٤٢٠هـ.

وبتأمل مواضع ورود الصيغتين في السياق القرآني نجد أن لفظ (اكتسب) قد ورد فيه خمس مرات فقط وفي جميعها ورد فيما يأخذه الإنسان لنفسه أو يتعمد فعله من الشرور والآثام ؛ لذا لم تستعمل المفردة إلا في الميراث كما في قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾[1] ، أو في الشر خاصة وهو أكثر ما استعملت فيه كما في آية البقرة ، وكما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ [3]

أما الفعل (كسب) المجرد فقد ورد في السياق القرآني ثلاثاً وستين مرة وقد استعمل في الخير تارة كما في آية البقرة ، وكما في قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [4] ، وقوله : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [5]

واستعمل في الشر أو المعاصي والسيئات تارة ثانية كما في قوله تعالى : ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[6] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [7] ، وقوله : ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً

(١) سورة النساء من الآية : (٣٢)
(٢) سورة النور الآية : (١١)
(٣) سورة الاحزاب الآية : (٥٨)
(٤) سورة البقرة الآيتان : (٢٠١ ، ٢٠٢)
(٥) سورة البقرة الآية : (١٣٤)
(٦) سورة البقرة الآية : (٨١)
(٧) سورة آل عمران الآية : (١٥٥)

حَكِيماً * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ (١)

واستعمل تارة ثالثة محتملة للمعنيين كما في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (٢) أي : جزاء ما كسبت من خير أو شرّ . (٣)

فالكسب للخير والشر معاً ، وللنفس والآخر أيضاً ، بخلاف الاكتساب فهو للنفس فقط ، ولا يتعدى إلى الآخر ؛ لذا كان الكسب أعم من الاكتساب . وهذا ما أيده الراغب الأصفهاني في قوله : " الكَسْبُ : ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع ، وتحصيل حظ ككسب المال . وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة ، ثم اجتلب به مضرة . والكَسْب يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره ، ولهذا قد يتعدى إلى مفعولين فيقال : كسبت فلاناً كذا . والاكتساب لا يقال إلا فيما استفدته لنفسك . فكل اكتساب كسب ، وليس كل كَسْبٍ اكتساباً " . (٤)

. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥) وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ . (٦)

فقد وظف النص القرآني في الآيتين فعلين هما : (جرحوا) في آية سورة الأنعام وهو ثلاثي صحيح ، و(اجترحوا) في آية سورة الجاثية وهو خماسي على وزن (افتَعَلَ) مزيداً بالهمزة والتاء . وكلاهما يعود إلى أصل اشتقاقي واحد

(١) سورة النساء الآيتان : (١١١ ، ١١٢)
(٢) سورة آل عمران الآية : (٢٥)
(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) – أبو محمد الحسين البغوي – تح/عبدالرزاق المهدي ٤٢٥/١ – دار إحياء التراث العربي/بيروت – ط/أولى ١٤٢٠هـ .
(٤) المفردات في غريب القرآن صـ ٧٠٩ .
(٥) سورة الأنعام آية : (٦٠) .
(٦) سورة الجاثية آية : (٢١).

هو مادة (جَ رَ حَ) الدالة على الكسب . فالأصل اللغوي للصيغتين واحد غير أن (اجترح) فيها زيادة معنى للزيادة الداخلة على المبنى ؛ ولذلك استعملت (جرح) لتعني الخير أحياناً والشر أحياناً ، فقوله تعالى : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ) أي : ما فعلتم فيه من خير ومن شر ؛ لأن أفعال العباد هكذا لا تقتصر على الخير وحده ولا على الشر وحده . واستعملت (اجترح) بمعنى الشر وحده ؛ لأنها خصصت بفعل السيئات في المرة الوحيدة التي وردت فيها في القرآن .[1] فالافتعال هنا طلب ، وبحث ، وحرص على هذا الاجتراح ، وقصدية واضحة تميز هذا السعي للإثم . ولذا كان الراغب دقيقًا إذ خص الاجتراح بأنه اكتساب الإثم .[2] فهذا هو مناط الاجتراح . كما أن الجرح في آية سورة الأنعام (عام) يضم اكتساب الخير أو الشر دون تحديد ؛ لأنه كسب الجوارح أثناء السعي . أما الاجتراح فهو (خاص) باكتساب السيئات من جانب الفاسقين .

. ونظير ذلك أيضاَ (خان واختان) ، والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب ؛ إذ فيه زيادة وشدة ، والذي يظهر أن الاختيان يأتي مع اختيان النفس ؛ إذ أفصح عنه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿عَلِمَ اللَّه أَنكُم كُنتُم تَخْتَانُونَ أَنفُسكُم فَتَاب علَيكُم﴾ [3] ، ومن ورود لفظ الخيانة في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [4] . فالخيانة تقع من الشخص مع غيره ، أما الاختيان فيكون من الشخص مع نفسه ، وهذا أعظم عند الحق سبحانه ؛ لأن المختان يعلم أن الحق مطلع عليه وحده ، ثم يقع منه ذلك ؛ لذا اختص بالبناء الذي فيه مبالغة وشدة .

---

(١) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن الكريم – د/عودة الله منيع القيسي صـ ٥٣ – مؤسسة الرسالة / بيروت – ط/ أولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .
(٢) المفردات في غريب القرآن صـ ١٩١.
(٣) سورة البقرة من الآية : (١٨٧) .
(٤) سورة الأنفال الآية : (١٧) .

- استعمال الفعل مزيدًا بالتضعيف تارة وبالهمزة تارة أخرى مثل : (وصى و أوصى) : فالمتأمل لمواضع ورود الصيغتين في القرآن الكريم يجد أن الفعل المضعف وقد ورد في القرآن الكريم سبع مرات قد اختص بالدين والأمور المعنوية لما فيها من المبالغة ؛ لذا يقع المضعف في مواطن وصاية الأنبياء ، أو الوصاية بالوالدين من البر . فالتشديد في التوصية أدل على الاهتمام من الإيصاء كما في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١) ، وقوله – ﷺ – : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣)

في حين اختص الإيصاء أو الفعل المزيد بالهمزة وقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات بالأمور الحسية أي المادية كالأمور المتعلقة بإرث الميت ، أو ما يوصي به عند الموت وهو من المحسوسات أيضا كما في قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً

(١) سورة البقرة الآيات : (١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢) .
(٢) سورة الشورى الآية : (١٣) .
(٣) سورة العنكبوت الآية : (٨) .

حَكِيماً ﴾ [١] ، وكذا قوله تعالى : ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢]

أما قوله تعالى على لسان نبي الله عيسى – عليه السلام – : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً ﴾ [٣] ، فذلك من كلام عيسى – عليه السلام – وقد أخرج مخرج الوصية التي يوصي بها الميت ؛ لأنه لما يزل مكلفاً بحمل أعباء الرسالة ؛ إذ هو في المهد صبياً ؛ وإنما المراد من كلامه التعريف بشخصه ، ودفع الريبة عن أمه لا غير ، فجيء بالفعل الذي يدل على مطلق الوصية دون المبالغة والتكثير . بينما علل أحد الباحثين المحدثين استعمال الفعل (أوصى) مع الصلاة وهي من الأمور الدينية باقترانها بأمر مادي وهو الزكاة . [٤]

- ومن بديع استعمال الفعل في القرآن الكريم وجمالية المفردة الفعلية وإبداعها في سياقها : خروج الأفعال في السياق القرآني عن النمط المألوف للغة من حيث التصرف في أزمنة الفعل ، وذلك كالتعبير عن الحدث الماضي بالمضارع ، والتعبير عن الحدث المستقبل بالزمن الماضي . " فكثيراً ما نجد السياق القرآني لا يجري على نمط واحد في المطابقة الزمنية بين الأفعال ، إذ يحصل تصرف في التحول الداخلي للسياق نفسه بالمخالفة في أزمنة الأفعال ، كأن يرد في السياق ذكر الفعل المضارع ثم ينكسر النسق السياقي بمجيء الفعل الماضي في السياق نفسه أو العكس ، مما يثير التساؤل عن معرفة سبب ذلك التحول ودلالته التعبيرية في السياق القرآني .... وقد عد علماؤنا

(١) سورة النساء الآية : (١١) .
(٢) سورة البقرة الآية : (١٨٢) .
(٣) سورة مريم الآية : (٣١) .
(٤) التعبير القرآني – د/ فاضل صالح السامرائي صـ ١٦ – دار عمار/ عمان ، الأردن – ط/رابعة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

هذا النوع من التحول من روائع البيان وضرباً من البلاغة " .[١] وبيان ذلك على النحو التالي :

أ . التعبير بالفعل الماضي في موطن المضارع ؛ لإظهار الحدث المنتظر وقوعه في صورة الواقع لا محالة ، وأنه أمر لا شك فيه كما في قوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ [٢]﴾ .[٣] أي سيأتي أمر الله ، فهذا مخالف لظاهر اللفظ لكن عليه دليل وهو قوله : {فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} . فالفعل (أتى) يدل بصيغته الصرفية على المضي المطلق في زمن مضى وانقضى ، إلا أن وروده في السياق يفرض عليه دلالة سياقية يقتضيها السياق ويدل عليها ، وهي دلالة الاستقبال ؛ لأن القرينة اللفظية (فلا تستعجلوه) في السياق النحوي التركيبي تشير إشارة واضحة جلية إلى أنه لما يقع بعد . ومع كونه فعلاً ماضياً في الصيغة الصرفية ، فإننا لا نفرغ هذه الصيغة الصرفية من دلالتها الزمنية ولا نخضعها للدلالة السياقية فقط ؛ إذ لو كان ذلك هو المراد لجاءت الصيغة صريحة بقوله : (سيأتي أمر الله) . ومع ذلك لا نقف عند حدود الدلالة الصرفية اللفظية لنقول : بأنه فعل ماض قد وقع وحصل ؛ فالقرينة السياقية تمنع ذلك وهي قوله : (فلا تستعجلوه) ، وإنما نجمع بين الدلالتين الصرفية والنحوية ، الإفرادية والتركيبية ، لنقول : إن المراد "هو توظيف الصيغة في معنى الاستقبال متضمنة معنى المضي وموظفة له في الوقت نفسه ، فكأن مقصود الآية أن تقول : سيأتي أمر الله لا محالة مجيئاً مقطوعاً به ، بل هو في حكم ما وقع وأتى بالفعل " .[٤]

---

(١) تحولات الأفعال في السياق القرآني وأثرها البلاغي – د/ عبدالله علي الهتاري صـ ٨– جامعة ذمار – اليمن .

(٢) سورة النحل الآية : (١) .

(٣) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين – حمد بن صالح بن محمد العثيمين – تح/ سعد فواز الصميل صـ ٩٠– دار ابن الجوزي/ الرياض ، المملكة العربية السعودية – ط/ الخامسة ١٤١٩هـ.

(٤) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية – د/ عبد الحميد هنداوي صـ ٥٢ ، ٥٣ – مكتبة المدينة .

ونظائر ذلك في القرآن كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّيْنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [(١)] إِلَى قوله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [(٢)] ، وقوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ . [(٣)] وكذلك قوله – ﷻ – : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [(٤)] فإنما قال – ﷻ – : {وَحَشَرْنَاهُمْ} ولم يقل : (ونحشرهم) بإيثار صيغة الماضي بعد نسيّر وترى للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذي ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفياً وموجباً وقيل هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال . [(٥)] إن صيغة الماضي في المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلاً للدلالة على تقدمِ الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك . [(٦)] فالحشر هو المهم ؛ لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم ، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي .

ـ وكذا قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [(٧)] فقال (أورثنا) ولم يقل : نورث . فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي ؛ لتقرره وتحققه . أي الدلالة على تحقق وقوعه . [(٨)] وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ

(١) سورة الزمر الآيات : (٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠) .
(٢) سورة الزمر من الآية : (٧١) .
(٣) سورة الزمر من الآية : (٧٣) .
(٤) سورة الكهف الآية : (٤٧) .
(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود ٥/٢٢٦ – دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
(٦) السابق ٦/ ٣٠٤ .
(٧) فاطر من الآية (٣٢) .
(٨) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١٧ / ١٥٢ .

عَنَّا الحَزَنَ﴾ [١] فعبر بالماضي (وقالوا) عن المستقبل ؛ لأنهم يقولون هذا القول في جنات عدن لتحقق الوقوع . [٢] وإن كان المراد بيان حالهم حين يدخلون الجنة الجنة . فالأفعال الماضية في الآيتين وهى (قالوا ، أذهب ، أحلنا) تدل على زمن الخطاب في الآخرة بعد دخول المؤمنين الجنة ، وهو بالنسبة لأهل الجنة ماض ؛ لأنهم يتحدثون عن اللحظات التي تسبق زمن الإخبار . [٣]

فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات السابقة بمعنى المستقبل ، تنزيلاً لتحقق وقوعه منزلة الوقوع بالفعل .

أما عن جمالية هذا الاستعمال للمفردة القرآنية فقد وضحها أحد الباحثين بقوله : " إن الفعل الماضي إذا أُخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده ؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها . انظر إلى قوله – ﷻ – : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ [٤] فإنما قال – ﷻ – : {فَفَزِعَ} بلفظ الماضي بعد قوله : {يُنفَخُ} وهو بلفظ المستقبل للإشعار بتحقيق الفزع ، وأنه كائن لا محالة ؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به " [٥] .

---

(١) فاطر من الآية (٣٤) .

(٢) إرشاد العقل السليم ١٥٣/٧ ، و روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – شهاب الدين الألوسي– تح/علي عبدالباري عطية ٩٩/٢٢– دار الكتب العلمية/بيروت – ط/أولى ١٤١٥هـ

(٣) ينظر : خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني – د / محمد محمد أبوموسى أبوموسى صـ ٢٦٥ بتصرف – مكتبة وهبة – الطبعة / السابعة.

(٤) سورة النمل الآية : (٨٧)

(٥) الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم – جامعة المدينة – مناهج جامعة المدينة العالمية صـ ٤٦٤– الناشر/ جامعة المدينة العالمية .

والقرآن الكريم يعرض كثيرا من مشاهد الآخرة في صور الماضي وكأنها أحداث قد وقعت ؛ وذلك ليؤكد كينونتها ، وأن زمن الدنيا في حساب الحق كأنه زمن قد انتهى ؛ ليواجه بهذا الأسلوب الحاسم دواعي الانصراف عن أمر القيامة ولهذا الأسلوب نظائر كثيرة فيه . (١)

ب . التعبير بالفعل المضارع في موطن الماضي ؛ استحضارًا للحال أو حكايتها . أي : استحضار الصورة للحدث الماضي ، وكأنه أمر مشاهد بارز للعيان . ويرد هذا النوع من التحول بكثرة في الكتاب العزيز، ويعد من روائع البيان فيه ، حيث يعمد القرآن الكريم إلى صورة مغرقة في القدم فيستدعيها من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر؛ لتصبح كأنها مشاهدة ماثلة للعيان ، ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً اليهود : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (٢)

ففي هذا السياق حصل تحول عن الفعل الماضي "كذبتم" إلى الفعل المضارع "تقتلون" وكان مقتضى السياق بموجب المطابقة الزمنية بين الأفعال أن يكون على النحو " ففريقاً كذبتم وفريقاً قتلتم " . لا سيما أنه يتحدث عن أمر حدث في الزمن الماضي ، من تكذيب اليهود للأنبياء وقتلهم إياهم ، لكن السياق تحول عن الماضي إلى المضارع ؛ لأن " قتل الأنبياء أمر فظيع ، فأراد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب " . (٣) فعمد القرآن الكريم إلى صورة مغرقة في القدم فاستدعاها من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر؛ لتصبح كأنها مشاهدة ماثلة للعيان .

وسياق هذه الآية يشابهه سياق آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً

(١) ينظر خصائص التراكيب ٢٦٥ : ٢٦٩ .
(٢) سورة البقرة الآية : (٨٧) .
(٣) الكشاف ١/ ١٦٢.

لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [1] إذ جاء الفعل المضارع (تقتلون) الدال على الحال مقترناً بظرف الزمان (قبلُ) الدال على الماضي ، مما يجعل دلالة الفعل المضارع دالة على الزمن الماضي ، فالفعل لا يدل على زمن الحدوث ، وإنما يدل على زمن الإخبار، فللفعل الماضي زمانان ؛ زمن حدوث ووقوع ، وزمن إخبار عنه .... ونجد أن السياق القرآني قد نسب جريمة القتل إلى الأحفاد عندما خاطبهم فقال : " فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ " ، في حين أن القتل قد حصل في الزمن الماضي من الأجداد ، وذلك من بلاغة السياق القرآني ، إذ أفاد الفعل (تقتلون) الاستمرارية للحدث ، كما أفاد الحضور للمشهد في الأذهان ، إشارة إلى أن نزعة القتل والإجرام تسري في دماء الأحفاد كما سرت في دماء الأجداد . وفي ذلك تنبيه في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض ، وأنهم سواسية في الجرم ، فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم ؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم ، أو الرضى عن أفاعيلهم ، أو الانطواء على مثل مقاصدهم " [2].

ولكننا نجد سياقاً آخر في القرآن الكريم يرد فيه الإخبار بصيغة ضمير الغائب في الحديث عن بني إسرائيل ، كما هو الحال في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾ [3] . وهذا السياق تنسجم فيه الدلالة الزمنية للسياق الداخلي من خلال الإخبار عمن سبق من بني إسرائيل بصيغة ضمير الغائب (إليهم ، جاءهم ، أنفسهم) مع السياق الخارجي للزمن الماضي ، وبناءً على ذلك فتنصرف دلالة الفعل المضارع (يقتلون) في الحالة هذه إلى استحضار الصورة لا غير، وليس فيه دلالة استمرار الحدث وتجدده يقول

(١) سورة البقرة الآية : (٩١) .
(٢) النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)- د/ محمد عبدالله دراز صـ ١٥٤ - دار طيبة /السعودية . ط/ أولى١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .
(٣) المائدة الآية : (٧٠) .

الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) : "جيء (يقتلون) على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحالة الشنيعة للتعجب منها ". [١] يقول أحد الباحثين المحدثين : " ومما سبق ذكره يمكننا الجمع بين دلالات هذه السياقات المختلفة ، لنقول : إن دلالة الفعل (يقتلون) تفيد استحضار صورة قتل الأجداد للأنبياء تبشيعاً لقبح فعلتهم ، وذلك من سياق الإخبار عنهم بضمير الغائب ، وفيه دلالة على استمرار الحدث وتجدد حصوله من الأبناء والأحفاد وذلك من سياق الخطاب ، وفيه تيئيس من تحقق ذلك وحصوله في حق هذا النبي – ﷺ – وهذا يعد من بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم فقد تم توظيف القيمة الزمنية في صياغة الفعل للحصول على مساحة تتعدد فيها الدلالات للنص وتتسع . [٢]

فوظيفة استحضار الصورة في سياق الآيات السابقة كان لغرض تصوير فظاعة الحدث وقبحه .

ـ ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُور﴾ [٣] فعبر بالمضارع (تثير) دون ما قبله (أرسل) وما بعده (فسقناه) وهما ماضيان للدلالة على استمرار الإثارة . [٤]

وقد بين الزمخشري إبداع المفردة الفعلية الدالة على المستقبل في سياق الحديث عن الماضي وبين جماليتها في موضعها من الآية الكريمة بقوله : " فإن قلت : لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله ، وما بعده ؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز

(١) الكشاف ١/ ٦٦٣ .
(٢) تحولات الأفعال في السياق القرآني – د/ عبدالله الهتاري صـ ١١ وما بعدها بتصرف.
(٣) سورة فاطر الآية : (٩) .
(٤) إرشاد العقل السليم ٧ / ١٤٥ .

وخصوصية بحال تستغرب ، أو تهم المخاطب ، أو غير ذلك ... " .[1] كذا قال آخرون .[2]

فالسياق هو الذي أضفى على الفعل المضارع في هذه الحالة دلالة زمنية معينة ، وذلك من عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي ؛ إذ كان السياق يقتضي بموجب المطابقة الزمنية أن تجري الأفعال الواردة فيه على نسق واحد ، لكنه خرج عن هذه المطابقة استحضارا للصورة بغرض لفت الأنظار إلى موضع القدرة والاعتبار، ورسم صورة ذهنية عن مدى القدرة الإلهية في حركة الرياح .

أما عن مخالفة ذلك لما ورد عليه أصل التعبير بالمفردة القرآنية كما في سورة الروم حيث الآية الكريمة من متشابه النظم القرآني فقد وضحه ابن عاشور بقوله : " أما مجيء الفعل (أرسل) قبله في صورة الماضي فهو أنه لما كان القصد من الاستدلال هو وقوع الإحياء وتقرر وقوعه جيء بفعل المضي في قوله (أرسل) ... ولم يؤت بفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع بخلاف قوله في سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾[3] ؛ لأن القصد هنا الاستدلال بما هو واقع إظهاراً لإمكان نظيره ، وأما آية سورة الروم فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه .[4]

يقول أحد الباحثين المحدثين معللاً تباين الأسلوب في فعل إرسال الرياح بين سورتي فاطر والروم وغيرهما : " وردت صيغة (أرسل) فعلا ماضيا لسببين

---

(١) الكشاف ٣/ ٦٠١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله القرطبي تح / أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ٣٢٧/٢٤ – دار الكتب المصرية/القاهرة – ط/ الثانية ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ، والبحر المحيط – أبو حيان الأندلسي – تح/ صدقي محمد جميل ٢٨٩/٧ – دار الفكر/ بيروت ، وإرشاد العقل السليم ١٤٥/٧ .

(٣) سورة الروم من الآية (٤٨) .

(٤) التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور٢٢ / ٢٦٨ – الدار التونسية للنشر/ تونس ١٩٨٤هـ .

: الأول: ورود (أحداث) في السياق ماضية ، والثاني ورود (أفعال) في السياق ماضية . فمن الأحداث الماضية في السورة تكذيب الرسل السابقين من قبل قومهم ، وإتباعهم طريق الشيطان الذي زين لهم القبيح حسنا . ومن الأفعال الماضية فيها : (سقناه ، أحيينا به) . أما ورود صيغة (يرسل) فعلا مضارعا مع الرياح في الروم وغيرها فلسببين كذلك . الأول : ورود أحداث في السياق للحاضر أو المستقبل . والثاني : ورود أفعال كثيرة في السياق للحاضر أو المستقبل ... إذاً الأفعال المحيطة بالفعل المدروس والأحداث المحيطة به كذلك هي التي تقرر صيغته أ ماضية هي أم مضارعة ؟ وليس مجموع الأفعال ومجموع الأحداث في السورة كلها ؛ لأن الجوار في اللغة والحياة له أثر لا ينكر" . (١)

(١) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن ٧١.٧٤ بتصرف .

. وقد يأتي المضارع بدلاً من الماضي ليس استحضارًا للماضي وإبرازه في صورة الحاضر المشاهد وإنما لإفادة التجدد والاستمرار ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [1] فعبر بالمضارع (يتلون) مع الأفعال الماضية (أقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم) ؛ لأن الفعل المضارع يشعر بتجدد تلاوتهم ، فإن نزول القرآن متجدد فكلما نزل منه مقدار تلقوه وتدارسوه ... وجيء في جانب إقامة الصلاة والإنفاق بفعل المضي ؛ لأن فرض الصلاة والصدقة قد تقرر وعملوا به فلا تجدد فيه ، وامتثال الذي كلفوا به يقتضي أنهم مداومون عليه . [2]

يقول الإمام البقاعي : " عبر في الأول بالمضارع لأن إنزالها – (أي الآية الكريمة) – قبل التمام – (أى قبل تمام نزول القرآن الكريم) – وتصريحا بتكرار التلاوة تعبدا ودراسة لأن القرآن كما قال النبي – ﷺ – : " أشَد تَفَلُّتاً من الإبلِ في عقلها " [3] . وفي الثاني والثالث بالماضي حثاً على المبادرة إلى الفعل ، فهم يجددون التلاوة كل وقت مستمرين على ذلك محافظين عليه كلما نزل من القرآن شيء وبعد كمال نزوله حتى يكون ذلك ديدنهم وشأنهم بفهم وبغير فهم . [4]

فصيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه .... وحملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفاً ظاهراً مما لا سبيل إليه كيف لا والمقصود الترغيب في دين الإسلام والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه

---

(١) سورة فاطر الآية : (٢٩) .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٠٦ .

(٣) صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ) – مسلم بن الحجاج – تح/ محمد فؤاد عبد الباقي – حديث رقم (٧٩١) ١/ ٥٤٥ – دار إحياء التراث العربي/ بيروت .

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – برهان الدين أبي الحسن البقاعي – تح/ عبد الرزاق غالب المهدي صـ ٢٢٣ – دار الكتب العلمية / بيروت ١٤١٥هـ /١٩٩٥م.

من الكتب . [١]

ومعنى هذا أن إيثار التعبير بالمضارع في (يتلون) قد دل على استمرار وتجدد تلاوتهم لكتاب الله تعالى كلما نزل منه شيء وبعد كمال نزوله ، فهي – (أى التلاوة) – ملازمة لهم في حياتهم ؛ لما في كتاب الله من الخير العظيم ، أما إقامة الصلاة والإنفاق أو الإحسان إلى الخلق فقد عبر عنهما بالفعل الماضي للدلالة على ثبات الأمرين المقررين سلفا ، حتى صارا صفتين لهم ونحيزتين فيهم.

ـ ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكتاب أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [٢] . وقوله : ﴿ثم قال له كن فيكون﴾ [٣] ، أي فكان استحضارًا لصورة تكوُّنه . وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [٤] ، أي ما تلت . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ [٥] ، أي علمنا... وقوله ﴿فَلِمَ تقتلون أنبياء الله﴾ [٦] أي فلم قتلتم !. [٧]

وللتحول إلى المضارع دلالات تخرج عن دلالة استحضار الصورة إلى معانٍ أخرى يشي بها السياق القرآني الكريم ، من ذلك دلالة التلطف في الخطاب ، وكثرة وقوع الفعل وتكراره ، أو تجدده واستمراره ، فمن دلالة التلطف في الخطاب قوله تعالى : ﴿قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٨] . . ومن السياقات القرآنية التي يرد فيها هذا التحول للدلالة على كثرة وقوع الفعل وتكراره قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن

(١) إرشاد العقل السليم ٧ / ١٥٢ .
(٢) سورة البقرة الآية (٤٤) .
(٣) سورة آل عمران من الآية (٥٩) .
(٤) سورة البقرة من الآية (١٠٢) .
(٥) سورة الحجر الآية (٩٧) ، والنحل الآية : (١٠٣) .
(٦) سورة البقرة من الآية (٩١) .
(٧) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٧٣ .
(٨) سورة سبأ الآية (٢٥) .

نَّبِيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ [١] . ومن أمثلة مجيء هذا التحول للدلالة على الاستمرار قوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [٢] [٢] .

والفرق بين التحول الدال على الكثرة والتكرار ، والتحول الدال على الاستمرار، أن التكرار يتخلله فترات انقطاع وإن كانت متقاربة في الزمان ، في حين أن الاستمرار يقتضي الاتصال . [٣]

وقد بين ابن الأثير جمالية ورود المفردة القرآنية على هذا النمط بقوله : " اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل ، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ؛ وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي " . [٤] ويقول أيضا : " فإن قيل : إن الفعل الماضي أيضاً أيضاً يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل ، قلت في الجواب : إن التخيل يقع في الفعلين معاً ، لكنه في أحدهما وهو المستقبل أوكد وأشد تخيّلاً ؛ لأنه يستحضر صورة الفعل ، حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه ... وهذا لا يوجد في الفعل الماضي ؛ لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه ، وهذا لا خلاف فيه ". [٥]

ويقول د/ أبو موسى موضحاً القيمة التعبيرية للمضارع في الآيات الكريمة على خلاف ما كان يقتضيه الأسلوب في العرف اللغوي العام : " صيغة المضارع أقدر الصيغ على تصوير الأحداث ؛ لأنها تحضر مشهد حدوثها وكأن العين تراها وهي تقع ، ولهذا الفعل مواقع جاذبة في كثير من الأساليب حتى

(١) سورة الزخرف الآيتان (٦،٧) .
(٢) سورة البروج الآية (٨) .
(٣) ينظر : تحولات الأفعال في السياق القرآني صـ ١٦ وما بعدها .
(٤) المثل السائر ٢/١٩٤.
(٥) السابق ٢/١٩٦.

يقصد به إلى ذلك ، وترى المتكلمين من ذوى الخبرة بأسرار الكلمات يعبرون به عن الأحداث الهامة التي يريدون إبرازها وتقريرها في خيال السامع ... " .[١]

فمجيء الفعل المضارع في هذه الحالة خارجاً عن النسق العام للسياق يؤدي إلى توليد بارزتين في السياق ، دلالة نحوية متمثلة في الفعل المضارع الدال على الزمن الحاضر أو الاستقبال ، ودلالة سياقية متمثلة في الإشارة إلى الزمن الماضي ، وذلك بالعطف على الماضي أو مجيئه بعده ، فالدلالة السياقية تقتضي مضيه ، والدلالة النحوية للصيغة تقتضي استحضاره ، فيجمع بين الدلالتين ليقال : إنه الماضي الحاضر ، أو بعبارة (فندريس) هو " المضارع التاريخي " ، وذلك "استعمال شائع في الحكاية حيث يسمى بالحاضر التاريخي ، وفيه يجد المثقفون سحراً خاصاً ، يقولون بأن الحاضر أكثر تعبيراً أو أبلغ حتى ليجعل المنظر يحيا من جديد أمام عيني القارئ، ويرجع بفكرنا إلى اللحظة التي دار فيها الحديث ".[٢]

لكن مما ينبغي التنبيه عليه أن استعمال الفعل في الدلالة على زمن غير الزمن الذي وضع له مرتبط بالقرينة الظاهرة ، إذ هي أهم ما يعول عليه في هذا الاستعمال . فاستعمال المضارع في الماضي هو نوع من تشبيه الماضي بالمضارع وتقريبه منه ؛ لأن دلالة استحضار الحالة من دلالات المضارع ، حيث يعبر بالمضارع عن الماضي لتتمكن دلالة استحضار الحالة التي وقعت في الزمن الماضي لجلالتها . وكذلك استعمال الماضي في الدلالة على المستقبل لكى يحمل التعبير في طياته الدلالة التي يدل عليها الماضي وهى تحقق الوقوع ، فيعلم من ذلك التنبيه على تحقيق الخبر كله ، وأنه واقع لا محالة .

(١) خصائص التراكيب صـ ٢٦٤ .
(٢) اللغة – فندريس صـ ١٣٨.

فماضوية الفعل – إذن – دلالة على ثباته وحصوله أو تحقق وقوعه وإن لم يقع بعد ، ودلالته على المستقبل تعني تجدد حدوثه حسب زمن الخطاب ، لا على حسب زمن نطقه فحسب .

ومن هنا يتبين لنا أن لدلالة الفعل أثرها الواضح في الكشف عن جمالية المفردة في موضعها الأشكل بها أو الأخص ؛ لما تذخر به من المعاني ودرر الكلام ، وذلك من خلال السياق القرآني الذي ترد فيه بحيث تكون فيه كالدرة الثمينة وسط عقد أحكم نظمه ، والبحث عن أسرار النص القرآني وتوضيح مراميه أو مقاصده وغاياته يوقفنا على جمالية المفردة القرآنية وإبداعها في شتى صورها. وقل أن تجد نصاً يحوي من أسرار هذه الأساليب البليغة البديعة ما يحويه ، فهو كلام الله العزيز الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثانيا : استعمال المفردة اسما تارة وفعلا تارة أخرى في متشابه النظم القرآني

بتأمل متشابه النظم في القرآن الكريم تجد اختلافاً بيناً في صيغة المفردة القرآنية حيث ترد اسماً في آية وفعلاً في أية أخرى مع اتحاد النظم في الآيتين على الرغم من اختلاف الدلالة بين الاسم والفعل .

وبتأمل الغرض من الآية ومعرفة سبب النزول تجد نفسك مشدوهاً ومنبهرًا من جمال المفردة في موقعيها بصيغتيها المختلفتين (الاسمية والفعلية) بحيث لا تستطيع أن تحل إحداهما محل الأخرى في إفادة مضمون الخطاب مع اتحاد جذرهما اللغوي ، وإن جاز ذلك في النظم أو التركيب . إذ لكل منهما دلالته الخاصة التي لا تتحقق إلا به ، ولكل منهما مقام يستدعيه وسياق يقتضيه ، حيث يدل الاسم على الثبوت والاستمرار بينما يدل الفعل على زمن محدد ومختص بعينه ، والمضارع منه خاصة يدل على التجدد والحدوث ، ولا يتعدى الفعل زمنه المختص به إلا في مواضع معينة يفرضها المعنى والسياق والمقام على النحو الذي بيناه . وكلما تأمّلت في تنوع صيغ المفردة القرآنية بين الاسمية تارة والفعلية تارة ثانية في النظم

المتشابه ازددت عجبًا وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا الاستعمال الدقيق المعجز والمعبر أو الموحي للمفردة القرآنية بمضمون الخطاب .

بل إنك قد تجد الإعجاز نفسه في غير المتشابه حيث يستعمل الاسم في موضع كان التعبير بالفعل متوقعا في ظن القارئ أو المخاطب .

فعناية القرآن الكريم بالمبنى والمعنى معاً مع مراعاة السياق بصوره المتنوعة وأغراضه المتعددة تقف بك على دقة الاستعمال وجمالية التوظيف للمفردة القرآنية بصيغتيها ، وهو الأمر الذي يجعلها في غاية الدقة وإحكام النظم ويجبرك على الإقرار بأنه نظم إلهي رفيع بديع وفريد في نوعه لا يمكن مضاهاته أو مقاربته ؛ لما يحويه من أسرار مختلفة يكتشف منها كل صاحب فن أو علم بعضها ولا يحيط بجوانبها مهما تمكن في علمه الذي منحه الله بعضاً من دقائقه وخفاياه .

فمن بديع التغاير بين الاسم والفعل في المفردة القرآنية في متشابه النظم القرآني قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[1] فاستعمل الفعل مع الحي فقال : (يخرج) واستعمل الاسم مع الميت فقال : (مخرج) ؛ وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد ، ولأن الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال : ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ . وقد تقول : ولماذا قال في سورة آل عمران : ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[2] بالصيغة الدالّة على التجدد في الموطنين ؟ فنقول : إنَّ السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام ، وذلك أن السياق في آل عمران وهو في التغيير والحدوث والتجدد عموماً ، فالله سبحانه يؤتي مُلْكه مَنْ يشاء أو ينزعه منه ، ويُعِزُّ من يشاء أو يُذِله ، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، وغير ذلك من الأحداث ، فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة . قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

(١) سورة الأنعام الآية : (٩٥) .
(٢) سورة آل عمران الآية : (٢٧) .

الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ . في حين أن السياق في سورة الأنعام مختلف وليس السياق في التغييرات وإنما هو في صفات الله تعالى وقدرته وتفضله على خلقه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّـهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فأنت ترى أنه بدأ الآية بالجملة الاسمية وكان مسندها اسماً أيضاً ثم جاء بعده باسمين آخرين هما (مخرج الميت) و(فالق الإصباح) ثم ذكر أنه (يخرج الحي) بالصورة الفعلية لما ذكرت من حركة الحي بخلاف ما في آية آل عمران من دلالة على التغير والحركة . فالسياق مختلف ولذا تتوالى الأفعال في هذه الآية ، فوضع كل صيغة في المكان اللائق بها . [1]

وقد علل ابن المنير التعبير بالمضارع بدلاً من اسم الفاعل في قوله (يخرج الحي من الميت) بقوله : " عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده وهو قوله : (يخرج الحي من الميت) إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع ، وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائه الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضي " . [2] وكأن اسم الفاعل في هذا التركيب هو الأصل . على حين علله الخطيب الإسكافي بتناسق كل صيغة منهما مع نظائرها في السياقين بناء على معطيات العطف في علم النحو . [3]

(١)التعبير القرآني صـ ٢٣ ، ٢٤ .
(٢)المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية – رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية – جامعة أم القرى / السعودية – للباحث / صالح عبدالله محمد الشثري صـ ١٢٢ – ١٤٢١هـ/٢٠٠١م نقلا عن حاشية ابن المنير على الكشاف ٣٧/٢ .
(٣)المتشابه اللفظي في القرآن صـ ١٢٠.

ـ ومن ذلك أيضا قوله – ﷻ – : ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (١) وقوله – ﷻ – : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (٢)

فقد جاء في الآية الأولى بالصيغة الاسمية (مهلك) وفي الثانية بالصيغة الفعلية (يهلك) ؛ وذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة عما كان في الدنيا . فقد ذكر صفة الله وهو أنه لم يهلك قوماً بظلم وهم غافلون لم يُكَلَّفُوا ولم يأتهم رسل ينذرونهم . فالذين لم ينذروا غافلون قال تعالى : ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (٣) . فهو في سياق أمرٍ ثبتَ واستقرَّ وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت .

في حين أن الكلام في سورة هود عن هذه الحياة وشؤونها وسنن البقاء فيها وذكر سنة الله في الأمم فجاء بالصيغة الفعلية ؛ لأن الأمم تَحدثُ وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها وهكذا . فجاء بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد (ليهلك) . ثم انظر كيف جاء في الآية الأولى بـ (لم) الدالة على المضي (ذلك أنْ لم يكنْ رَبُّكَ) ؛ لأن الأمر حصل وتم في الدنيا فهو ماضٍ بالنسبة إلى الآخرة . وجاء ههنا بلام الجحود التي تدخل على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد فقال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾ (٤) فمجيء الفعل (يهلك) إشارة إلى التكرر بحسب ما يكون منهم من فساد.

ـ ومن بديع التغاير في استعمال المفردة القرآنية بين الاسمية والفعلية في غير متشابه النظم : الانتقال من الفعل إلى الاسم أو العكس في الآية الواحدة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٥) فقد جاء في صدر الآية بالفعل : (ليعذبهم) وجاء بعده بالاسم :

(١) سورة الأنعام الآية : (١٣١) .
(٢) سورة هود الآية : (١١٧) .
(٣) سورة يس الآية : (٦) .
(٤)التعبير القرآني صـ ٢٥ بتصرف .
(٥) سورة الأنفال الآية : (٣٣) .

(مُعَذِّبهم) وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب ، بخلاف بقاء الرسول – ﷺ – بينهم فإنه – أي العذاب – موقوت ببقائه بينهم . فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الاسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية وهو نظير قوله تعالى:﴿وما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [١] فالظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات، ثم انظر كيف جاءنا بالظلم بالصيغة الاسمية أيضاً دون الفعلية فقال: (وأهلها ظالمون) ولم يقل : (يظلمون) وذلك معناه أن الظلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارئ عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيئ . فانظر كيف ذكر أنه يرفع العذاب عنهم باستغفارهم ، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم ، وأنه لا يهلكهم إلا إذا كان الظلم وصفاً ثابتاً فيهم ، فإنه جاء بالاستغفار بالصيغة الفعلية (يستغفرون) وجاء بالظلم بالصيغة الاسمية (ظالمون). فانظر إلى رحمة الله – ﷻ – بخلقه . [٢]

فالسر في تخالف النظم بين قوله تعالى : ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ وبين قوله – ﷻ – : ﴿وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هو أن الفعل (يعذب) مقيد بزمن معين ، وهو حال حياة النبيّ فيهم . أما اسم الفاعل (معذّب) فهو غير محدود بزمن ، والقيد الوارد عليه هو قيد الاستغفار، وهو عتيد حاضر مع هذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. [٣]

ـ ومن بديع التغاير في استعمال المفردة القرآنية بين الاسمية والفعلية : التعبير بالاسم عن حدث لم يقع بعد ولكن ينتظر وقوعه ؛ لإظهاره في منزلة الحاصل المستقر الثابت كما في قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [٤] فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكأنه تم واستقر وثبت. ومثله قوله تعالى لنوح – عليه السلام – : ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي

(١) سورة القصص الآية : (٥٩) .
(٢)التعبير القرآني صـ ٢٦ .
(٣)التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم يونس الخطيب ٥/ ٦٠٣ – دار الفكر العربي / القاهرة .
(٤) سورة البقرة الآية : (٣٠) .

فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ [1] فلم يقل : سأغرقهم أو إنهم سيغرقون ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت أي : كأن الأمر استقر وانتهى . ومثله قوله تعالى في قوم لوط – عليه السلام – : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [2] ولم يقولوا : سنُهلك . فذكرها بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات أي : كأن الأمر انتهى وثبت . [3]

ثالثا : تغاير الصيغ الاسمية للمفردة القرآنية ودور السياق في بيان إبداعها وجماليتها :

تتنوع الصيغ الاسمية في المفردة القرآنية في السياق القرآني ، حيث نجد النص الكريم يستعمل المفردة الاسمية بصيغ متعددة ، وكلما أمعن الباحث الفكر في أسرار هذه الصيغ عند استعمالها في أساليب القرآن الكريم ، ودقق النظر فيها حينما ترد في آيات الذكر الحكيم وجد أسراراً عظيمة في استعمال كل صيغة في موضعها المناسب ، إذ تجد المفردة في السياق القرآني مستعملة تارة على صيغة المفرد دون صيغة الجمع ، وتارة مستعملة على صيغة اسم الفاعل بدلا من اسم المفعول والعكس ، وغيرها ، ولو حاولنا التغيير والتبديل ، أو إحلال إحداهما محل الأخرى فسد التعبير وذهبت حلاوته ، وضاع رونقه وبهاؤه ، مما يدل على أن للمفردة بصيغتها الواردة عليها قيمة تعبيرية وجمالية لا تستفاد من دون هذه الصيغة . وتفصيل ذلك على النحو التالي :

أ- تغاير صيغ المشتقات :

في المفردة القرآنية نجد أبنية كثيرة قد صيغت عليها في هيئة مختلفة لما كان يجب أن تكون عليها وفقاً لقواعد العربية وأصولها ؛ وذلك لإفادة معنى معين لا يستفاد إلا عن طريق الصيغة الجديدة التي وردت عليها في السياق القرآني ، أو لأغراض جمالية تظهر وجهاً محدداً في إعجاز المفردة القرآنية بصيغتها الاشتقاقية

(١) سورة هود الآية : (٣٧) .
(٢) سورة العنكبوت الآية : (٣١) .
(٣)التعبير القرآني صـ ٢٢ .

التي وردت عليها من حيث ملائمتها للغرض المسوق له الخطاب أو الدقة في الوصف . ومن ذلك تحولات اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة باسم الفاعل ، وصيغ المبالغة ، فهذه كلها لها أبنية محددة وصيغ ثابتة تصاغ عليها ، إلا أننا نجد أحياناً بعض الكلمات تخرج عن قواعد صوغ الأبنية المعروفة في العربية ؛ لأنها لا يراد منها الدلالة العامة الموضوعة لها تلك الأبنية وإنما يقصد بها معانٍ مخصوصة ودلالات تنحصر في أمور معينة تعارفوا عليها . يقول ابن الأثير : " اعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى ، لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك . وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة ، الذي اطلع على أسرارها ، وفتّش عن دفائنها . ولا تجد ذلك في كلام فإنه من أشكل ضروب علم البيان ، وأدقها فهماً ، وأغمضها طريقاً " .[1]

فتنوع صيغ المشتقات ذات الأصل الاشتقاقي الواحد في سياقات القرآن الكريم يعضد دلالاتها الجمالية ، ويثري جوانبها التوظيفية ، مع الحفاظ على اللمحات الإعجازية لهذا التوظيف في آيات النص الكريم . والموجه للدلالة في هذه السياقات إنما هو الآية التي ترد فيها هذه الصيغ ، بالإضافة إلى السياق العام للسورة . وكل ذلك يتم في اتساق تام ومتكامل مع براعة الانتقاء والاختيار لهذه الصيغ كما تم على أدق هيئة وأتمها . ولذا فإننا نحاول – هنا – الوقوف على بعض هذه التنويعات أو التحولات في الصيغ الاشتقاقية لتبيان ما تحويه من دلالات ومقاصد جمالية .

- **بين اسم الفاعل المجرد والمزيد**

من روائع انتقاء وتوظيف المفردة في السياق القرآني أنك تجد المفردة قد وردت في السياق القرآني على أصل اشتقاقي مخالف لجذره اللغوي ؛ وذلك لإفادة معنى معين أو لأغراض جمالية كما ذكرت . واسم الفاعل هو أحد التفرعات البنيوية المشتقة من الفعل لغرض دلالي معين لا يدل عليه الفعل بحد ذاته . وقد بين

(١)المثل السائر ٢/ ١٢ .

علماء العربية كيفية اشتقاق اسم الفاعل من الفعل الثلاثي وغير الثلاثي ، لكننا نقتصر في حديثنا هنا على مجيء اسم الفاعل المزيد بدلاً من أصله المجرد في تركيب كان يتوقع فيه استعمال اسم الفاعل المجرد ؛ لتحقيق قيمة جمالية وتعبيرية لا يؤديها المجرد إضافة إلى دلالته الأصلية وهي الدلالة على من قام بالفعل والدلالة على الدوام في الفعل .

. من ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ . [1] فصيغة (افتعل) في (اصطفينا) جاءت للدلالة على التخير وهو أحد معان الصيغة وهذا لا سؤال فيه ولا عنه ، وإنما السؤال عن ورود لفظ (المقتصد) وهو اسم الفاعل على صيغة (مفتعل) – أي : من مزيد الثلاثي لا من مجرده – دون (فاعل) ، مع وجود صيغة (فاعل) فيما تقدمه وهو (ظالم) وما لحقه وهو (سابق) ، وهو من القصد أي من الثلاثي المجرد . يقول ابن عاشور : " الاقتصاد افتعال من القصد وهو ارتكاب القصد وهو الوسط بين طرفين يبينه المقام ، فلما ذكر هنا في مقابلة الظالم والسابق علم أنه مرتكب حالة بين تلك الحالتين فهو ليس بظالم لنفسه وليس بسابق " . [2]

ففي صيغة (مقتصد) إذن قوة وتعمد في الفعل ليست في صيغة قاصد . ففي الافتعال قوة وتردد أو مغالبة وهو ما وضحه الرازي بقوله : " المختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فإنه واضع للشيء في غير موضعه ، والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فإنه اقتصد واجتهد وقصد الحق ، والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (بإذن الله) أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع في قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس ، والمقتصد يقع في قلبه فتردده النفس ، والظالم تغلبه النفس . ونقول بعبارة أخرى : من غلبته النفس

(١) فاطر من الآية (٣٢) .
(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١٢ ، ٣١٣ .

الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم ، ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد ، ومن قهر نفسه فهو السابق " . (١)

. ومن بديع ذلك ما جاء في صفات الله – ﷻ – فقد وصف الله – ﷻ – نفسه في كتابه المحكم بأنه قادر ، وقدير ، ومقتدر . وهذه الصفات الثلاث ترجع إلى أصل لغوي واحد وهو مادة (ق د ر) فَلِمَ غاير في الاشتقاق ؟ وما القيمة الجمالية من هذه المغايرة ؟ وهل للسياق دور في المغايرة ؟

فقد ورد لفظ (قادر) في القرآن الكريم أربع عشرة مرة وفي جميعها جاء وصفاً للمولى – ﷻ – باستثناء موضع سورة القلم . ومنها قوله تعالى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٣) . أما ما جاء في سورة القلم فقوله تعالى : ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ (٤)

على حين ورد الوصف (قدير) خمساً وأربعين مرة وفي جميعها كان وصفاً لله – ﷻ – ومنها قوله تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٦) .

أما (مقتدر) فقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات فقط وفيها كان وصفاً خاصاً بالمولى – ﷻ – ومنها قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ

(١) التفسير الكبير ٢٦ / ٢٣ .
(٢) سورة يس الآية (٨١) .
(٣) سورة الأنعام الآية (٦٥) .
(٤) سورة القلم الآيات (٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) .
(٥) سورة البقرة الآية (١٠٦) .
(٦) سورة النحل الآية (٧٠) .

مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ (٢) ، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٤)

فـ (القادر) في وصفه تعالى معناه : ذو القدرة الذي لا يتطرق إليه العجز ولا يفوته شيء ، و(القدير) فعيل مبالغة من قادر ليدل على الصفة الثابتة أو المطلقة له وهي القدرة التامة القائمة بذاته ، أما (المقتدر) فهو أبلغ من الاثنين للدلالة على المبالغة في الوصف بالقدرة . وهو أدل على الصفة الثابتة مضافاً إليها جانب الفاعلية والقصد ، والصفة الإلهية – كما هو معروف – ثابتة لا تتغير زيادة ونقصانا . (٥)

وبالنظر والتأمل في السياقات التي وردت فيها هذه الصيغ للمفردة القرآنية نجد أن لكل صيغة من الصيغ الثلاث سياقها الذي تتجاوب معه تجاوبا واضحاً . فصيغة فاعل (قادر) قد أتت في سياق إثبات القدرة لله تعالى ، وأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، وغير ذلك مما يثبت أنها صفة فعلية تفيد القدرة على اختراع الأشياء اختراعاً يتفرد به، ويستغني فيه عن معاونة غيره .

أما (القدير) فقد جاء في سياق إثبات كمال القدرة ؛ ولذا ارتبط ورودها في القرآن الكريم في أكثر المواضع بجملة (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) في ختام الآية ؛ وذلك للدلالة على كمال القدرة ، وإحاطتها بالخلق . والسر في استعمال هذه الكلمة

(١) سورة الكهف الآية (٤٥) .
(٢) سورة الزخرف الآيتان (٤١ ، ٤٢) .
(٣) سورة القمر الآية (٤٢).
(٤) سورة القمر الآيتان (٥٤ ، ٥٥).
(٥) جماليات المفردة القرآنية صـ ٢٤٩ بتصرف .

بخصوص الباري – ﷻ – هو فعله كل ما يريد وبأي مقدار كان ، وإعطائه عباده أي مقدار يريد هو سبحانه.[1]

أما (المقتدر) فهو مبالغة في قادر ؛ للدلالة على التمكُّن ؛ وإنما يعود ذلك إلى الزيادة في اقتدر؛ لذا وردت في سياق تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب ، أو للدلالة على بسطة القدرة ، أو في سياق المبالغة في الوصف كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فوصف المقعد بالمصدر ، والمصدر لا يوصف به إلا للمبالغة ثم جاء بلفظ (مليك) ؛ للمبالغة في الملك ؛ لأنه أبلغ من مالك ، ثم ختمه بتمكُّن القدرة ، وأنه لا يمتنع عليه شيء .

يقول شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ): " مقتدر على ما لا يتناهى . قال الراغب : القدير الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضيه الحكمة بلا زيادة ولا نقص والمقتدر يقاربه لكنه قد يوصف به البشر ومعناه المتكلف والمكتسب للقدرة ، فإذا استعمل في الله فهو مبالغة في القدرة الكاملة كالقدير ، وهذا وجه آخر للأشدية إشارة إلى قوّة مدرته كيفاً وكماً " .[2]

ومن هنا كان استعمال اسم الفاعل مجردا في سياق بعينه تارة ، ومزيدا في سياق آخر تارة ثانية إنما كان لقيمة جمالية وتعبيرية يتطلبها سياق الآية . فـ (المقتدر) أبلغ من (القادر) ذلك أن (المقتدر) اسم فاعل من (اقتدر) وهذا أبلغ من (قدر) ، فإن صيغة (افتعل) قد تفيد المبالغة والتصرف والاجتهاد والطلب في تحصيل الفعل بخلاف (فَعَل) ومنه اكتسب واصطبر واجتهد .

---

(١) صيغ المبالغة وطرائقها في القرآن الكريم دراسة إحصائية صرفية ودلالية – رسالة دكتوراه بكلية الدراسات العليا / جامعة النجاح الوطنية – للباحث/ كمال حسين رشيد صالح ٢٠٠٥م صـ ٢٣٠ نقلا عن لسان العرب (ق د ر).

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، الْمُسَمَّاة (عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي) – شهاب الدين أحمد الخفاجي ٧/ ٣٩٣ – دار صادر / بيروت .

وفي مقتدر – أيضاً – "إشارة إلى زيادة التمكنِ في القدرة وأنه لا راد له ولا معقب".[1] فالزيادة في الفعل تفيد قوة المعنى المعبر عنه بالصيغة المزيدة ، وهذا ما وضحه ابن جني وغيره في قوله تعالى :﴿ فَأَخَذْنَاهم أَخذَ عزِيزٍ مقْتَدر﴾ حيث قال في باب في قوة اللفظ لقوة المعنى : " هذا فصل من العربية حسن ... قال الله – ﷻ – : {أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ} ؛ فمقتدر هنا أوفق من قادر؛ من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ " .[2] وقال ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) : " مقتدر ههنا أبلغ من قادر ؛ وإنما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر وشدة الأخذ ، الذي لا يصدر إلاَّ عن قوة الغضب ، أو للدلالة على بسطة القدرة ، فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادر ؛ وذاك أن مقتدرًا اسم فاعل من اقتدر ، وقادر اسم فاعل من قدر، ولاشك أن (افتعل) أبلغ من (فعل) ، وعلى هذا ورد قول أبي نواس :

فعفوت عنّي عفو مقتدر ∴ حلّت له نِقَم فألفاها

أي:عفوت عني عفو قادر متمكن القدرة،لا يرده شيءٌ عن إمضاء قدرته ".[3]

كذا قال الزركشي : " اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نُقِلَ إلى وزن آخر أعلى منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً ؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة . ومنه قوله تعالى : {فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر} ، فهو أبلغ من [قادرٍ] لدلالته على أنه قادر متمكن القدرة لا يرد شيء عن اقتضاء قدرته ويسمى هذا قوة اللفظ لقوة المعنى " .[4]

- **الإتيان بالمفردة على صيغة اسم الفاعل مرادا بها اسم المفعول** :

من المعروف أن (اسم الفاعل) و (اسم المفعول) قد وضع كل منهما لمعنى مناقض ومضاد لمعنى الآخر ، فـ (اسم الفاعل) وضع للدلالة على الحدث والذات

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٣٠٠ .
(٢) الخصائص ٣/ ٢٦٨ .
(٣) المثل السائر ٢/ ٥٦ ، والبيت من بحر الكامل .
(٤) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤ .

التي قامت به ، و (اسم المفعول) وضع للدلالة على الحدث والذات التي وقع عليها . لكن ورد في القرآن الكريم (أربعة عشر) لفظاً من أوزان اسم الفاعل قيل إنها بمعنى المفعول . [١] ستة منها بزنة (فاعل) وهي (آمن) في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [٢] ، وقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [٣] ، و(دافق) في قوله تعالى : ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [٤] ، و(ساحل) في قوله تعالى : ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [٥] و(عاصف) في قوله تعالى : ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [٦] [٦] ، و(عاصم) في قوله تعالى : ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ [٧] ، ، و(عاقر) في قوله تعالى : ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [٨] ، وستة منها بزنة (فَاعِلَة) وهي : (حافرة) في قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ [٩] ، و(داحضة) في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠] و(راضية) في قوله تعالى : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [١١] و(ساهرة) في قوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [١٢] ، و(سائبة) في قوله

---

(١) الأبنية الدالة على اسم الفاعل في القران الكريم دراسة دلالية – رسالة دكتورة بقسم اللغة العربية في كلية الآداب / جامعة بغداد سنة ٢٠٠٣م – للباحثة/ أفراح عبد علي كريم الخياط صـ ٤٨ .

(٢) سورة البقرة الآية : (١٢٦) ، وسورة إبراهيم الآية : (٣٥) .

(٣) سورة القصص الآية : (٥٧) .

(٤) سورة الطارق الآية : (٦) .

(٥) سورة طه الآية : (٣٩) .

(٦) سورة إبراهيم الآية : (١٨) .

(٧) سورة هود الآية : (٤٣) .

(٨) سورة ال عمران الآية : (٤٠) .

(٩) سورة النازعات الآية : (١٠) .

(١٠) سورة الشورى/ الآية : (١٦) .

(١١) سورة الحاقة الآية : (٢١)، وسورة القارعة الآية : (٧) .

(١٢) سورة النازعات الآيتان : (١٣-١٤) .

تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ (١) ، و(مائدة) في قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ﴾ (٢) ، وواحدة على زنة (مُفْعِل) وهي : (مبصر) في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٣) . وواحدة على زنة (مُفْعِلَة) وهي (مبصرة) في قوله – ﷺ – : ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (٤) ، وقوله تعالى ﴿واتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ مُبِينٌ﴾ (٦).

والقول بوقوع أحدهما موقع الآخر مما فيه نظر . فقد كانت آراء النحاة واللغويين الأوائل في هذا الباب متباينة تبايناً أكثر مما هو عليه في أي موضع آخر، بل إن اختلافهم هنا أوسع من اختلافهم في وقوع (اسم المفعول) موقع (اسم الفاعل) مع تطابق الحالتين إلى حد كبير . فقد ذهب الخليل ومن بعده سيبويه إلى أن ما جاء على (فاعل) وأول بالمفعول إنما هو محمول على النسب ، جاء في الكتاب " وقال الخليل : إنما قالوا : عيشة راضية وطاعم وكاس على ذا ، أي : ذات رضا وذو كسوة وطعام ، وقالوا : ناعل لذي النعل ..." (٧) . وأيد ابن جني رأي الخليل وسيبويه ، إذ عرض في كتابه (الخصائص) هذه المسالة بشيء من التفصيل ، ذاهباً إلى أن اعتقاد دلالة (فاعل) على (مفعول) إنما حصل بسبب تعبير أهل اللغة ، وإلا فهو خلاف القياس" (٨) ، فابن جني يقرر أن ما ذهب إليه الخليل

(١) سورة المائدة الآية : (١٠٣) .
(٢) سورة المائدة الآية : (١١٢) .
(٣) سورة يونس الآية : (٦٧) ، وسورة النمل الآية : (٨٦) سورة غافر الآية : (٦١) .
(٤) سورة الإسراء الآية : (١٢) .
(٥) سورة الإسراء الآية : (٥٩) .
(٦) سورة النمل الآية : (١٣) .
(٧) كتاب العين – الخليل بن أحمد – تح د/ مهدي المخزومي، ود/ إبراهيم السامرائي – باب العين واللاّم والنّون معهما ١٤٣/٢ – دار ومكتبة الهلال ، والكتاب ٣/ ٣٨٢.
(٨) الخصائص ١٥٢/١-١٥٣.

وسيبويه من حمل هذا الباب على النسب أولى لأن (دافقاً) وإن كان بمعنى (مدفوق) فإن القياس فيه أن يكون فاعلاً ، وتأويل النسب لا يؤدي إلى مخالفة القياس ؛ لأنه يجمع بين الفاعل والمفعول .

وهنالك من يرى أن ما جاء من هذا الباب إنما هو فاعل على حقيقته من دون تأويل بالنسب ، قال المبرد (ت ٢٨٥هـ) في قوله تعالى : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ : "... (فالعاصم) الفاعل و (من رحم) معصوم ...." . [١]، بل أن بعض أصحاب هذا الرأي أنكر صراحة مجيء (فاعل) بمعنى (مفعول) قال أبو جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ) : " فاعل بمعنى مفعول فيه بطلان البيان ولا يصح ولا ينقاس ولو جاز هذا لجاز ضارب بمعنى مضروب ، والقول عند البصريين أنه على النسب " . [٢] فاستعمال (فاعل) موقع (مفعول) لم يثبته البصريون . فقد صرح أبو علي الفارسي بان استعمال (فاعل) موقع (مفعول) لم يثبت ، اذ قال : " ... لا يثبته أصحابنا ولا البغداديون وانما جاء به أهل اللغة ..." ، أيد أبو علي الفارسي ما ذهب إليه المبرد في ان (عاصماً) فاعل على حقيقته. [٣]

وأكثر العلماء على مجيء (فاعل) بمعنى الـ (مفعول) في الأساليب العربية الفصيحة ومن بينها القرآن الكريم فقد أفرد بعض اللغويين أبواباً من كتبهم لما جاء على (فاعل) بمعنى (المفعول) ، ومنهم ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) [٤]، والفراء(ت ٢٠٧هـ) [٥] والأخفش(ت ٢١٥هـ) [٦]، وأبو هلال العسكري [١]، والخطابي [٢]، وابن

(١) المقتضب – المبرد – تح/ محمد عبد الخالق عظيمة ٤١٢/٤ – عالم الكتب/ بيروت .
(٢) إعراب القرآن – أبو جعفر النحاس – وضع حواشيه وعلق عليه/ عبد المنعم خليل إبراهيم ٥/ ١٢٤ – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٢١هـ .
(٣) الأبنية الدالة على اسم الفاعل في القران الكريم دراسة دلالية – صـ ٤٨ نقلا عن ارتشاف الضرب صـ ٧٤، والايضاح ص٢١٢.
(٤) تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة الدينوري – تح/ إبراهيم شمس الدين صـ ١٨٠ – دار الكتب العلمية/ بيروت .
(٥) معاني القرآن ٢٥٥/٣ .
(٦) معاني القرآن – الأخفش – تح د/ هدى محمود قراعة ٣٨٣/١ – مكتبة الخانجي/ القاهرة – الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ /١٩٩٠ ، واللباب في علوم الكتاب – ابن عادل

وابن فارس (ت ٣٩٥هـ) [٣] ، والثعالبي (ت ٤٢٩هـ) [٤] ، وابن سيده (ت ٤٥٨هـ) [٥] ، والراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) [٦] ، والعكبري (ت ٦١٦هـ) [٧] ، والسيوطي (ت ٩١١هـ) [٨] والزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) [٩] .. وغيرهم .

ولم تخرج أقوال المفسرين في معالجة هذه الألفاظ عما ذكره اللغويون والنحاة وأهل البلاغة من أنها محمولة على إرادة النسب أو أنها بمعنى المفعول ، أو أنها فاعل على حقيقته ، أو أنها من المجاز العقلي . [١٠] ومن المفسرين : القشيري (ت

الحنبلي الدمشقي – تح الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ٢٦٢/٢٠ – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/أولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، وفتح البيان في مقاصد القرآن – أبو الطيب محمد صديق خان البخاري القِنَّوجي – قدم له وراجعه/ عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري ١٧٧/١٥ – المَكتبة العصرية/ صيدا – بيروت.

(١) الوجوه والنظائر – أبو هلال العسكري – تح/ محمد عثمان صـ ١١٣ – مكتبة الثقافة الدينية/ القاهرة – ط/ الأولى ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م .

(٢) غريب الحديث – الخطابي – تح/ عبد الكريم الغرباوي ٤٣٠/١ – دار الفكر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(٣) الصاحبي صـ ١٦٨.

(٤) فقه اللغة وسر العربية – أبو منصور الثعالبي – تح/ عبد الرزاق المهدي صـ ٢٢٩ – إحياء التراث العربي – ط/أولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .

(٥) المخصص – أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده – تح/ خليل إبراهم جفال ٣/ ٤٦١ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة/ الأولى ١٤١٧هـ /١٩٩٦م ، والمحكم والمحيط الأعظم – تح/عبد الحميد هنداوي (ع ص م) – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/أولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٦) المفردات في غريب القرآن صـ ٥٦٩.

(٧) التبيان في إعراب القرآن – أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري – تح/ علي محمد البجاوي ٧٠٠/٢ – عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(٨) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ٢٦٥/١ ، ٩٣/٢ – دار الكتب العلمية / بيروت – الطبعة/ الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

(٩) تاج العروس من جواهر القاموس – مرتضى الزَّبيدي – تح/ مجموعة من المحققين – مادة (ع ص م) – دار الهداية.

(١٠) الأبنية الدالة على اسم الفاعل في القران الكريم دراسة دلالية – صـ ٤٨

٤٦٥هـ) [١] ، ابن القيم (ت٧٥١هـ) [٢] ، والزركشي (ت ٧٩٤هـ) [٣] ، والشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) [٤] ، وابن عادل الدمشقي (ت ٧٧٥هـ) . [٥] وغيرهم .

وعلى هذا يكون معنى قوله: {لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّـهِ} أي لا مَعْصُومَ وكقوله: {عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}. أي مَرْضيّة. والعرب تقول: ماءٌ دَافِقٌ أي مدفوق . [٦]

أما القيمة الجمالية لورود المفردة القرآنية على صيغة اسم الفاعل بدلاً من اسم المفعول فتبدو في الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ؛ لأن الفاعل نحو عاصم يستدعي مفعولاً به أي معصوماً ؛ لتلازمهما فأيهما حصل حصل معه الآخر ، فاستغن بذكر أحدهما وهو الفاعل وهو الأبرز والأهم في السياق والتركيب معاً عن ذكر المفعول فقوله تعالى : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاّ مَنْ رَحِمَ﴾ على أصح الوجوه في الآية أنه تعالى لما ذكر العاصم استدعى معصوماً مفهوماً من السياق فكأنه قيل : لا معصوم اليوم من أمره إلا من رحمه ، فإنه لما قال لا عاصم اليوم من أمره الله بقي الذهن طالباً للمعصوم ، فكأنه قيل : فمن الذي يعصم ؟ فأجيب بأنه لا يعصم إلا من رحمه الله . ودل هذا اللفظ باختصاره وجلالته وفصاحته على نفي كل عاصم سواه ، وعلى نفي كل معصوم سوى من رحمه الله . فدل الاستثناء على أمرين على المعصوم من هو ، وعلى العاصم وهو ذو الرحمة ، وهذا من أبلغ الكلام وأفصحه وأوجزه ولا يلتفت إلى ما قيل في الآية بعد ذلك . [٧]

---

(١) لطائف الإشارات (تفسير القشيري) – عبد الكريم بن عبد الملك القشيري– تح/ إبراهيم البسيوني ١٣٨/٢ – الهيئة المصرية العامة للكتاب / مصر –الطبعة/ الثالثة .

(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٥.

(٤) فتح القدير – الشوكاني ٥/ ٥٠٨ – دار ابن كثير، دار الكلم الطيب / دمشق، بيروت – ط/ ط/ الأولى ١٤١٤هـ .

(٥) اللباب في علوم الكتاب ٢٠/ ٢٦٢

(٦) غريب الحديث للخطابي ٤٣٠/١ ، ولطائف الإشارات ٢/ ١٣٨، والبرهان في علوم القرآن ٢٨٥/٢

(٧) بدائع الفوائد ٣/ ٦٧ ، ٦٨ ، والمفردات في غريب القرآن صـ ٥٦٩ .

أما البلاغيون فعدوا وقوع إحدى هاتين الصيغتين (فاعل ومفعول) موقع الأخرى ضرباً من المجاز العقلي ؛ لان الفعل في (راضية) ونحوها أسند إلى غير فاعله الحقيقي ، أسند ما بني للمفعول إلى الفاعل ، وكأن العيشة والرضا أصبحا شيئا واحدا لا ينفصلان ، بخلاف التعبير بـ (عيشة مرضية) ، فإن الرضا يبدو منفصلاً عنها ومحدودا . [١] قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) : " ووصف عيشة بـ (راضية) مجاز عقلي ؛ لملابسة العيشة حالة صاحبها وهو العائش ملابسة الصفة لموصوفها ... والعيشة ليست راضية ولكنها لحسنها رضي صاحبها ، فوصفها (راضية) من إسناد الوصف الى غير ما هو له ، وهو من المبالغة ؛ لأنه يدل على شدة الرضى بسببها حتى سرى إليها ، ولذلك الاعتبار أرجع السكاكي ما يسمى بالمجاز العقلي إلى الاستعارة المكنية كما ذكر في عالم البيان " . [٢] وعد آخرون ما جاء على (فاعل) بمعنى (مفعول) ضرباً من المجاز المرسل لعلاقة الاشتقاق . [٣] [٣]

. وكذا قوله تعالى : (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ) والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والماء هو المني والدفق الصب ، يقال : دفقت الماء أي : صببته ، ويقال : (ماء دافق) أي : مدفوق مثل : (عيشة راضية) أي : مرضية . قال الفراء والأخفش أي : مصبوب في الرحم . قال الفراء : وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كقولهم : سر كاتم ، أي مكتوم ، وهم ناصب أي منصوب ، وليل نائم ....." [٤] . ففاعل الدفق ليس هو الماء ، وإنما هو الشخص الذي يوصف بالفعل أي الشخص الدافق ، والماء مدفوق ، وأصل التعبير ماء دافق صاحبه ، ولكن الدفق أسند إلى الماء وهو مفعول ، وذلك على سبيل التجوز في الإسناد ويفيد هذا التجوز أن الماء لسرعة اندفاعه كأنه دافق ، أي : كأنه يدفع بعضه

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن – عبد السلام أحمد الراغب صـ ٧٧ – فصلت للدراسات والترجمة والنشر/ حلب – ط/ أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٣٢ ، ١٣٣.
(٣) الأبنية الدالة على اسم الفاعل في القران الكريم دراسة دلالية – صـ ٤٨
(٤) معاني القرآن ٣/٢٥٥ .

بعضًا ، وتسمى هذه العلاقة المفعولية ، أي : أن الفاعل المجازي كان أصله مفعولا لهذا الفعل . [١] أو هو استعارة مكنية وتخييلية أو مصرحة يجعله دافقاً ؛ لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً أي يدفعه كما أشار له ابن عطية . وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة ؛ لأن الإنسان مخلوق منهما لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما . [٢]

وعلل البعض مجيء الدافق على صيغة الفاعل تعليلاً جميلاً فقال :" وعندي في ذلك وجه آخر، وهو أنّ هذا الماء لما كان في العاقبة يؤول إلى أن يخرج منه الإنسان المتصرف ، والقادر المميز، جاز أن يقوى أمره فيوصف ، بصفة الفاعل لا صفة المفعول تمييزا له عن غيره من المياه المهراقة ، والمائعات المدفوقة ، وهذا واضح لمن تأمّله " . [٣]

فثَمَّة دلائل وقيم علمية وإعجازية أثبتها مجيء الوصف للماء بأنه دافق على وزن (فاعل) بدلاً من مدفوق على وزن (مفعول) وهو الأصل في التعبير ؛ ذلك أن وصف الماء بأنه دافق يثبت الحياة والحركة فيه ، " فالماء الدافق تعبير وصفي للمني ؛ لأنه سائل ، تركيبه يماثل قطيرات الماء إلا أنه حي تتدفق تكويناته ، وتتحرك بنشاط ، ويصدق عليها الوصف بصيغة اسم الفاعل (دافق) لدلالته على الحركة الذاتية ، وجميع الأوصاف عدا وصف الماء بالدافق تتعلق بالإنسان ؛ لأن بدء خلقه هو محور الحديث والموضوع ، وقد وصف القرآن الماء المعبر عن المني بالدافق مما يعني أنه حي التكوين فاعل تتسابق مكوناته في نشاط " . [٤]

- **الإتيان بالمفردة على صيغة اسم المفعول مرادا بها اسم الفاعل** :

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني صـ ١٠٦ ، ١٠٧.
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٥/ ١٧٧.
(٣) الموسوعة القرآنية ، خصائص السور – جعفر شرف الدين – تح/ عبد العزيز بن عثمان التويجري السور ١١/ ١٩٣ – دار التقريب بين المذاهب الإسلامية / بيروت – ط/ الأولى ١٤٢٠هـ .
(٤) نشأة الذرية – د/ حسني حمدان الدسوقي حمامة – مقال على شبكة الألوكة.

ورد في القرآن الكريم استعمال بعض المفردات في صيغة اسم المفعول وكان نظم الكلام وتركيبه يتوقع منه أن تكون المفردة على صيغة اسم الفاعل وجعل منه بعضهم قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾[1] قال بعض العلماء : هو من إطلاق اسم المفعول وإرادة اسم الفاعل ؛ أي حجابًا ساترًا .... وهو أسلوب من أساليب اللغة العربية ، والبيانيون يسمون مثل ذلك الإطلاق (مجازًا عقلياً) .[2]

والتعبير عن (فاعل) في الآية الكريمة بـ (مفعول) له دلالات تضفي جمالاً على التعبير وتوسعاً في المعنى ؛ لأن مجيئه على مفعول يقتضي أن يطلب له تحديد لماهيته وكيفية لعمله وإلا كان تكرارا لمعنى الحجاب ، ويقال : إن العدول إلى صيغة مفعول فيه مبالغة في وصف ستره حجاب يستر أن يبصر ، فكيف يبصر المحتجب به.[3] والمعنى : أنه من شدة فاعليته في تحقيق وظيفته وصل إلى درجة أن يستر نفسه فيكون من باب أولى مانعا محكما لمن يحتجب به "[4]

وقال بعض أهل العلم : قوله : مستورًا على معناه الظاهر من كونه اسم مفعول ؛ لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه ، أو مستورًا به القارئ فلا يراه غيره ، واختار هذا أبو حيان في البحر، والعلم عند اللَّه تعالى .[5]

وعلى كل فلفظ (مستور) في وصف الحجاب سواء كان مرادا به الفاعل أم المفعول له قيمة تعبيرية لا تستفاد من وروده على غير هذه الصيغة أي : صيغة اسم المفعول؛ لما في هذه الصيغة (مستور) من " المبالغة في الستر والخفاء فإنهم لا يرونه ولا يرون ما وراءه ، أما إذا قيل : (ساترا) ففي هذه الحالة يرون الحجاب

---

(١) سورة الإسراء آية (٤٥) .
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين الشنقيطي ٣/ ١٦٠– دار الفكر / بيروت – ١٤١٥هـ /١٩٩٥مـ .
(٣) الكشاف ٦٢٧/٢
(٤) العدول عن صيغة اسم المفعول ودلالاته في التعبير القرآني – د/عبد الناصر هاشم الهيتي – مجلة جامعة الأنبار للغات والآداب العدد (٣) صـ ٢٨٤عام ٢٠١٠م .
(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٦٠/٣.

، ولا يرون ما وراءه ، فالمستور أبلغ من الساتر في الخفاء ، ويدل على عظم الحجاب وشدة تغطيته وستره مجيء الفعل (جعلنا) مسندا إليه سبحانه ، فهو الذي تولى هذا الأمر ، وقام به كما يدل على هذا المعنى إسناد الفعل إلى ضمير التعظيم ، وفي ذلك مزيد تعظيم لهذا الأمر، وبيان لشدة هذا الحجاب ، وغلظته ... وقد وصف الله الحجاب بلفظة (مستورا) ومن المعلوم أن الحجاب يكون ساترا لا مستورا ، فمجيء هذه اللفظة بهذه الصيغة مجاز عقلي علاقته الفاعلية ، وتكمن بلاغة هذا المجاز أن فيه دلالة على عظم هذا الحجاب ، وشدة ستره لما تحته، وبيان ذلك أن في وصف الحجاب أنه مستور مبالغة في حقيقته ، وأنه بلغ الغاية في الحجب والستر فكأنه صار محجوبا بغيره ، فهو حجاب فوق حجاب يستر كل واحد منهما الآخر، كما في المجاز دلالة على خفاء الحجاب عن أعين الكفار فلا يشعرون به ولا يحسون ، وهذا من أعظم ما يصابون به من العذاب ، وذلك أن عدم مشاهدتهم لهذا الحجاب ، وعدم شعورهم به يجعلهم يتمادون في غيهم ، ويستمرون في باطلهم إلى أن يقبض الله أرواحهم وهم معرضون عن كتابه ، غير مؤمنين به ، ولا مقبلين عليه " .[1]

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [2] أي : ساحرا فوضع المفعول موضع الفاعل" [3] وقوله تعالى : ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾[4] أي : وافرًا .

- **تغاير الصيغ بين اسم الفاعل وصيغ المبالغة** :

(١) العدول في التعبير القرآني وأثره في الدلالة – رسالة دكتوراة في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع أسيوط – الباحث/ رجب شحاته صـ ١٨٨ سنة ٢٠١٤م، نقلا عن : التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن دراسة بلاغية تحليلية – د/عبد العزيز العمّار صـ٤١ نشر/ جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم – ط/ أولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

(٢) سورة الإسراء من الآية : (١٠١) .

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٢/ ٤٠١.

(٤) سورة الإسراء آية : (٦٣) .

بتأمل المفردات القرآنية نجد أنها تأتي في السياق القرآني بصيغ اشتقاقية متعددة مع أن الأصل الاشتقاقي لها واحد ، فتأتي اسم فاعل مجردًا في موضع ، وصيغة مبالغة بأكثر من وزن مواضع أخرى ؛ وذلك لقيم دلالية وجمالية يقتضيها المقام ، وفي جميعها لا يحل إحداها مكان الأخرى مما يوحي بتفردها وإعجازها .

ـ ومن ذلك ورود (غافر ، وغفور ، وغفار في صفات الله – ﷻ –) والأصل الاشتقاقي لهذه الأوصاف الثلاثة واحد وهو مادة (غفر) . فقد ورد لفظ (غافر) في القرآن الكريم مرتين فقط وكان فيهما وصفاً لله – ﷻ – كما في قوله تعالى : ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ﴾ (١) ، وقوله : – ﷻ – : ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المَصِيرُ﴾ (٢)

على حين ورد لفظ (غفور) إحدى وتسعين مرة وفي جميعها كان صفة لله كما في قوله – ﷻ – : ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٥) ، ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ بِل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ (٦)،وقوله : ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. (٧)

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٥) .
(٢) سورة غافر الآيتان (٢ ، ٣).
(٣) سورة البقرة الآية (١٨٢).
(٤) سورة البقرة الآية (١٩٩).
(٥) سورة آل عمران الآية (١٥٥).
(٦) سورة الكهف الآية (٥٨) .
(٧) سورة فاطر الآية (٣٤) .

أما لفظ (الغفار) فقد ورد ست مرات وفي جميعها كان صفة لله كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [١] ، وقوله : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ﴾ [٣]

وقد وردت كل صيغة من هذا الصيغ الثلاث في سياقها الملائم لها ، فلفظ (غافر) اسم فاعل وهو يدل على الحدث ، والحدوث وفاعله . [٤] ويقصد بالحدث معنى المصدر ، وبالحدوث ما يقابل الثبوت فـ (قائم) – مثلاً – اسم فاعل يدل على القيام وهو الحدث ، وعلى الحدوث أي التغير ، فالقيام ليس ملازماً لصاحبه ويدل على ذات الفاعل ، أي : صاحب القيام . [٥] وعليه فصيغة (فاعل/غافر) دالة على الحدث ، أي : المغفرة ، والحدوث ، أي : حصولها ، والمحدث لذلك وفاعله وهو الله ﷻ . [٦]

وقد جاء لفظ (غافر) فيهما جمعا تارة ومفردا تارة ثانية ، والغالب في الأسماء الحسنى أن تأتي مفردة في فواصل الآيات كما في آية سورة الأعراف إلا أنه قد جاء جمعاً سالماً أو صحيحاً وليس مفرداً ؛ لأنها تتحدث عن قوم موسى – عليه السلام – وطلبه من ربه أن يغفر لهم ويرحمهم ؛ لذا ناسبه الجمع وكان الجمع صحيحاً أو سالماً ؛ لأنه كثيرًا ما يعبر به عن المفرد خلافاً لجموع التكسير التي لا تكون إلا للكثرة .

---

(١) سورة طه الآية (٣٤) .
(٢) سورة نوح الآية (١٠) .
(٣) سورة ص الآية (٦٦) .
(٤) التصريح بمضمون التوضيح في النحو – الشيخ/ خالد الأزهري ١١/٢ – دار الكتب العلمية العلمية / بيروت – ط/أولى ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م .
(٥) معاني الأبنية – د/ فاضل السامرائي ص٤١ – دار الرسالة/بيروت – ط/أولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
(٦) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة – د/ محمد محمد داوود صـ ٤٥٤ – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع .

أما سورة غافر فقد جاء لفظ (غافر) فيها في أول الآية مفرداً مضافاً إلى الذنب ، مما يجعل له نمطاً خاصاً يرتبط بجمال الصيغة نفسها وحسن وقعها وجرسها ، وهذا ما وضحه الشيخ / سيد قطب في قوله : " ومع أن الاسم يدل على المغفرة إلا أنه ورد في سورة يخيم عليها جو المعركة بين الحق والباطل ، ولعله مما يتفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص : (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) فكأنما هي مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع ، مستقرة المقاطع ، ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها ... وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري ، وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين " . (١)

أما (الغفور والغفار) فمن أبنية المبالغة في أسماء الله – ﷻ – (٢) ، إلا أن (فعول) من الأبنية التي تدل على من كثر منه الفعل (٣) ، أو من دام منه الفعل وهي بذلك تنبئ عن جودته وكماله وشموله فهو غفور بمعنى : أنه تام المغفرة والغفران كاملهما حتى يبلغ أقصى درجات المغفرة ، فكلمة (غفور) يراد بها إذن دوام المغفرة ، وكثرتها مع قدرة الله على ذلك ؛ لذا اقترن ورودها في جميع مواضعها في السياق القرآني بالرحمة في الأغلب ، وبالحلم والشكر والعزة أحياناً فالمغفرة ليست لمن تاب وأناب ، بل للأوابين المداومين على التوبة والاستغفار كما في قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ (٤) ، فناسبها (الغفور) وهو من الأبنية التي تدل على من كثر منه الفعل ، فهو دائم المغفرة للأوّابين المداومين على التوبة والاستغفار .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٦٥ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر – ابن الأثير – تح/ طاهر أحمد الزاوى ، ومحمود محمد الطناحي٣/ ٣٧٣ – المكتبة العلمية / بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(٣) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي – تح د/ عبد الحميد هنداوي ٣/ ٧٥ – المكتبة التوفيقية / مصر .

(٤) سورة الإسراء الآية : (٢٥) .

أما صيغة (فعَّال) فتدل على كثرة وقوع الفعل وتكراره مرة بعد مرة . فالغفار يشير إلى المبالغة في المغفرة ، لكن على سبيل التكرار ، أي: إنه ستار لذنوب عباده مرة بعد أخرى ، وهذا يعني : أن الغفار في أسمائه تعالى خاص بمن يذنب ويتوب ثم يعود لذنبه ثم يكرر التوبة . (١)

لذا ارتبط ورود هذه الصيغة بسياقات محددة فقل ورودها وإن كانت أكثر صيغ المبالغة في الاستعمال وفي إفادة معنى الكثرة ، فاستعملت في سياق الحديث عن التوبة كما في آية سورة طه ، وفي سياق الدعوة أو طلب الاستغفار من الذنوب المتكررة والالتجاء إلى من يملك الصفح والغفران من دون غيره كما في آية سورة نوح – عليه السلام – حيث تتحدث عن دعوة نوح لقومه فهو يدعو قومه إلى الله وهي دعوة متكررة في السورة ليلاً ونهاراً ، وسرًا وجهارًا ، ومن هنا كان التناغم بين اسمه (غَفَّارًا) وبين السياق ، فالكثرة تملأ جوانب السورة الكريمة ، بداية بالكثرة الكامنة من اسمه (غَفَّارًا) من حيث صيغة الكلمة ، وكذلك من حيث ختمها بالراء وهو حرف من صفاته التكرار، كل ذلك ناسب هذه الكثرة في الدعوة حيث قيل : (دعوت ، دعائي ، دعوتهم) ، والكثرة في وقت الدعة ليلا ونهارا ، وفي كيفيتها حيث كانت في السر والعلن ، ثم الكثرة في الرد حيث قال : (رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ، وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) ، والكثرة في ترغيبهم بالرزق ، فلقد جاء وافراً كثيراً ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ ، ولأجل كل ذلك كان اسمه (غفاراً) هو الأليق بالسياق ولم يقترن باسم آخر ؛ لأن السياق في شأن الكفار المعاندين ، ودعوة هؤلاء تحتاج إلي التأكيد علي المغفرة . (٢)

(١) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني صـ ٢٩٠ وما بعدها .
(٢) من أسماء الله الحسنى غافر ، غفار ، غفور مقاماتها ودلالاتها في القرآن الكريم د/ سعيد جمعة صـ ٢٧ بتصرف .

كما وردت المفردة (غفار) في سياق الحديث عن تخاصم أهل النار في الدنيا وما كانوا عليه من عناد وتكبر وتكرر ذلك منهم ، فالمقام خصام ومجادلة وكثرة ذنوب ، فناسبه الحديث بلفظ (غفار) الدال على تكرار المغفرة كما في آية سورة ص ، وفي سياق الحديث عن الآيات الكونية المعجزة أو الخارقة للعادة والتدليل من طريقها على قدرة الله العزيز الذي لا يغلب ؛ لذا اقترن فيها لفظ (الغفار) بلفظ العزيز كما في آية سورة الزمر .

ومما هو من قبيل ذلك أيضاً عالم وعليم وعلام ، وقاهر وقهار ، في صفات الله – ﷻ – يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : " والقرآن نفس كلام اللَّه . فمن تدبر ما ورد في "باب أسماء اللَّه تعالى وصفاته " وإن دلالة ذلك في بعض المواضع على ذات اللَّه . أو بعض صفات ذاته لا يوجب أن يكون ذلك هو مدلول اللفظ حيث ورد حتى يكون ذلك طَرْدًا للمثبت ونقضا للنافي ؛ بل ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرآن والدلالات فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقاً ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب وطَرْد الدليل ونقضه فهو نافع في كل علم خبري أو إنشائي وفي كل استدلال أو معارضة من الكتاب والسنة وفي سائر أدلة الخلق " . [١]

وقبل أن نختم أبنية أسماء الصفات نود أن نشير إلى أن إطلاق وصف المبالغة على صفات الله تعالى ليس كما قد يتبادر إلى الذهن من أن الوصف مبالغ فيه ، على معنى أن فيه تزيداً ؛ وإنما تعني المبالغة كثرة اتصاف الموصوف بتلك الصفة ، فعليم أبلغ من عالم ، وقدير أبلغ من قادر ، ومليك أبلغ من مالك ؛ لما فيه من كثرة اتصافه بالعلم والقدرة والملك ، حتى أصبحت صفة مطلقة فيه ، أما العالم والقادر والمالك فهي صفات متعلقة بفعله تعالى في غيره ، فالوصف متعلق بالفعل ، وقد يكون الفعل مرة أو عدة مرات ، وليس فيه الإطلاق الذي في فعيل .

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ١٨.

وقد يكون معنى المبالغة بالنسبة إلى تكثير التعلُّق لا بالنسبة إلى تكثير الوصف . (١)

وقد سئل أبو على الفارسي : هل تدخل المبالغة في صفات الله تعالي ؟ فأجاب بالمنع ؛ لأن الله تعالي ذم من نسب إليه الإناث ، لما فيه من النقص فلا يجوز إطلاق اللفظ المشعر بذلك . وعلى هذا فإن صفات الله تعالي التي جاءت على صيغة المبالغة ، والتي جاءت علي غيرها سواء في الدلالة على ذاته سبحانه أو اتصافه بها . فهو سبحانه (غافر الذنب) – (فاستعمل مع المفرد وهو الذنب ولم يستعمل مع الجمع أي : أذنب ذنباً واحداً ولم يتكرر منه ، ولم يكن كثير الذنوب) – وإذا نظرنا إلى عدد الذنوب المغفورة أو إلى عدد من غفر لهم من الخلق قلنا : إنه (غفار) – (وذلك لمن يتكرر من الذنب والتوبة) – ، وإذا نظرنا إلى عظم الذنوب وأحجامها قلنا : إنه (غفور) . زد على ذلك أن القول بأن فيها مبالغة يجعلها شبيهة بصفات البشر... فالفروق في الصيغ يلحظ فيها المبالغة بالنسبة للناس ، وفرق بين صفات البشر، وصفات رب البشر .... فالفروق بين الصيغ إذاً إنما هي من حيث تعلقها بالمذنبين وبالذنوب ، وليست من حيث تعلقها بالله تعالي وفرق بين الأمرين كبير . وقيل : إن صفات الله التي جاءت على صيغة المبالغة كلها مجاز ؛ لأنها موضوعة للمبالغة ، ولا مبالغة فيها ؛ لأن المبالغة أن تثبت للشيء أكثر مما هو له ، والمعلوم أن صفاته سبحانه متناهية في الكمال ولا يمكن المبالغة فيها . كما أن المبالغة تكون في صفات تقبل الزيادة والنقصان ، وصفات الله تعالي منزهة عن ذلك . والتحقيق أن صيغ المبالغة قسمان :

أحدهما : ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل .

والثاني : بحسب تعدد المفعولات . ولا شك أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة ؛ إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين . وعلى هذا القسم تنزل صفاته تعالي ويرتفع الإشكال .

(١) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني صـ ٢٩١ .

فالمبالغة مصروفة إلى مجموع الأفراد التي دل السياق عليها فهي بالنسبة إلى كثرة المتعلق لا الوصف . أضف إلى ذلك أن المجاز قائم على الادعاء وأسماء الله تعالي قائمة على الحقيقة . (١)

وجعل بعضهم المبالغة والزيادة في صفات الخالق من باب تعدد المتعلقات والمفعولات ، وليس من باب تفاوت الصفة فإن " المراد الأكثرية في المتعلقات – (أي : كثرة من يقع عليهم فعل الحق – ﷻ – من رحمة أو مغفرة ، فالقول بأن الله – ﷻ – رحيم تنبع مبالغته والدلالة على الكثرة لا من الزيادة في وصف الحق بالرحمة وإنما من كثرة من يرحمهم ، وكذا غفور وباقي صفات المبالغة ، وليس المقصود الزيادة في صفات الله ﷻ) – لا في الصفة نفسها ، وهذا إذا كانت صفة ذات ، وإن كانت صفة فعل فلا إشكال ". (٢)

ولا أدل على صحة ذلك من أنه قد وقع العليم والعالم وهما من صفات الله – ﷻ – في سياق واحد ، لكن اقترن كل منهما بما يكشف عن معناه ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣) لما كرر صفة العلم غاير في البنية ؛ إذ العلم بذات الصدور ومكنونها أدق وأخفى من علم غيب السموات والأرض ؛ لذلك تجد صفة (العليم) تأتي في سياق القرآن الكريم للدلالة على الإحاطة بعلم الأشياء ما دق منها وما ظهر ، قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٤) فعالم وعليم من صفات الله الذاتية . أما (العلاَّم) فمن صفات الله الفعلية يراد منها التكثير ، مبالغة اسم الفاعل للدلالة على التكثير ، فهو بمعنى اسم الفاعل من حيث إنه صفة فعلية تدل على علمه تعالى بالأشياء ، لكن يراد منه التكثير ، ويدلنا على ذلك أن (عالم وعلاَّم) جاءا في علم الغيب ، لكنهما يفترقان في أن الغيب جاء مفرداً مع (عالم) ، وجاء مجموعاً مع (علاَّم) ، فدل ذلك

(١) من أسماء الله الحسنى غافر ، غفار ، غفور مقاماتها ودلالاتها في القرآن الكريم صـ ٧ ، ٨ .
(٢) روح المعاني ٦٢/١ .
(٣) سورة فاطر الآية (٣٨) .
(٤) سورة البقرة من الآية (٢٣١) .

على الكثرة والتكثير ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ [١] .... [٢]

يقول أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) : " وقد وصف تعالى نفسه بـ عَالِمِ وَعَلِيمٍ وَعَلَّامٍ ، وهذان للمبالغة . وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في علَّامة ولا يجوز وصفه به تعالى . والمبالغة بأحد أمرين : إما بالنسبة لتكرير وقوع الوصف . وإما بالنسبة إلى تكثير المتعلق لا تكثير الوصف . ومن هذا الثاني المبالغة في صفات اللَّه تعالى ؛ لأن علمه تعالى واحد لا تكثير فيه ، فلما تعلق علمه تعالى بالجميع كُلِّيِّه وَجُزْئِيِّه ، دقيقه وجليله ، معدومه وموجوده ، وصف نفسه تعالى بالصفة التي دلت على المبالغة ، وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة العلم ؛ لأنه تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي وغير ذلك من الإماتة والإحياء ، وكل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء"[٣] .

وقيل : إن أسماء الله – تعالي – وإن كانت قد جاءت على صيغ تعارف عليها أهل اللغة أنها للمبالغة مثل : (فعال ، وفعول) إلا أن أسماء الله تعالي وصفاته لا مبالغة فيها ... ولعل السبب في وضعها على هذه الصيغ أن العرب – وقد نزل القرآن بلغتهم – لما ترسخ في عقولهم أن هذه الصيغ بلغت المنتهي في الدلالة ، وأريد ترسيخ معنى أن صفات الله تعالي بالغة هذا الحد ، وضعت هذه الصفات على تلك الصيغ لترتسم في قلوب المسلمين مدى ما وصلت إليه هذا الصفات ، وأنها لا زياد عليها . [٤]

ومما يدل على صحة ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ * ذُو العَرْشِ المَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [٥] فوصف نفسه بثلاث صفات لازمة وثابتة لا زيادة

(١) سورة المائدة من الآية (١٠٩) .
(٢) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني صـ ٢٨٥ .
(٣) البحر المحيط ١/ ٢٢٠ .
(٤) من أسماء الله الحسنى غافر ، غفار ، غفور مقاماتها ودلالاتها في القرآن الكريم صـ ٩.
(٥) سورة البروج الآيات (١٤ ، ١٥ ، ١٦) .

فيها ولا نقصان فقال (غفور ، ودود ، مجيد) بزنة فعول وفعيل ، فلما انتقل إلى صفة الإرادة وهي صفة متفاوتة تحتمل القلة والكثرة وصف نفسه بكونه فعالاً لما يريد ، فالإرادة فعل كثير عند الله ، وكذا قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [1] فالخلود في النار فعل يتعلق بمشيئة الله وإرادته فسبحانه يخلد فيها من يشاء ويخرج منها من يشاء وفق إرادته ؛ لذا قال في الموضعين فعال ولم يقل فعول .

فالصفات الإلهية أكثرها صفات ثابتة لا تتغير زيادة ونقصانا ؛ لأنها صفات حقيقة وليست مبالغاً فيها ؛ ولأنها صفات ذات في أكثرها ، فغفور مثلا أكثر ورودا في القرآن الكريم من غفار ، وعالم وعليم أكثر من علام . وذلك يختلف عن المبالغة في صفات البشر فهي عندهم متحققة من الزيادة في الفعل والتفاوت فيه ، فصفات البشر متفاوتة متقلبة غير ثابتة في كل المواقف ، فهي في أكثرها تتغير بالزيادة والنقصان أو القلة والكثرة ؛ لأنها صفات فعل وليست صفات ذات ؛ لذا كثر فيها ورودها على وزن (فعال) نحو : (هماز ، مشاء ، أواه ، خوان ، أفاك ، أكال ، حمال ، مناع ، قوام ، تواب ، حلاف ، صبار ، سماع ، كفار ، كذاب ، سحار ، أواب ، ختار...) . وقلت الصفات الذاتية عن سابقتها في صفات البشر نحو : (منوعا ، جزوعا ، عجولا ، هلوعا ، ضعيفا ، ظلوم ، جهول ، كفور، يئوس ، أثيم) . فالكفار مثلاً في وصف الإنسان لمن يزاول الكفر ويجدده وقتاً بعد وقت ، أما الكفور فهو الذي دام منه الكفر بحيث أصبح كأنه مخلوق من الكفر .. ؛ ولذا جاء وصف الإنسان بالكفور إحدى عشرة مرة من الآيات على معنى كأنه مخلوق من هذا الوصف كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [2] ، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [3] ، ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [4]. أما وصفه بالكفار ففي سياق ذكر النعم المتعددة

(١) سورة هود الآيتان (١٠٦ ، ١٠٧) .
(٢) سورة هود من الآية : (٩) .
(٣) سورة الحج من الآية : (٦٦) .
(٤) سورة الشورى من الآية : (٤٨) .

التي لا تحصى والمتجددة والتي تقتضي شكرا متجددا لكل نعمة ؛ لذا وصف بالكفار في قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّـهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (١) ، للدلالة على أنه يكفر بالنعم بصورة مستمرة ، وفعال تدل على الاستمرار والتجدد والمزاولة وقتاً بعد وقت ، وقد وصف الإنسان بكونه كفارا خمس مرات ، وفي جميعها اقترن الوصف بآخر ولم يرد منفردا نحو : ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كُفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٢) ، ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٣) ، ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٤) ، ﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ (٥) .... ". (٦)

ومما يدل على إبداع اللفظ والمعنى في باب الصفات هو تأمل الوصفين (سميع و سَمَّاع) في السياق القرآني . فقد ورد لفظ (السميع) في القرآن الكريم سبعًا وأربعين مرة ، وجاء وصفاً لله – ﷻ – في خمس وأربعين مرة منها ، وقد اقترن فيها بوصف العليم كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّـهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٨) ، أو بوصف البصير كما في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّـهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (٩) ، عدا ثلاثة مواضع أضيف في اثنين منها إلى لفظ الدعاء وهو مفعوله ، وهما قوله تعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١٠)،وقوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّـهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

(١) سورة إبراهيم من الآية : (٣٤) .
(٢) سورة البقرة من الآية : (٢٧٦) .
(٣) سورة الزمر من الآية : (٣) .
(٤) سورة ق من الآية : (٢٤) .
(٥) سورة نوح من الآية : (٢٧) .
(٦) من أسرار البيان القرآني صـ ٣٧ ، ٣٩ بتصرف .
(٧) سورة البقرة من الآية : (١٨١) .
(٨) سورة البقرة من الآية : (٢٤٤) .
(٩) سورة النساء من الآية : (١٣٤) .
(١٠) سورة آل عمران الآية : (٣٨) .

[١]،واقترن في الثالث بوصف القريب كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[٢].على حين جاء في الموضعين الآخرين وصفاً للإنسان وذلك في قوله تعالى:﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً الإنسان﴾ [٣] ، وقوله : ﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [٤]

أما لفظ (سَمَّاع) فقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات فقط وفيها جاء وصفاً خاصاً بالإنسان كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾ [٥] ، وقوله تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ . [٦]
ويلاحظ في هذه المواضع الأربعة أنه قد استعمل في الذم ولم يستعمل في المدح ، كما جاء في ثلاثتها متعدياً إلى مفعوله باللام ، خلافاً لـ (السميع) الذي جاء في سياق المدح خاصة . فوصف المولى – ﷻ – بالصفة الثابتة ، ووصف الإنسان بالصفة المتغيرة (سَمَّاع) كثيراً وقد لازمت الذم ، وبالثابتة (سميع) قليلاً وإن كانت في سياق المدح .

(١) سورة إبراهيم الآية : (٣٩) .
(٢) سورة سبأ الآية : (٥٠) .
(٣) سورة الإنسان الآية : (٢) .
(٤) سورة هود الآية : (٢٤) .
(٥) سورة المائدة الآيتان : (٤١ ، ٤٢) .
(٦) سورة التوبة الآية : (٤٧) .

كذا جاء وصف الشيطان بالصفة الذاتية نظراً لشدة تمكن هذه الصفات المذمومة فيه وعدم مفارقته لها فغدت أصلاً في تكوينه ؛ لذا صارت ثابتة فيه ولا تتغير ، ومستمرة لا تتجدد ، حيث وصف في القرآن الكريم بخمس صفات لازمة هي : الشيطان الرجيم كما في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١) ، وأنه كفور بربه لا كافرا ولا كفارا كما هو الحال في كفر النعم حيث وصف الإنسان ، بل الكفر صفة ثابتة مستمرة وملازمة له كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾(٢) وبأنه مَرِيد كما في قوله تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً * لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ (٣) ، وبأنه دائماً ما يخذل الإنسان فيصور له القبيح حسناً والحسن قبيحاً ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم إلا غرورا كما في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِياً مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ (٥) . وبأنه عدو مبين أي ظاهر العداوة للإنسان كما في قال تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٦). أما وصفه بالصفات المتغيرة فقد جاء نادرا حيث جاء وصفه على هذا البناء – (فعال) – في ثلاثة مواضع ؛ لكثرة إغوائه للإنسان وتكرر ذلك منه بصفة مطردة نحو : (خناس بناء ، غواص) . وفي كل يجب ربط الصيغة بسياق الآية التي وجدت فيها .

ـ ومن بديع ذلك – أيضاً– اختلاف صيغ الوصف في الآية الواحدة كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (٧) فجمع في الآية بين (الشاكر) و(الكفور) ولم يجمع بين (الشاكر) و(الكافر) ، أو بين (الشكور)

(١) سورة النحل الآية (٩٨) .
(٢) سورة الإسراء الآية (٢٧) .
(٣) سورة النساء الآية (١١٧) .
(٤) سورة النساء الآيتان (١١٩ ، ١٢٠) .
(٥) سورة الفرقان الآية (٢٩) .
(٦) سورة يوسف الآية (٥) .
(٧) سورة الإنسان الآية : (٣) .

و(الكفور) ، فلا بد إذن من اختلاف في المعنى أوجبه الاختلاف في اللفظ فـ المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ . فالشاكر الموحد ، والكفور الجاحد ؛ لأن الشكر الإقرار بالمنعم ، ورأس الكفران جحوده ، ويقال : شاكر النعمة وكفورها . قال الراغب : الكفور يقال فى كافر النعمة وكافر الدين جميعاً .[١] ويمكن أن يوجه الاختلاف في استخدام اسم الفاعل هنا (شاكراً) ؛ لأن الإنسان إذا كان مؤمناً فسيتجدد منه الشكر في كل وقت بعكس الكفر فإنه واحد لا يحتاج إلى تجديد ، لأن مذهب الكوفيين في اسم الفاعل أنه فعل دائماً ، وجعلوه قسيم الماضي والمستقبل .[٢] وإنما سُميَ اسم الفاعل بالفعل الدائم عند الكوفيين مراعاة لإيحاءاته الدلالية التي يفرضها سياقه التوظيفي ، فهو دال على وصف الفاعل بالحدث .

وهذه الدلالة علي المعنى الصرفي بصفة عامة ، والوظيفة الصرفية المنوطة به كذلك على سبيل الحدوث والتجدد في حالة دلالته على الحال أو الاستقبال . أما إذا دلَّ على الماضي فهو مثل الأسماء يكون مضافاً كما في قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ، بإضافة اسم الفاعل (ذائقة) إلى (الموت) . وتعليل ذلك أن الزمن الماضي قد تم حدوثه ووقع فأصبح أمراً مؤكداً وثابتاً كثبات دلالة الاسمية في الأسماء.[٣] أما البصريون فذهبوا إلى أنه اسم دال على الحدث والحدوث وفاعله .[٤]

وقيل : جُمِعَ بينهما على هذه الصورة نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر ؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدّى فانتفت عنه المبالغة ، ولم تنتف عن الكفر المبالغة فَقَلَّ شكرُه لكثرة النعم عليه ، وكثُر كفره وإن قلَّ مع الإحسان إليه .[٥]

---

(١) روح البيان – إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي ١٠/ ٢٦١ – دار الفكر / بيروت.
(٢) شرح الكافية الشافية – ابن مالك الطائي – تح/ عبد المنعم أحمد هريدي ٢/ ١٠٢٨– الناشر/ جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة – الطبعة/ الأولى .
(٣) جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم صـ ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
(٤) التصريح بمضمون التوضيح في النحو ١١/٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٢٢ .

وقد سأل الصاحبُ بن عباد القاضيَ عبد الجبار المعتزلي عن قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ كيف غاير بين الصفتين وجعل المبالغة؟ فأجاب أن نِعَم الله تعالى على عباده كثيرة وكل شكرٍ يأتي في مقابلها قليل ، وكل كفر يأتي في مقابلتها عظيم ، فجاء (شاكر) بلفظ (فاعل) وجاء (كفور) بلفظ (فعول) على درجة المبالغة .. فتهلل وجه الصاحب . [1] وقيل : عبر في جانب النعمة بصيغة اسم الفاعل (شاكر) للدلالة على قلة من يؤديها ، وعبّر في جانب كفران النعم وجحودها بصيغة المبالغة من مادة (كَفَرَ) وهي (كَفُور) للدلالة على كثرة هذه الفئة . فناسب بالقليل القليل ، وبالكثير المبالغة . وهذا هو جوهر التعبير في صيغتي اسم الفاعل والمبالغة .[2]

فمقابلة الشاكر بالكفور؛ إشارة إلى غلبة الكفران على الإنسان . [3] أو لأن الإنسان لا يستطيع أن يبالغ في الشكر، ولكن عادته أن يبالغ في الكفر عياذًا بالله أو الإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما ، وإنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط ، والشكور قليل منهم ؛ ولذا لم يقل : إما شكورا وإما كفورا ، وإما شاكرا وإما كافرا . والحاصل أن الشاكر والكفور كنايتان عن المثاب والمعاقب ، ولما لم يكن مجرد الكفران مستلزما للمواخذة لم يصح أن يجعل كناية عنها ، بخلاف مجرد الشكر فإنه ملزوم الإثابة بمقتضى وعد الكريم فأدير أمر الإثابة على مطلق الشكر لا على المبالغة فيه كما أدير المؤاخذة على المبالغة في الكفران لا على أصله ، وكل ذلك

(١) من أسماء الله الحسنى غافر ، غفار ، غفور مقاماتها ودلالاتها في القرآن الكريم ص٧ ، ٨ .

(٢) جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم صـ ٢١١.

(٣) غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني – أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، شهاب الدين الشافعيّ – من أول سورة النجم إلى آخر سورة الناس – تح / محمد مصطفي كوكصو (رسالة دكتوراه صـ ٢٩٥ – الناشر: جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية / تركيا ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

بمقتضى سعة رحمة الله وسبقها على غضبه . [١] وقيل : جاء بصيغة (فعول) في (كفور) لمراعاة الفواصل . [٢]

. ومن بديع ذلك – أيضاً – الاختلاف في صيغ الوصف بين آيتين كـ توظيف القرآن لصيغة اسم الفاعل (شَاكِر) في وصف نبي الله إبراهيم – عليه السلام – في قوله تعالى :﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٣] ، وتوظيفه لصيغة المبالغة (شَكُور) في وصف نبي الله نوح – عليه السلام – في قوله تعالى : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [٤] ، والصيغتان من أصل اشتقاقي واحد هو مادة (شَ كَ رَ) . فلم تمّت هذه المخالفة التعبيرية بالصيغ الاشتقاقية في سياق وصف اثنين من أنبياء الله لهما من المنزلة العليا ما لهما ، وهما من أولى العزم من الرسل ؟

يمكننا بيان جمالية المفردة القرآنية بصيغتيها في الآيتين في ضوء التفصيلات اللغوية للوقوف على السياق العدولي فيهما من ناحية تغاير الصيغ الاشتقاقية :

فالمناظرة بين (شاكر) و(شكور) ، رغم أن الأصل الاشتقاقي لهما واحد وهو مادة (ش ك ر) ؛ إذ يلاحظ في آية سورة النحل أن اسم الفاعل (شاكر) جاء في سياق تعداد صفات الخليل إبراهيم – عليه السلام – والثناء عليه من الله – ﷻ – ، فهو (أمة وحْده ، وقانت ، وحنيف ، وغير مشرك ، وشاكر) ، وكلها صفات مدح . يقول البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) في تعليقه على التعبير بصيغة (شاكر) في هذه الآية : " ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة ؟! " . [٥]

---

(١) روح البيان ١٠/ ٢٦١.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٩/ ٧١ ، وروح البيان ١٠/ ٢٦١ .
(٣) سورة النحل الآيتان : (١٢٠ ، ١٢١) .
(٤) سورة الإسراء آية : (٣) .
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي – تح/ محمد عبد الرحمن المرعشلي ٣/ ٢٤٤ – دار إحياء التراث العربي/ بيروت – ط/ الأولى ١٤١٨هـ .

فالتعبير بهذه الصيغة أفاد الشكر على القليل ، وهذا المعنى مستفاد من التعبير بكلمة (أنْعُمه) التي هي جمع قلة . فالوصف باسم الفاعل – هنا – وصف حال لا وصف ذات ، أي وصف حال خليل الرحمن – عليه السلام – حال تلقيه النعم ، لا حاله على الدوام . وإلا فإن صفة (الشكر) متأصلة فيه ، لكن السياق هنا حتم التعبير باسم الفاعل (شاكر) مناسبة لما بعده من التعبير بجمع القلة ، فناسب القليل بالقليل .

أما التعبير بصيغة المبالغة (شَكُور) في آية سورة الإسراء في وصف نبي الله نوح – عليه السلام – فذلك في سياق إيضاح حال هذا النبي الكريم مع المولى – عز وجل – يقول ابن جزي (ت ٧٤١هـ) : " شكور أي كثير الشكر ، كان يحمد الله على كل حال".[١] ويقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : " ورد في الأثر عن السلف أن نوحاً – عليه السلام – كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمي عبداً شكوراً " .[٢] فهذا الوصف بصيغة المبالغة وصف ذات لا وصف حال .

إن الفيصل هنا في التفريق بين التعبير بكل صيغة إنما معقده السياق الذي وردت فيه كل صيغة ، وما يقتضيه هذا السياق من وصل دلالي وجمالي بالسوابق واللواحق على الصيغة . فالثابت أن كل الأنبياء أهل شكر على نعم الله ، وكلهم (شَكُور) . ولذا نرى المولى – عز وجل – يعبر عن فضيلة الشكر وعلو مقامها بتوظيف صيغة المبالغة في قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾ [٣] ، فهذا حال العباد في مقام الشكر ، قليل فقط هو المتصف بصيغة المبالغة . [٤]

ومما سبق يمكننا القول : إن الأصل في صيغة المبالغة أنها اسم فاعل حُوِّلَ إلى صيغة أخرى هي صيغة المبالغة بقصد التأكيد والمبالغة في وصف القيام بالفعل

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل – أبوالقاسم بن جزي الكلبي الغرناطي – تح د/ عبد الله الخالدي ٤٤١/١ – شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم / بيروت – ط/ الأولى ١٤١٦هـ .

(٢) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير القرشي – تح/ محمد حسين شمس الدين ٥ / ٤٣ – دار الكتب العلمية / بيروت – ط /أولى ١٤١٩هـ .

(٣) سورة سبأ آية : (١٣) .

(٤) جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم صـ 211 .

. فصيغة المبالغة تدل على كثرة المعنى كماً وكيفاً . كما أن اسم الفاعل يأتي في سياق عفوي لا يستدعي توكيداً خلافاً لصيغ المبالغة فإنها ترد في السياق الذي يستدعي توكيدًا . [١]

ولم يقف أبو هلال العسكري عند الاقتصار على معنى المبالغة لهذه الصيغ كما فعل غيره بل جعل لكل صيغة منها معنى مستقلاً عن أختها إذ يقول : " إذا كان الرجل قوياً على الفعل قيل : (فَعُول) مثل صَبُور ، وشَكُور . وإذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل : (فَعّال) مثل عَلاَّم ، وصَبَّار . وإذا كان عادة له قيل : (مِفْعَال) مثل مِعْوَان ، ومِعْطَاء . ومن لا يتحقق المعاني يظن أن ذلك كله يُفيد المبالغة فقط وليس الأمر كذلك ، بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها " . [٢]

وهذا التحليل الدقيق للعسكري يوقفنا على معنى صيغة (فَعُول) التي تقتضي القدرة على الفعل ، والقوة في أدائه كما في المفردات (غفور ، شكور ، كفور ، ظلوم ، زهوق) ، وعلى معنى صيغة (فعال) التي تقتضي تكرار الفعل وقتاً بعد آخر كما في المفردات (غفار ، قهار ، علام ، كفار ، ظلام) فوق إفادتهما معنى المبالغة في الفعل.

. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [٣] يعني : أمر عجيب أن يكون محمد رسولاً ، وهو من نسبهم. [٤] وقوله تعالى : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾ [٥] أي : بليغ في العجب . [٦]

(١) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد صـ ١٥٠ .
(٢) الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري – تح/ محمد إبراهيم سليم صـ ١٢ ، ١٣ – دار العلم والثقافة / القاهرة ، مصر .
(٣) سورة ق الآية : (٢) .
(٤) بحر العلوم – السمرقندي ٣/ ٣٣٢
(٥) سورة ص الآية : (٥) .
(٦) الكشاف ٤/ ٧٣ .

يقول ابن قتيبة : " عُجاب وعجيب واحد مثل طـوال وطويـل ، وعُراض وعريض ، وكبار وكبير " . [١] وكذا قال البغوي (ت ٥١٠ هـ) . [٢]

وقد فرق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال : " بينهما فرق . أما العجيب فالعجب ، وأما العُجابُ فالذي جاوز حدّ العجب، مثل الطويل والطُّوال ". [٣] وقال الجَوْهَرِيُّ (ت ٣٩٣هـ) : " العَجِيب الأمر الذي يتعجب منـه ، وكذلك العُجَابُ بالضم ، والْعُجَّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأُعْجُوبة " . [٤] و(عُجَّابٌ) لغة أزد شَنُوءَةَ . [٥] كذا قال قال ابن جني : " ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حالـه . وذلك فُعَال في معنى فعيل ، نحو طُوال ، فهو أبلغ معنى من طويل ، وعُراض ؛ فإنه أبلغ معنى من عريض . وكذلك خفاف من خفيف ، وقلال من قليل وسُراع من سريع. فَفُعَال – لعمري – وإن كانت أخت فعيل في باب الصفة فإن فعيلا أخص بالباب من فعال ، ألا تراه أشد انقيادًا منه ، تقول : جميل ولا تقول : جمال ، وبطيء ، ولا تقول : بطاء ، وشديد ولا تقول : شداد " .[٦] ووافقهم الزمخشري . [٧]

فقد عدل التعبير القرآني من (عجيب) إلى (عُجاب) مع أن القول صادر من متكلم واحد وهم الكافرون لاختلاف السياق في القولين ، ففي سورة (ق) السياق كان سياق دعوة عامة إلى دين الله وتوحيده وأنه مرسل من عند الله لإبلاغهم هذه الدعوة وتركهم عبادة الأصنام ، فذكر أنهم عجبوا من أن يجيء منذرٌ منهم فقالوا : (هذا شيء عجيب) ، أما في سورة (ص) فالسياق كان خاصاً بدعوة سادة قريش

(١) أدب الكاتب – ابن قتيبة الدينوري – تح/ محمد الدالي صـ ٥٤٧ – مؤسسة الرسالة .
(٢) معالم التنزيل – للبغوي ٥٤/٤ .
(٣) كتاب العين (باب العين والجيم والباء معهما) ٢٣٥/١ .
(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية – الجوهري تح/ أحمد عبد الغفور عطار – (ع ج ب) – – دار العلم للملايين / بيروت –الطبعة/ الرابعة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.
(٥) النكت والعيون – الماوردي ٥/ ٧٨ ، والجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٥٠ .
(٦) الخصائص ٣/ ٢٧٠ .
(٧) الكشاف ٤/ ٧٣ .

إلى عبادة الله وهو ما أثار غضبهم واستنكارهم فتعجبوا وبالغوا في تعجبهم حيث فوجئوا بما لم يتوقعوه ، ذهبوا ليردوه عن دينه وينهوه عن سب آلهتهم فإذا به يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر " فحين فرح المؤمنون بإسلام عمر بن الخطاب – – غضب المشركون منه . وذهبوا في خمسة عشر نفرا إلى النبي – ﷺ – ومعهم عمه أبو طالب ، فقال له أبو طالب : يا ابن أخي إن قومك يشكونك ، ويزعمون أنك تشتم آلهتهم ، وتقول وتقول ، وتفعل وتفعل . فقال : " يا عم إني إنما أريد منهم كلمة واحدة ، تدين لهم بها العرب ، وَتُؤَدِي إليهم بها العرب والعجم الجزية " . فقالوا : وما هي فقال النبي – ﷺ – : (لا إله إلا الله) فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ، ويقولون : جعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عُجابٌ وانطلق الملأ منهم . يعني : الأشراف من قريش أن امشوا . يعني : امكثوا ، واصبروا يعني : اثبتوا على آلهتكم " .[1] فكان العجب أكبر مما هو عليه في سورة (ق) . قال ابن عاشور: " عُجابٌ : وصف الشيء الذي يتعجب منه كثيرًا لأن وزن (فُعَال) بضم أوله يدل على تمكن الوصف مثل : طُوَال ، بمعنى المفرط في الطُّول ، وكُرَامٌ بمعنى الكثير الْكَرَم ، فهو أبلغ من كريمٍ ، وقد ابتدأوا الإنكار بأول أصل من أصول كفرهم فإن أصول كفرهم ثلاثة : الإشراك ، وتكذيب الرسول – ﷺ – وإنكار البعث ، والجزاء في الآخرة " . [2]

فهناك إذن تدرج في العُجْب بحسب قوته ، ففي الآية في سورة (ق) ذكر أنهم عجبوا من أن يجيء منذرٌ منهم فقالوا : (هذا شيء عجيب) ، أما في سورة (ص) فقد كان العجب عند المشركين أكبر وأكبر ، إذ كيف يمكن أن يؤمنوا بوحدانية الإله ونفي الشرك وهم قوم عريقون فيه ؟ وهم قد استسهلوا أن يحملوا السيف ويعلنوا الحرب الطويلة على أن يقرّوا بهذه الكلمة ، فالقتل عندهم أيسر من النطق بكلمة التوحيد ولذا كان العجب عندهم أكبر وأكبر فجاء بأن واللام وعدل من (عجيب) إلى

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٩٣/٥ – مؤسسة الرسالة – ط/أولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م ، وتاريخ نزول القرآن – محمد رأفت سعيد صـ ٢٥٨ – دار الوفاء / المنصورة، مصر – ط/ أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ٢١٠ .

(عُجاب) وذلك أنّ (فعال) أبلغ من (فعيل) عند العرب فـ (طوال) أبلغ من (طويل) ... فانظر كيف عدل من صيغة إلى صيغة بحسب ما يقتضيه المقام . [١]

والفيصل في التفريق بين التعبير بكل صيغة إنما معقده السياق الذي وردت فيه كل صيغة ، وما يقتضيه هذا السياق من وصل دلالي وجمالي بالسوابق واللواحق على الصيغة على النحو الذي ذكرنا .

ب – تغاير المفردة القرآنية بين الإفراد تارة والجمع تارة أخرى :

غالباً لا نجد فرقاً في الدلالة بين اللفظ في حالتي الإفراد والجمع وهذا في غير القرآن الكريم ، لكن في مفردات القرآن الكريم المعجزة هناك تحول كبير في دلالة اللفظ وتباين في معناه في الإفراد وفي الجمع ، فقد تأتي اللفظة القرآنية في موضع بصيغة الإفراد ، ويعدل عنها في موضع آخر إلى صيغة الجمع ولكل حالة معناها المستقل تبعاً للسياق الذي وردت فيه . وهذا من وسائل القرآن الكريم في اختيار ألفاظه وانتقاء مفرداته ، وما ذاك إلا لتوابع دلالية وجمالية موظفة في هذه السياقات .

ومن ذلك أنه استعمل لفظ (الريح) تارة ولفظ (الرياح) تارة ثانية فقد ورد لفظ (الريح) بالإفراد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة ، وجاء مجموعا عشر مرات . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [٣] في حين قال : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [٤]. وقال: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٥] . وقال : ﴿ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ

(١) التعبير القرآني صـ ٣٧ .
(٢) سورة الأعراف آية : (٥٧).
(٣) سورة فاطر آية (٩) .
(٤) سورة آل عمران آية : (١١٧) .
(٥) سورة الأحقاف آية : (٢٤) .

صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [١] . وغير ذلك ..

وإذا تتبعنا لفظتي الريح والرياح في كلام البشر فإننا لا نجد فرقًا بينهما في المعنى. والفرق الوحيد أن الأولى مفردة والثانية جاءت بصيغة الجمع ، فلم غاير القرآن الكريم بين صيغتين للمفردة الواحدة مفردة تارة وجمعا تارة ثانية ؟

نقول : لما كانت الرياح تأتي تارة بالرحمة ، وتارة بالعذاب ، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه ، وتارة تجمعه ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه [٢] . اختلف ورود هذا اللفظ في القرآن الكريم باختلاف ما يدل عليه جمعا أو إفرادا كل منهما في سياق محدد مما يدلنا على أن للقرآن الكريم خصوصيات في استعمال الألفاظ ، إذ اختص كثيرا من الألفاظ باستعمالات خاصة به مما يدل على القصد الواضح في التعبير. فقد تتبع العلماء مواضع إفراد الريح وجمعها في القرآن الكريم فوجدوا أنه قد استعمل (الرياح) بالجمع حيث وردت في الخير والرحمة ، واستعمل (الريح) بالإفراد في الشر والعقوبة ما لم يلحق اللفظ المفرد وصف يخرجه عن هذا الاستعمال كما في قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ . [٣] فالقرآن الكريم فرق بينهما في المعنى من خلال السياق الذي وردت فيه كل لفظة منهما . يقول ابن القيم موضحاً سر جمعها في مواضع من القرآن ، وإفرادها في مواضع أخرى : " فحيث كانت في سياق الرحمة أتت مجموعة ، وحيث وقعت في سياق العذاب أتت مفردة ، وسر ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أنشأ ما يقابلها مما يكسر سورتها ، ويصدم وحدتها فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحياة والنبات ، فكل ريح منها في مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها ، فكانت الرحمة رياحا ، وأما في العذاب فتأتي من وجه واحد لا يقوم لها شيء ، ولا يعارضها غيرها حتى تنتهي إلى حيث أمرت لا يرد سورتها ولا يكسر شرتها فتمتثل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت إليه ، ولهذا وصف

(١) سورة الحاقة آية : (٦) .
(٢) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير ١/ ٣٤٥.
(٣) سورة يونس من الآية (٢٢) .

– ﷺ – الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم فقال : ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ﴾ وهي التي تلفح ولا خير فيها ، والتي تعقم ما مرت به .... " . [١] كذا قال الراغب الأصفهاني [٢] فعمما الحكم أو الاستعمال ، وهذا ما أؤيده ما لم يوصف المفرد (الريح) بوصف يخرجه عن هذا الاستعمال . أو أنها أرسلت إلى عظيم . والدليل على ذلك ما ذكره ابن عطية من قوله : " الريح إذا أفردت فعرفها أن تستعمل في العذاب والمكروه ، لكنها لا يحسن في البحر إلا أن تكون ريحاً واحدة متصلة لا نشرا ، فقيدت المفردة بالطيب فخرجت عن ذلك العرف وبرع المعنى ".[٣] وكذا قوله : " الرياح جمع ريح وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة ، مفردة مع العذاب إلا في يونس في قوله : ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهذا أغلب وقوعها في الكلام. وفي الحديث : كان رسول الله – ﷺ – إذا هبت الريح يقول : " اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا "[٤]. وقد علل ذلك الفقيه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية (ت ٧٤١هـ) – ﷺ – : وذلك ؛ لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد ، وريح الرحمة لينة متقطعة فلذلك هي رياح ، وهو معنى نشر ، وأفردت مع الفلك ؛ لأن ريح إجراء السفن ، إنما هي واحدة متصلة ، ثم وصفت بالطيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب " . [٥]

وبتتبع المواضع التي ذكرت فيها الريح في القرآن الكريم ، نجدها قد وردت عشر مرات مجموعة ، وهي جميعاً في مواطن الرحمة والخير ، وجاءت مفردة في تسع عشرة مرة ، إذ وردت في ثلاث عشرة منها في سياق العذاب بلا خلاف وموضعان في الريح التي تسير الفلك ، وقد تعين اللفظ في أحدهما لمعنى الرحمة بإجماع المفسرين كما في آية يونس السابقة ، أما الثاني فقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٢٥ وما بعدها .
(٢) المفردات في غريب القرآن صـ ٢٠٦ .
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٣ .
(٤) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري – بدر الدين العينى – (باب من تمطر في المطر حتى يتحادر على لحيته) حديث رقم (٧٢) – ٥٥/٧ – دار إحياء التراث العربي / بيروت .
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٢٣٣ .

يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ [١] فقد اختلف العلماء في كون الريح هنا رحمة كما ذكر ابن المنير [٢] ، أو عذابا كما ذكر آخرون من أن إسكان الريح يؤدي إلى تعطيل حركة السفن وهو ضرب من العذاب يؤدي إلى الإضرار باقتصاد الناس وتوقف حركة تجارتهم وتنقلاتهم ... فكما كان إرسالها مفردة دمارا وهلاكا في مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ﴾ [٣] كان إسكانها مع حاجة السفن إليها في حركتها ووصولها إلى غاياتها عذاباً كذلك . [٤]

وفي مواضع ثلاثة ذكرت مرسلة إلى مختص عظيم فكانت أشبه بالرحمة كتلك التي تسير الفلك وذلك في الامتنان على سليمان – عليه السلام – بتسخير الريح كما في قوله : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [٥] وقوله : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [٦] وقوله : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [٧] فهي في هذه المواضع الثلاثة شبيهة بالريح التي تسير السفن إذ هي وسيلة انتقال سريعة خارقة أجراها الله لنبيه سليمان – عليه السلام – ، وكما أن الريح إذا تعددت مهابها كانت وبالا على السفن وراكبيها وإعاقة حركتها ، فكذلك أرادها الله ريحا واحدة متصلة تبلغ بسليمان – عليه السلام – إلى حيث يريد من أرض الله ، وهذا هو سر إفرادها . [٨]

يقول أحد الباحثين المحدثين : " هذا التعليل للإفراد والجمع – (أي في استعمال لفظ الريح والرياح) – غاية في الدقة والروعة ، فلما كانت ريح العذاب شديدة مدمرة لا تهدأ ولا تنقطع كانت ريحا واحدة ، بخلاف رياح الرحمة التي تثور فتحمل

(١) سورة الشورى آية (٣٣) .
(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال – ابن المنير الاسكندري ٣ / ٤٧١ .
(٣) سورة الذاريات آية (٤١) .
(٤) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن – د/ محمد الأمين الخضري صـ ٢٠٩ – مطبعة الحسين الإسلامية – ط/ الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
(٥) سورة الأنبياء آية (٨١) .
(٦) سورة سبأ آية (١٢) .
(٧) سورة ص آية (٣٦) .
(٨) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ٢١٠ .

معها السحاب الماطر ، وتهدأ لتسمح بسقوط الأمطار ، فكان تعدد هبوبها بمثابة رياح متعددة تحمل الخير والرحمة ، وتسقي الأرض والأنعام والناس . وجاء تعليله لإفراد الريح المسيرة للفلك في آية يونس رائعا كذلك حيث كان وصفها بالطيبة أشبه بالاحتراس من اختلاط الفهم وتخيل أن تكون ريحا مهلكة ، كما أن تعدد الرياح المسيرة للفلك سبب من الأسباب التي تعوق حركتها ، وربما يؤدي إلى هلاكها . (١)

. وهناك ألفاظ اجتمعت بصيغتي الإفراد والجمع في سياق واحد لتدل كل واحدة على معنى إضافي يوضح المعنى ويقويه كما في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . (٢)

فجاءت لفظة (سبيل) في بداية الآية بصيغة الجمع (سبل) لأنها تدل على الباطل ، وللباطل طرق متشعبة ومتعددة . وفي نهاية الآية عدل عنها إلى صيغة الإفراد ؛ لأن طريق الحق واحد ، وطرق الضلال والشر متعددة فناسب ذلك الإتيان بصيغة الجمع لطرق الشر ، والعدول عنها إلى صيغة الإفراد لبيان أن طريق الحق واحد . (٣)

ج - تباين صيغ الجموع :

وردت بعض المفردات القرآنية مجموعة بصور مختلفة كأن ترد جمع قلة تارة وجمع كثرة تارة ثانية ، فلا بد أن يكون هناك سبب لتخصيص الآية بالجمع الذي وردت عليه دون الآخر لأن القرآن لا يستعمل صيغة جمع في أي مكانٍ اعتباطاً وإنما يُراعى في ذلك السياق ، فالأوزان المختلفة لها معانٍ مختلفة . فالعربية تخص صيغة جمع بمفرد معين في الدلالة على مادة من المواد ، كما تخص صيغة جمع آخر بالمفرد نفسه في الدلالة على مادة أخرى .

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ٢٠٩ .
(٢) سورة الأنعام الآية : (١٥٣) .
(٣) العدول الصرفي في القرآن الكريم – د/ ماجدة صلاح حسن – مجلة جامعة السابع من إبريل إبريل – العدد (١١) – صـ ٢٨ – ٢٠٠٩م.

ـ ومن ذلك ما اختص به القرآن الكريم في استعمال العيون والأعين . فلم يستعمل العيون إلا لعيون الماء. وقد وردت كلمة (العيون) في القرآن الكريم في عشرة مواطن كلها بمعنى عيون الماء من مثل قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١) وقوله : ﴿فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ﴾ (٢) ، قال تعالى : ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ (٣) في حين جمع العين الباصرة على (أعين) مثل قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾ (٤) ، وقوله : ﴿سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ (٦).

وهذا عند ابن الأثير يرجع فيه إلى الاستحسان لا إلى جائز الوضع اللغوي . (٧) في حين جعل د/ فاضل السامرائي ذلك الاستعمال من خصائص القرآن الكريم حيث لا يرى في مثل هذا شيئاً خصت به العربية صيغة الجمع ، وإنما هو مما خصّ به القرآن الكريم قسماً من الجموع في الاستعمال فقد خصَّ استعمال الحمير مثلاً حيث وردت بالأهلية من الحُمُر قال تعالى : ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ (٨) ، وخصَّ الحُمُر بالوحشية قال تعالى : ﴿كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرّت من قسورة﴾ (٩) ؛ ولعل السبب في هذا الاستخدام أن سياق آيات المدثر كان مسوقاً لتصوير فزعٍ ورعبٍ هؤلاء فاقتضى أن يشبههم بالوحشي من الحمر لما عُرف عنه من شدة الحذر والفزع الدائم في حين كان سياق آيات النحل مسوقاً في مقام التنعيم

(١) الحجر : (٤٥) .
(٢) المرسلات : (٤١) .
(٣) القمر : (١٢) .
(٤) الكهف : (١٠١) .
(٥) المائدة : (٨٣) .
(٦) الأعراف : (١١٦) .
(٧) المثل السائر ٢٨٢/١.
(٨) سورة النحل : (٨) .
(٩) سورة المدثر : (٥٠ – ٥١) .

والتفضل لذلك ناسب السياق مجيء التعبير بالحمار الأهلي؛ لأن الإخبار عن الركوب والحمل وهو محلهما " . [١]

ـــ ومن بديع ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [٣] [٣] فجمع النعمة في آية النحل جمع قلة على (أنعم) وجمعها في آية لقمان جمع كثرة على (نعم) ، وذلك أن نعم الله لا تحصى ، فلا يطيق الإنسان شكرها جميعاً ، ولكن قد يشكر قسماً منها ، ولذلك لما ذكر إبراهيم وأثنى عليه قال : إنه شاكر لأنعمه ، ولم يقل : لنعمه ؛ لأن شكر النعم ليس في مقدور أحد ، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف يشكرها ؟ قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٤]. وأما الآية الثانية فهي في مقام تعداد نعمه وفضله على الناس فقال : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فذكرها بزنة جمع الكثرة . [٥]

نخلص من هذا : إلى أن القصد من إيراد هذه الجزئيات المتعددة والمتنوعة هو البحث عن الأثر الجمالي والدلالي الذي يحدثه تنوع صيغ المفردة القرآنية في السياق القرآني ودور هذه الصيغ في بيان جمالية الانتقاء القرآني للمفردات .

(١) معاني الأبنية صـ ١٣١ ، ١٣٢ .
(٢) النحل الآيتان : (١٢٠ ، ١٢١) .
(٣) لقمان الآية : (٢٠) .
(٤) النحل (١٨) .
(٥) التعبير القرآني صـ ٤٠ ، ٤١ .

المبحث الرابع

صور أخرى من إبداع اللفظ وإبداع الدلالة في المفردة القرآنية

تحدثنا في المبحثين السابقين عن لونين مهمين من ألوان إبداع المفردة القرآنية وجماليتها وهما : إبداع المفردة القرآنية وجماليتها من حيث بنيتها أو نسيجها الصوتي ، وإبداع المفردة وجماليتها في موقعها من حيث صيغتها الصرفية التي وردت عليها في سياق دون آخر مشابهاً له كان أو غير مشابه ، وهما جزء لا يتجزأ من إبداع اللفظ والمعنى في القرآن الكريم إلا أنهما قد اتسما بطبيعة بنيوية خاصة ؛ لذا أفردناهما بحديث مستقل ، وهنا نتحدث عن العديد من الألوان الأخرى لإبداع المفردة القرآنية وجماليتها يرتبط فيها اللفظ بالمعنى والسياق ارتباطاً وثيقاً يظهر خصائص المفردة القرآنية وما تتميز به في سياقها دون غيرها من بقية مفردات اللغة .

فالجديد في لغة القرآن أنه من كل شأن يتناوله من شئون القول يتخيَّر له أشرف المواد – (أي : الألفاظ) – ، وأمسها رحمًا بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به ؛ بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقراره المكين ... لا ترى سابقًا جاء بمثاله ، ولا لاحقًا طُبِع على غراره . (١)

فلكلام الله روح تميزه ليست في كلام الناس ، وبسبب هذه الروح كان هذا القرآن يسري في نفس أي إنسان سريان الروح في الجسم ، والضوء في الفضاء والماء في الشجر. ويتميز القرآن عن كل كلام بأنك لا ترى فيه أثرًا للسأم ، ولا تجد فيه ما يشير إلى الملل ، ولذلك لا تستطيع أن تفاضل بين عبارة وأخرى منه ، فهو كنهر من النور كل حرف منه لمعة نورانية ساطعة ، بينما كلام الخلق تظهر فيه

(١) دراسات في علوم القرآن – محمد بكر إسماعيل صـ ٣٣١ ، ٣٣٢ – دار المنار – ط/ الثانية ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

بأحدهم جواد البيان فترى في كلامه الإسفاف الذي لا يقارن ببليغ كلامه ... عجز العرب عن الطعن في القرآن أو معارضته ، وقد ترصد العرب للقرآن وأمعنوا النظر في حروفه حرفاً حرفاً علهم يجدون ما يأملون من مطعن ، ولكن وجدوا كل جملة تبهرهم بتركيب كلماتها وتناسق حروفها وتآخي معانيها وجمال تصويرها وسعة مدلولها بحيث لا تبقى خاطرة تخطر بالنفس إلا وقد استوفتها في الدلالة . (١)

فألفاظ القرآن الكريم كما ذكر الراغب الأصفهاني هي : " لب كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ، وما عداها الألفاظ المتفرعات والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنويب بالإضافة إلى أطايب الثمرة ، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة " . (٢)

ويقول البارزي (ت ٧٣٨هـ) : " اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظٍ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحدٍ من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ، ولابد من استحضار معاني الجمل ، أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذَّر على البشر في أكثر الأحوال ، وذلك عتيد حاصل في علم الله تعالى ؛ فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح ، والمليح والأملح ، ولذلك أمثلة منها قوله تعالى : ﴿وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (٣) لو قال مكانه : وثمر الجنتين قريب ، لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين ، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها ، ومن جهة مؤاخاة الفواصل ... " (٤)

---

(١) الاعجاز اللغوي والبياني في القرآن صـ ٤٦٨ نقلا عن : ألفاظ القرآن ومعانيه من أسرار الإعجاز البياني .

(٢) المفردات في غريب القرآن صـ ٦ .

(٣) سورة الرحمن من الآية (٥٤) .

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٤/٢٥.

فالقرآن الكريم كان دقيقاً في اختيار ألفاظه وانتقاء كلماته ، فإذا اختار اللفظ معرفة كان ذلك لسبب ، وإذا انتقاه نكرة كان ذلك لغرض ، كذلك إذا كان اللفظ مفرداً كان ذلك لمقتضى يطلبه ، وإذا كان مجموعاً كان لحال يناسبه ، وقد يختار الكلمة ويهمل مرادفها ، وقد يفضل كلمة على أخرى والكلمتان ظاهراً بمعنى واحد وربما يتخطى في التعبير المحسن اللفظي والجمال البديعي – على قدره وحسنه – لغرض أسمى وهو الحسن المعنوي وكل ذلك لغرض يرمي إليه في التعبير ، وهكذا دائماً لكل مقام مقال في التعبير القرآني " . (١)

لكن اللفظ وحده لا قيمة له ما لم يكن تحته كبير معنى وهذا ما وضحه الإمام عبدالقاهر الجرجاني (ت ٣٧٠هـ) في قوله : " فصل في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة ... ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائرِ ما يجري مجراها مما يُفرَد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزيَّة إليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسنِ الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ، ثم تبرُّجها في صورة هي أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتُطيل رُغمَ الحاسد . ولا جهةَ لاستعمال هذه الخصال غير أن يُؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتمُّ له وأَحرى بأن يُكسبه نُبلا ويُظهر فيه مزيَّة " . (٢) وكذا قوله : " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل " . (٣)

وقد تحدث الإمام الخطابي (ت ٣٨٨هـ) حديثاً جميلاً يكشف عن هذه الظاهرة الفريدة – (إبداع اللفظ والمعنى) – التي تطرد في القرآن الكريم من أوله إلى آخره

---

(١) من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) – د/ عبدالفتاح لاشين صـ ١٥ ، ١٦ – دار المريخ/ الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

(٢) دلائل الإعجاز– عبدالقاهر الجرجاني – تح د/ محمد التنجي صـ ٥٢ – دار الكتاب العربي/ بيروت – ط/أولى ١٩٩٥م.

(٣) السابق صـ ٥٦ .

فقال: " إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه – (اللفظ الحامل ، والمعنى الذي به قائم ، والرباط الذي لهما ناظم) – في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تآلفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها ... واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني " . (١)

فالله – ﷻ – اصطفى من ألفاظ اللغة العربية أفصحها وأيسرها على اللسان وأسهلها على الأفهام ، وأمتعها للآذان ، وأقواها تأثيرًا على القلوب ، وأوفاها تأدية للمعاني ، ثم ركَّبَها تركيبًا محكم البنيان ، لا يدانيه في نسجه كلام البشر من قريب ولا من بعيد ، وذلك لما يكمن في ألفاظه من الإيحاءات التي تعبر إلى خلجات النفس ، وتقتحم شغاف القلوب . وما يكون في تركيبه من ألفة عجيبة ، وانسجام وثيق بين هذه الألفاظ ، مهما تقاربت مخارج حروفها أو تباعدت . فقد جاء رصف المباني وفق رصف المعاني ، فالتقى البحران على أمر قد قُدِر ، فاستساغته جميع القبائل على اختلاف لهجاتها قراءة وسماعًا . واستسلمت لهذا النسق الفريد ، والترتيب العجيب أساطين البلاغة في كل زمان ومكان ، واستمدت منه النفوس المؤمنة روحها وريحانها ، فلم يشبع من دراسته العلماء ، ولم يمل تلاوته أحد من الأتقياء . (٢)

وقد ربط الإمام عبد القاهر ذلك كله بالسياق وبالنظم يتضح ذلك من قوله : " وهل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسنَ مُلائمة معناها لمعنى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها وهل قالوا : لفظة متمكَنة ومقبولة وفي خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسنِ الاتفاقِ بين هذه وتلك من جهة معناهما وبالقلقِ والنُبَّو عن سوء التلاؤم .

(١) بيان إعجاز القرآن صـ ٢٧.
(٢) دراسات في علوم القران – محمد بكر إسماعيل صـ ٣٢٨.

وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفقاً للتالية في مُؤدَّاها .... فقد اتَّضح إذاً اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة . وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريحِ اللفظ . ومما يشهد لذلك أنك تَرى الكلمة تروقُك وتُؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتُوحشك في موضع آخر" . (١)

وفي نص الخطابي – أيضاً – ما يشير إلى دور النظم في ذلك الإبداع . وما ذكره عبد القاهر والخطابي هو ما عنيناه بإبداع اللفظ وإبداع الدلالة . ويتحقق ذلك الإبداع في صور عدة أهمها :

أولا : تفرد المفردة القرآنية وخصوصيتها في موضعها بالمعنى المراد :

ذكرنا من قبل أن للمفرد القرآنية خصائص تتميز بها عما عداها ، ومنها الدقة في الانتقاء ، فالمفردات القرآنية منتقاة ومختارة لفظاً ودلالة وجرساً ، وأن هذه الدقة في الانتقاء تعود إلى اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى ؛ لتؤدي المناسبة التي ترد في النظم.

فللفظ القرآني في سياقه خصوصية معنوية فلا يحل لفظ آخر محله في النظم أو التركيب وإن تشابه أو اتحدت القصة ، فالسياق يختلف باختلاف أسباب النزول ، فالسياق هو المهيمن على اختيار الألفاظ والأساليب ، وهو نفسه المهيمن على توجيه هذا التشابه اللفظي ، سواء كان سياق الآية ، أو سياق المقطع ، أو سياق السورة . وهذا من خواص القرآن الكريم في انتقاء مفرداته ومظهر من مظاهر إعجازه اللغوي .

وعلى هذا النهج سار الخطابي في قوله : " ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل

(١) دلائل الإعجاز صـ ٥٣ ، ٥٤ .

المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة يحسبها أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، والنعت والصفة .... والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك ؛ لأن لكل لفظة منها خاصية معنوية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها ... " [1]

ودلل الخطابي علي جمالية المفردة القرآنية وإبداعها من حيث دقة اختيارها في موضعها من دون غيرها ، وتفردها بإفادة معنى لا يستفاد من غيرها فقال مبيناً العلة في اختيار كلمة (أكل) مسنداً إلى الذئب على لسان إخوة يوسف – عليه السلام – والأصل أن يكون التعبير (فافترسه الذئب) ؛ لأن الذئب كسائر السباع من الحيوانات التي توصف بالافتراس وليس الأكل ؛ ولأن الأكل عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع ، بخلاف الافتراس ، فالافتراس القتل بقصد الأكل ولكن ليس الأكل التام الذي لا يبقي منه شيئاً . وقد رد الخطابي علة من ادعى عدم فصاحة هذه المفردة في موضعها وذلك في قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [2] فقال : " فأما قوله تعالى (فأكله الذئب) فإن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا أتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلا ولا عظما ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق من يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلم يصح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل ؛ على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع ..." . [3]
وكذا جاء التعبير بالأكل مسندا إلى الذئب دون الافتراس على لسان يعقوب – عليه السلام – ولسان بنيه في الآيتين السابقتين على هذه الآية : ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن

(١) بيان إعجاز القرآن صـ ٢٩ .
(٢) سورة يوسف الآية : (١٧) .
(٣) بيان إعجاز القرآن صـ ٤١ .

تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ (١)

وهذا ما أكده الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) حيث يقول في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (٢) : وجه الوقوف على شرف الكلام : أن تتأمل موقع قوله : (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) وهل تقع في الحسن موقع قوله : " ليأخذوه " كلمة ؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة ؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة ؟ لو وضع موضع ذلك " ليقتلوه " ، أو " ليرجموه " . أو " لينفوه " ، أو " ليطردوه " أو " ليهلكوه " ، أو " ليذلوه " ، ونحو هذا ، ما كان ذلك بديعاً ولا بارعاً ، ولا عجيباً ولا بالغاً . فانقد موضع هذه الكلمة ، وتعلم بها ما تذهب إليه من تخير الكلام ، [وانتقاء] الألفاظ ، والاهتداء للمعاني ..... هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظاً ومعنى ، ولطيف هذه الحكاية ، وتلاؤم هذا الكلام ، وتشاكل هذا النظام ؟ فكيف يهتدي إلى وضع هذه المعاني بشريّ ، وإلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسي ؟ " . (٣)

فالقرآن الكريم ينتقي ألفاظه ويختار كلماته ؛ لما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها ، فيستخدم كل كلمة بدقة بحيث تؤدي معناها المراد في إحكام شديد ، يكاد السامع يؤمن بأن هذا المكان خلقت له هذه الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تؤدي المعنى الذي أفادته أختها . وعلى هذا فقضية الترادف في التعبير القرآني غير واقعة ، إذ أن كل كلمة لا بد أن تؤدي معنى جديدًا وتبعث في النفس إيحاءات خاصة . (٤) يقول الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ) : " إذا أورد الحكيم تقدست أسماؤه آية على لفظة مخصوصة ، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن وقد غير

(١) سورة يوسف الآيتان : (١٣ ، ١٤) .
(٢) سورة غافر الآيتان : (٥ ، ٦) .
(٣) إعجاز القرآن – الباقلاني صـ ١٩٧ ، ١٩٨.
(٤) من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة صـ ٦٢.

فيها لفظة كما كانت عليه في الأولى ، فلا بد من حكمة هناك تطلب ، فإذا أدركتموها فقد ظفرتم ، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك ، بل جهلتم " . [١]

فكلام الإسكافي قطعي في منع ترادف المفردات في القرآن الكريم إذا ما روعي فيها مقام ورودها في السياق . فلا توجد كلمة في القرآن تساوي الكلمة الأخرى بجميع معانيها ؛ بل يكون تفسيرها تقريباً لها ، بدليل اختلاف المفسرين في تحديد المعنى ، بل إن المفسر الواحد قد يذكر للمفردة أكثمن وجه ، وبدليل عدم الترجمة الحرفية للقرآن الكريم واقتصارها على ترجمة التفسير أو المعنى . [٢]

والحق أن خصوصية الانتقاء القرآني تدعونا إلى الإقرار بتفرد كل كلمة بمعناها الخاص ، مستندين إلى السياق القرآني في تحديد هذا المعنى ، وإلى النظم ومواضع السبك ولس إلى اللفظة منعزلة عن أخواتها في التركيب . وبهذا قال عبد القاهر الجرجاني [٣] وابن الأثير . [٤]

فالألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ولا تكشف عن إبداعها وجمالها ورقتها أو عن قبحها وعدم ملاءمتها إلا بعد أن توضع في سياق

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل – الخطيب الإسكافي – تح د/ محمد مصطفى آيدين ١١/١ – جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها(٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة – ط/أولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٢) وإلى هذا – (أي قلة الترادف أي التطابق التام بين المفردات في المعنى بحيث تحل كلمة محل أختها في أي سياق في اللغة ، ومنع أو عدم وجوده في القرآن الكريم) – ذهب أكثر المحققين من العلماء مثل : ابن الأعرابي ، وثعلب ، وابن درستويه في شرح الفصيح ، وابن فارس في الصاحبي ، وابن تيمية في مقدمة في أصول التفسير ، وأبي هلال العسكري في الفروق اللغوية ، والراغب الأصفهاني في المفردات ، والزركشي في البرهان ، والسيوطي في معترك الأقران ونور الدين المنجد الذي خصص كتابا لإثبات الفروق اللغوية بين الألفاظ التي قال بعض العلماء بترادفها في القرآن الكريم ، وغيرهم ، خلافا لمن أثبته كالرماني ، وابن السكيت ، وابن خالويه ، وأبي على الفارسي ، وابن سيدة ، وابن جني ، والفيروز أبادي وغيرهم .

(٣) دلائل الإعجاز صـ ٥٢ .

(٤) المثل السائر ١/ ١٥٠ .

معين يضفي عليها الصفات التي تكسبها جماليتها . إذ يناط بكل مفردة في سياقها أداء الأغراض والدلالات التي قصدت من وراء توظيفها في هذا السياق ، والتي لا تقوم بها غيرها لو وضعت موضعها . فالسياق كما ذكر فندريس : " هو الذي يعين قيمة الكلمة ، إذ أن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً ، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الرغم من المعاني المتفرعة التي في وسعها أن تدل عليها . والسياق أيضا هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها . وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية " . (١)

ويعد تشابه النظم في السياق القرآني هو الميدان الرئيس للكشف عن جمالية وخصوصية المفردة القرآنية وتفردها بمعنى لا يؤديه غيرها وإن رادفتها في ظن بعض العلماء . وهذا من إبداع المفردة وإبداع الدلالة . يقول د/ فاضل السامرائي : " في القرآن آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة ، كأن يكون الاختلاف في حرف أو كلمة ، أو في نحو ذلك . وإذا تأمّلت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمرًا مقصودًا في كل جزئيّة من جزئيّاته قائمًا على أعلى درجات الفنّ والبلاغة والإعجاز . وكلّما تأمّلت في ذلك ازددت عجبًا وانكشف لك سرّ مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير العظيم " . (٢)

والحقيقة أنه ليس في القرآن الكريم اختلاف في القصة ، وإنما يختلف التعبير عن مشهد من مشاهد القصة بين سورة وسورة ؛ لأن كل سورة تأتي بجزئية من القصة نفسها تتناسب وسياق الآيات في السورة التي تذكر فيها . فالمشاهد كلها وقعت للقصة نفسها ولا تختلف في الفحوى والحقيقة . يقول الإمام البقاعي – رحمه الله – : " إن كل سورة أعيدت فيها قصة ؛ فلمعنى ادُّعي في تلك السورة ، استدل عليه بتلك القصة ، غير المعنى الذي سيقت له في السورة السابقة ، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض ، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم ،

(١) اللغة – فندريس صـ ٢٢٨.
(٢) التعبير القرآني صـ ١٧٣.

والإيجاز والتطويل ، مع أنها لا يخالف شيء منها وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز " [1] .

ولكي ندرك هذا الوجه من وجوه الإعجاز بعين اليقين ، نستعرض فيما يلي بعض الآيات التي وردت فيها ألفاظ معينة ، ثم نُتبع كل آية منها بآية أخرى تدل على سياق شبيه ، إلا أنه جاء فيها لفظ يختلف عما جاء في سابقتها مع أنه يقاربه في المعنى :

* ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] . وقوله : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [3].

فالنظم في الآيتين متشابه إلا في كلمتين هما : كلمة (انفجرت) في آية سورة البقرة ، وكلمة (انبجست) في آية سورة الأعراف ، وكلتاهما في وصف حال الحجر حين أُمر موسى - عليه السلام - بضربه ليسقي قومه . يقول الراغب (ت ٥٠٢هـ) في بيان أصل كل مفردة منهما في الاستعمال : " يقال : بَجَسَ الماء وانبجس : انفجر . لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع ، ولذاك قال : (فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً) ، وقال في موضع آخر : (فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً) فاستعمل حيث ضاق المخرج

(١) الإمام البقاعي جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم – محمود توفيق سعد صـ ١٤٣ – مكتبة وهبة – ط/ أولى ١٤٢٤هـ . نقلا عن نظم الدرر ١/ ١٤ ولم أعثر عليه في نظم الدرر .

(٢) سورة البقرة الآية : (٦٠) .

(٣) سورة الأعراف الآية : (١٦٠) .

اللفظان". [١] فالراغب يلمح بحسّه كيف أن انبجاس الماء مرحلة سابقة على انفجاره ، إذ إن الانبجاس لما يخرج من شيء ضيق ، والانفجار لما يخرج من شيء واسع ، فالانبجاس يتوالى ويتوالى حتى يتسع مخرج الماء فينفجر ، فكأن الانبجاس هو باكورة الانفجار . أو كأنه يبتدئ بقلة أي ينبجس ، ثم يتسع حتى يصير إلى الكثرة أي : ينفجر . وكذا قال الرازي الذي ذكر أن أبا عمرو بن العلاء هو من نقل عنه هذا الفرق . [٢] وقيل : التعبير بهذا تارة وبالأخرى ثانية باعتبار أول الخروج وما انتهى إليه . [٣] وكلا الأمرين – (الانفجار ، والانبجاس) – قد حدث فعلاً ، فالماء انفجرت أولاً بالماء الكثير ، ثم قلّ الماء بمعاصي بني إسرائيل . يقول د/ صلاح الدين الخالدي : " من اللطيف القول : إن المرحلتين المتتابعتين مرتبتان في القرآن حسب ترتيب نزول القرآن. فالمرحلة الأولى التي انبجست فيها اثنتا عشرة عيناً أخبرت عنها آية سورة الأعراف المكية ، والمرحلة الثانية التي انفجرت فيها العيون أخبرت عنها آية سورة البقرة المدنية " [٤].

كذا اختلف السياق والنظم في الآيتين ، فسياق الآيات في سورة البقرة يذكر الثناء والمدح والتفضّل على بني إسرائيل فذكر أموراً كثيرة في مقام التفضيل والتكرّم والتفضّل : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [٥] وقوله : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [٦] . وذلك بخلاف السياق في سورة الأعراف حيث كان السياق في ذمّ بني إسرائيل فذكر ذنوبهم ومعاصيهم والمقام مقام تقريع وتأنيب لبني إسرائيل ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ

(١) المفردات في غريب القرآن صـ ١٠٨.
(٢) مفاتيح الغيب – الرازي ١٥/ ٣٨٨ ، ٣/ ٥٢٩.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٨٣/٥.
(٤) جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم صـ ١٩٠ .
(٥) سورة البقرة الآيتان : (٤٩ ، ٥٠) .
(٦) سورة البقرة الآية : (٤٧) .

يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [1] والفاء هنا تفيد المباشرة أي بمجرد أن أنجاهم الله تعالى من الغرق أتوا على قوم يعبدون الأصنام فسألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً مثل هؤلاء القوم . [2]

وكذا كان اختلاف التعبير في السياقين لاختلاف طالب السقيا فيهما وهذا ما وضحه ابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) في قوله : " الواقع في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى السقيا ، والوارد في سورة البقرة طلب موسى من ربه . فطلبهم ابتداءٌ فأشبه الابتداءَ ، وطلب موسى غايةً لطلبهم ؛ لأنه واقع بعده ومرتب عليه . فأشبه الابتداء الابتداء ، والغاية الغاية . فقيل جواباً لطلبهم : فانبجست ، وقيل إجابة لطلبه : فانفجرت ، وتناسب على ذلك " . [3]

والبلاغة والبيان أن يؤتى باللفظ الأول (انفجرت) ليدل على المعنى المقصود ، والأنسب للغرض المراد ، فإنه تعالى لما حكى عن موسى – عليه السلام – قال (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ) فلما كان الطلب من موسى في هذه الآية لربه ناسب التعبير عن ذلك بكلمة (انفجرت) إذ الانفجار انصباب الماء بكثرة ، وكان في هذه الآية (كلوا ، واشربوا) فكان من المناسب مع طلب موسى – عليه السلام – ذكر اللفظ الأبلغ ، لهذا جاء التعبير بلفظ الانفجار دون لفظ الانبجاس – (والشرب يحتاج إلى ماء أكثر لذا انفجرت الماء من الحجر في السياق الذي يتطلب الماء الكثير) – ولما كان طلب السقي في الآية الثانية من بني إسرائيل لا من موسى في قوله : (إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ) ناسب ذلك كلمة (انبجست) ؛ لأن الانبجاس ظهور الماء بدرجة أقل من الانفجار ، وكان في هذه

(١) سورة الأعراف الآية : (١٣٨) .
(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني – د/ فاضل صالح السامرائي صـ ١١٣ – شركة العاتك لصناعة الكتاب / القاهرة – ط/ ثانية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
(٣) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل – أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي – وضع حواشيه/ عبد الغني محمد علي الفاسي ص ٤٠ – دار الكتب العلمية/ بيروت – لبنان .

الآية (كلوا) وليس فيها (اشربوا) فلم يبالغ فيه – (أي : جاء باللفظ الذي يدل على الماء الأقلّ وهو انبجست) – ، لهذا جاء التعبير بلفظ الانبجاس دون لفظ الانفجار ؛ ليتناسب مع طلب قوم موسى ، وليكون هناك فارق بين طلب موسى وطلب قومه [(١)] .

ومن هنا تبدو أهمية السياق والنظم في بيان إبداع وجمالية المفردات القرآنية المتقاربة دلالياً كلٌ في سياقها الأنسب لها . فالعيون والآبار لا تبقى على حالة واحدة فقد تجفّ العيون والآبار فذكر الانفجار في موطن ، والانبجاس في موطن آخر وكلا المشهدين حصل بالفعل .

* ومن ذلك (جاء ، وأتى) في متشابه النظم القرآني ، وذلك في قوله تعالى في سورة طه : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ [(٢)]. في حين أن هذا التعبير قد تغيّر في سورة النمل فقال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [(٣)]. ففي طه قال (أتاها) ، وفي النمل قال (جاءها) . وكذا قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [(٤)] وقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [(٥)] ففي سورة الأنعام قال : (أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) ، وفي سورة يوسف قال : (جَاءَهُمْ نَصْرُنَا) . وبالنظر في هاتين المفردتين نجد أنهما تشتركان في الدلالة على القدوم والإقبال ، غير أن بينهما فروقاً تتكشف عند تأمل السياق ؛ إذ يغلب على الإتيان أن يكون في الشيء الذي فيه سهولة . أما جاء

(١) من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة صـ ١٥٣ .
(٢) سورة طه من الآية : (٢٠) .
(٣) سورة النمل من الآية : (١٩) .
(٤) سورة الأنعام الآية : (٣٤).
(٥) سورة يوسف الآية : (١١٠).

فيأتي لما فيه صعوبة ومشقة فترد في مقامات المشقة ، وثقل الأمر [١] ، كقوله تعالى : ﴿ وجاءت سكْرة المْوت بِالحْق﴾ [٢].

ومن الواضح أن الحالة الأولى (جاءهم نصرنا) في آية يوسف أشق وأصعب وذلك أن الرسل بلغوا درجة الاستيئاس وهي أبعد من اليأس وأبلغ ، في حين تجد الآية الثانية(أتاهم نصرنا) ، فآية الأنعام تشير إلى تكذيب أقوام الرسل للرسل ، لكن لم يُشِر إلى استيئاس الرسل وبلوغهم درجة اليأس من صلاح أقوامهم عندما آنس ناراً . [٣] ولعل ذلك يعود إلى لفظ كل من الفعلين ، فأتى أخف من جاء ، ومما يدلنا على ذلك أن أتى يؤخذ منها الأزمنة الثلاثة الماضي والمضارع والأمر ، فتقول : أتى ويأتي وائتِ ، وكلُّها وردت في القرآن الكريم ، في حين وردت (جاء) ملازمة حالة واحدة ، وهي أن تأتي بزمن الماضي فحسب ، وكذلك هي في القرآن الكريم ، ولم يأتِ منها مضارع ولا أمر ؛ لثقلها فلا تجد في القرآن الكريم يجيء أو جِيء ، ولا يخفى ما فيهما من الثقل والصعوبة ، وليس كالكلام المعجز في انتظام ألفاظه ، وابتعادها عن الالتواء والتعقيد اللفظي ، فانظر إلى سورة الأعراف قد جاءت فيها آيتان من المتشابه اللفظي ؛ إذ لما كان سياق التعبير عن المضي ذكر معه صيغة المجيء فقال تعالى : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [٤] ، ولما جاء السياق بزمن الحاضر أو الاستقبال أبدل لفظ المجيء بالإتيان ، فقال من السورة نفسها : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [٥] . وربما يعود ذلك إلى أن العرب تأبى استعمال لفظ

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٨ .
(٢) سورة ق من الآية : (١٩) .
(٣) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني ص ٢٣٢ .
(٤) سورة الأعراف الآيتان : (٤ ، ٥).
(٥) سورة الأنعام الآية : (٩٧ ، ٩٨).

المجيء في زمن الحاضر أو الاستقبال أو الأمر لثقلها ، فأتى البيان القرآني بما يوافق لغتهم .[١]

وذكر بعضهم أن الفرق بين المفردتين يكون في مواضع الاستعمال فالفعل (جاء) يستعمل في الجواهر والأعيان ، أما الفعل (أتى) فيكون في المعاني والأزمان ؛ لذا ورد (جاء) في قوله تعالى في قصة يوسف – عليه السلام – : ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [٢] ، وقول تعالى : ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [٣] . وجاء الفعل (أتى) في قوله تعالى في شأن يوم القيامة : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿حتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . [٥] أما قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾ [٦] أي أي : أمره ، لأن المراد به : أهوال يوم القيامة المشاهدة ، وكذلك قوله : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [٧] ؛ لأن الأجل كالمشاهد كالمشاهد ؛ لذا عبر عنه بالحضور في قوله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [٨]

ولهذا فرق التعبير القرآني بين جاء ، وأتى في قوله تعالى في قصة لوط – عليه السلام – : ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

(١) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني صـ ٢٢٩ ، ٢٣١ بتصرف .
(٢) سورة يوسف الآية : (٧٢) .
(٣) سورة الفجر الآية : (٢٣) .
(٤) سورة النحل الآية : (١) .
(٥) سورة يونس من الآية : (٢٤) .
(٦) سورة الفجر الآية : (٢٢) .
(٧) سورة الأعراف الآية : (٣٤) .
(٨) سورة النساء من الآية : (١٨) .

[١] ؛ لأن الفعل الأول (جاء) يراد منه العذاب وهو مشاهد مرئي ، بخلاف الفعل الحق فهو معنى من المعاني . [٢]

فالمغايرة بين الألفاظ ظاهرة أسلوبية خاضعة للسياق ، فمتى كان المقام مقتضيًا للمغايرة ، ومراوحة الأسلوب بين لفظ وآخر وجدنا النظم القرآني منسجمًا مع هذا التغاير بأبلغ سبيل ، ومتى كان المقام مقتضيًا لاستمرار الأسلوب على طريقة واحدة وجدت البلاغة متحققة في النظم .

* ومن أمثلة ذلك – أيضاً – أنك ترى القرآن يصف الأرض في موضع بأنها (هامدة) ويصفها في موضع آخر بأنها (خاشعة) ، و(الهمود) و(الخشوع) يتقاربان في المعنى العام لهما ، ويستدل بهما في الآيتين على قدرة الخالق – ﷻ – على البعث والإحياء ، فما بعد هذا السكون والهمود إلا حركة وحياة دالة على طلاقة القدرة ، وعظيم الصنعة . وما كان ذلك كذلك إلا لسبب مخصوص وغرض معين ؛ وهو اختلاف النظوم باختلاف المعاني العامة ؛ إذ ذكر الأرض بأنها (هامدة) مع ذكر البعث والإحياء ؛ قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامدة فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ . [٣] أما ذكر الأرض بأنها (خاشعة) فقد جيء به في سياق التسبيح والذكر وسجود الملائكة للخالق – ﷻ – ؛ قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي

(١) سورة الحجر الآيتان : (٦٣ ، ٦٤) .
(٢) من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) صـ ٦٦ ، ٦٧ .
(٣) سورة الحج الآية : (٥) .

أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . [1] وسياق الآية سياق مهيب يبعث في النفس الخشوع والخضوع .

فالجو العام في آية سورة الحج يدور في إطار الحديث عن البعث والإحياء والإخراج ،.... وتصوير الأرض بالهامدة أي القاحلة التي لا نبات فيها ، هو تصوير متسق مع سياقات البعث في الآية ؛ لأن الأرض بإنزال المطر تربو وتهتز من بعد موات ، فتعود خضراء رابية كأنما بعثت من بعد موت ، وهي كذلك . أما السياق في آية سورة فصلت فالحديث الأهم فيه يدور على معنى العبادة واستلزام الخشوع لله ، واستحقاق المولى الكريم للعبادة . ولذا استعير الوصف للأرض هنا بالخشوع – الذي هو خاص بالجوارح – وهذه الاستعارة موظفة بدقة ، لأنه مثلما يكون الخشوع للبشر سبيلاً للارتقاء الروحي ، يكون خشوع الأرض انتظاراً للحظة معانقة المطر كي تحيا وتربو . فاستعير الوصف باللفظ هنا اتساقاً مع السياق التصويري للآية . [2] يقول أحد الباحثين المحدثين : "هامدة وإن قاربت خاشعة في المعنى فإنها تختلف عنها خصوصية معنى وخصوصية صورة . لقد وردت (هامدة) في سياق يناسب خصوصية معناها ، ووردت (خاشعة) في سياق يناسب خصوصية معناها . إن كلمة (هامدة) في السياق الأول تتقابل – بما فيها من معنى السكون – مع كلمة (البعث) بما فيها من معنى الحركة . وتتقابل والحركة الحادثة في صورة الكلمات الدالة على حركة تطور خلق الإنسان : نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم طفلاً ، ثم ناضجاً . وتتقابل في السياق الذي يلحقها مع الكلمات : اهتزت ، ربت ، أنبتت ، ومن جهة أخرى تتناسق مع كلمة (التراب) ؛ لما فيها من صفة الهمود والسكون ، ومع كلمة (نقر) ؛ لأن الإقرار ثبات ، ومع كلمة (يتوفى) ؛ لأن الوفاة همود. أما كلمة (خاشعة) فتتناسب وكلمة الليل الواردة في السياق ؛ لأن ظلام الليل يدعو إلى التأمل والخشوع . ومع تعاقب الليل والنهار ، والشمس والقمر ؛ لما في هذا التعاقب من قدرة عظمى تدعو إلى الخشوع . ثم إن السجود لله خشوع ، والتسبيح بالليل والنهار خشوع ، ومن جهة أخرى تتقابل في السياق الذي يسبقها

(١) سورة فصلت الآيات : (٣٧- ٣٩) .

(٢) جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم صـ ١٨٨ ، والتعبير القرآني صـ ١٨١ .

مع الحركة الكائنة في الليل والنهار ، والشمس والقمر ، ومع كلمة (استكبروا) التي تنهض في مقابل الخشوع ، وتتقابل في السياق الذي يلحقها مع الحركة القائمة في الماء النازل من السماء ، ثم مع الاهتزاز والرباء".[١]

فللنظم دور مهم وأثر واضح في تحديد معاني المفردات وإدراك الدلالات ، وليس أدل على ذلك من الأمر والنهي والاستفهام داخل سياقات القرآن ؛ فربما صار الأمر إذا أحاطت به بعض القرائن إلى معنى آخر من تهديد أو إباحة أو تخيير بدلاً من معناه الرئيس وهو طلب الفعل على وجه القطع والأصل فيه هو الوجوب ، والاستفهام قد يتحول بفعل السياق من السؤال عن شيء ما إلى تقرير وإخبار ، أو تهكم ، أو تقريع وتوبيخ ، أو إنكار ، وكذا النهي الذي هو في أصل الاستعمال لطلب اجتناب الفعل على وجه القطع والأصل فيه هو التحريم ربما صار بفعل السياق إذا أحاطت به بعض القرائن إلى معنى آخر غير ذلك ... إلخ . من هنا تكون مراعاة النظم والسياق من أهم الأمور في معرفة مراد الله وإدراك معانيه ومقاصده ، ولهذا يقول عنه الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) : " لا بد من رد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره ؛ وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف " . [٢]

فلمراعاة النظم إذن أهمية كبيرة ومكانة عالية في الاستدلال ومعرفة المعاني والدلالات إذ لكل نظم وسياق مفردات تناسبه ، فالمعاني لا تُعرَف إلا من النظوم إذ أن النظم يستبعد الاستخدامات الأخرى للفظ ويحدد المعنى المراد تحديداً دقيقاً إضافة إلى خفتها في النطق وحسن وقعها في السمع . ولا أدل على صحة ذلك من استعمال القرآن الكريم للكلمة المعربة بدلاً من نظيرها العربي المأنوس أو الكثير الاستعمال مع خفة أصواتها وكثرة التشبيه بها ، فاستغنى القرآن الكريم عن لفظ (الأسد) واستعمل بدلاً منه لفظ (القسورة) وهو من لغة الحبشة كذا نسبه ابن عباس

(١) سر الاعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن الكريم صـ ٣٧ وما بعدها بتصرف .

(٢) الموافقات – الشاطبي – تح/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ٢٦٧/٤ – دار ابن عفان– ط/أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

[١] في قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ [٢] وكأنه من (القسر) وهو : القهر . والأسد يقهر السباع . [٣] وما ذلك إلا مراعاة لدقة النظم في الفاصلة القرآنية المنتهية بصوتي الراء والهاء عند الوقف عليها ، مما يجعل للمفردة وقعا سمعياً حسناً ومتميزاً ومؤثراً بما فيه من السجع الحسن وخفيفاً في النطق ، وهذا ما لا وجود له في اللفظ العربي وهو الأسد .

فالنظم إذن هو الذي يحدد جمال الكلام أو عدمه ؛ والكلام الجيد المتميز هو الذي حسنت نظومه وتراكيبه ، والكلام الرديء هو الذي ساءت تراكيبه ونظومه ، وليست العبرة بالمفردات اللغوية المجردة . فالكلمات المفردة لا يتجلى جمالها ولا يسطع ضياؤها إلا إذا قرنت بما يناسبها بحيث تكون كل واحدة منها آخذة بحجزة أختها بحسب ترتب المعاني في النفس .

واختيار اللفظ المناسب طبقاً للموقعية السياقية هو ما نسميه (إبداع اللفظ) مع حسن الرصف وبراعة التركيب أو النظم ، وتناسق الدلالة ووضوحها وتمامها هو ما نسميه (إبداع الدلالة) . وقد ربط ابن الأثير بين الثلاثة : اللفظ ، والنظم ، والدلالة تبعًا للغرض المقصود . حيث قال : " اختيار الألفاظ المفردة ، وحكم ذلك اللآلىء المبدّدة؛ فإنها تتخير وتنتقي قبل النظم ؛ الثاني : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها ؛ لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ؛ وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها ؛ الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلاً على الرأس ، وتارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة

---

(١) مجاز القرآن – أبو عبيدة معمر بن المثنى – تح/ محمد فواد سزگين ٢/ ٢٧٦– مكتبة الخانجى – القاهرة ١٣٨١هـ ، وجامع البيان في تأويل القرآن الطبري ١/ ١٤.

(٢) سورة المدثر الآيات : (٥٠ ، ٥١ ، ٥٢) .

(٣) غريب القرآن – ابن قتيبة – تح/ أحمد صقر صـ ٤٩٨ – دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

يجعل شنفاً في الأذن ، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه " . (١)

* ومن إبداع المفردة لإبداع الدلالة – أيضاً – قوله تعالى : ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ (٣) فاستعمل (الجوف) في الأولى و (البطن) في الثانية ، ولم يستعمل الجوف موضع البطن ، ولا البطن موضع الجوف ؛ ذلك أن مادة كل منهما تختلف بعض الاختلاف عن مادة اللفظة الأخرى .

وقد أرجع ابن الأثير ذلك في الآية الكريمة إلى كيفية السبك للألفاظ فقال : " ومن الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولم لم تمسه نار حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في موضعها . ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دقّ فهمه وجلّ نظره . فمن ذلك قوله تعالى:(ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ، وقوله تعالى : (رب إني نذرت لك ما في بطني محررا) . فاستعمل الجوف في الأولى والبطن في الثانية ، ولم يستعمل الجوف موضع البطن ، ولا البطن موضع الجوف ، واللفظتان سواء في الدلالة ، وهما ثلاثيتان في عدد واحد ووزنهما واحد أيضاً ، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل ".(٤)

على حين أرجعه الزركشي إلى اختلاف المقامات فقال : " مما يبعث على معرفة الإعجاز اختلافات المقامات وذكر في كل موضع ما يلائمه ووضع الألفاظ في كل موضع ما يليق به وإن كانت مترادفة حتى لو أُبدل واحد منها بِالآخَرِ ذهبت

(١) المثل السائر ١٤٩/١.
(٢) سورة الأحزاب من الآية : (٤) .
(٣) سورة آل عمران من الآية : (٣٥) .
(٤) المثل السائر ١٥٠/١ .

تلك الطُّلاوة وفاتت تلك الحلاوة فمن ذلك قوله : {مَا جَعَلَ اللَّـهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} وفي موضع آخر: {في بطني محررا} اسْتُعْمِل الجوف في الأوَّل والبطن في الثاني مع اتفاقهما في المعنى ولو استعمل أحدهما في موضع الآخر لم يكن له من الحُسن والقبول عند الذوق ما لاستعمال كل واحد منهما في موضعه ".[١]

* ومن ذلك الفرق بين الجوع والسغب ، وبين المطر والغيث يقول الجاحظ : " قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها . ألا ترى أن الله – ﷻ – لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة " . [٢]

وبتأمل مواضع ورود اللفظين في القرآن الكريم نجد صدق كلامه ، فقد ورد (الجوع) خمس مرات إما في موضع العقاب كما في قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّـهِ فَأَذَاقَهَا اللَّـهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [٤]

وإما إظهارًا للعجز والفقر الشديد كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [٥] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى﴾ [٦] ، وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ . [٧] [٧]

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١١٨ ، ١١٩ .
(٢) البيان والتبيين ١/ ٤١ .
(٣) سورة النحل الآية : (١١٢) .
(٤) سورة البقرة الآية : (١٥٥) .
(٥) سورة قريش الآية : (٤) .
(٦) سورة طه الآية : (١١٨) .
(٧) سورة الغاشية الآيتان : (٦ ، ٧) .

أما لفظ (السغب) ولم يرد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة وذلك في مكان الرحمة، وبعث همّة المؤمنين لمساعدة الآخرين المحتاجين خصوصاً إذا كانوا يتامى . أي في موضع القدرة كما في قوله تعالى : ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [١] أي : يطعم الطعام في وقت شدة احتياج الشخص المستحق للصدقة وللطعام ، وهذا من باب فضيلة الإيثار، بل هو أفضل أنواعها ؛ لأن المجاعة في الغالب تعم ، فيكون هو محتاجاً للطعام ، لكنه يطعم مع ذلك في وقت المجاعة .

وكذلك ذكر المطر ؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث " . [٢]

وبتأمل مواضع ورود لفظ (المطر) في القرآن الكريم وقد ورد ست عشرة مرة نجد صدق كلام الجاحظ فجميعها ورد في سياق الانتقام حقيقة كان هذا الانتقام كما في الآيات : ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ [٣] ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [٤] ، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٥] ، ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٦] ، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [٧] ، أو مجازًا كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٨]

(١) سورة البلد الآية : (١٤) .
(٢) البيان والتبيين ١/ ٤١ .
(٣) سورة الفرقان الآية : (٤٠) .
(٤) سورة الشعراء الآية : (١٧٣) .
(٥) سورة الأحقاف الآية : (٢٤) .
(٦) سورة الأعراف الآية : (٨٤) .
(٧) سورة هود الآية : (٨٢) .
(٨) سورة الأنفال الآية : (٣٢) .

أما لفظ (الغيث) وقد ورد في القرآن الكريم مرتين فقط فقد استعمل في موضع التفضل والإنعام لا غير فهو يأتي عقب الجَدب وانقطاع المطر أو عند الحاجة إليه . قال القرطبي : " والغيث : المطر ، وسمي غيثًا لأنه يغيث الخلق . وَقَدْ غَاثَ الْغَيْثُ الْأَرْضَ أي أصابها . وَغَاثَ اللَّهُ الْبِلَادَ يَغِيثُهَا غَيْثًا ... وعن الأَصْمَعِيِّ قال : مَرَرْتُ ببعض قبائل العرب وقد مُطِرُوا فسأَلْتُ عجوزًا منهم : أتاكم المطر ؟ فَقَالَتْ : غِثْنَا ما شِئْنَا غَيْثًا ، أي مُطِرْنَا . وقال ذُو الرُّمَّةِ : قَاتَلَ اللَّهُ أَمَةً بني فلان ما أَفْصَحَهَا ! قُلتُ لها كيف كان المطر عندكم ؟ فقالتْ: غِثْنَا ما شئنَا . ذكر الْأَوَّلَ الثَّعْلَبِيُّ وَالثَّانِي الْجَوْهَرِيُّ.... والغيث ما كان نافِعًا في وقته ، والمطر قد يكون نَافِعًا وضارًا في وقته وغير وقته " [1] والموضعان هما قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾ [3] وذلك في كلامه على على نعمته في الأرض ؛ لأن النبات يريد رحمته التي تتجلّى في الماء الخفيف فينتعش ، ولذلك لم يذكر المطر الذي يغرقه .

فالسياق القرآني اختص المطر لا الغيث في موضع السخط أو عقاب الأمم أو الانتقام ؛ لأنه أقوى وأغزر تدفق مياه فناسب عقوبة المجرمين ، فالمطر كما ذكر القرطبي " قد يكون ضاراً ونافعاً في وقته وغير وقته " . واختص (الصيب) – وهو أقوى من المطر ؛ لما يتبعه من رعد يكاد يصم الأذن ، وبرق يكاد يخطف الأبصار – بالنزول الذي له وقع وتأثير ، فهو نوع من المطر شديد هائل كالنار في التمثيل . [4] لذا جاء التعبير بهذه المفردة في سياق الحديث عن الكوارث أو المصائب التي التي تصيب المنافقين المخادعين لله ورسوله وقد اشتروا الضلالة بالهدى كما في قوله تعالى : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٨/١٦ .
(٢) سورة لقمان الآية : (٣٤) .
(٣) سورة الشورى الآية : (٢٨) .
(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١/ ٥٢ ، ٥٣ .

آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [١] ، إذ تصور الآية الكريمة هول المطر ، وما اقترن به من ظلمات ، وما تخلله من رعد يبث الفزع في النفوس ، وبرق يخطف الأبصار، وقد جاء التعبير في الآية الكريمة بلفظة (الصَّيِّب) في قوله تعالى : (أَوْ كَصَيِّبٍ) وهو عدول عن لفظ (المطر) إلى لفظ (الصَّيِّب) قال سعيد النورسي (ت١٣٧٩هـ) : " إن العدول عن لفظ المطر المأنوس المألوف إلى الصيب رمز إلى أن قطرات ذلك المطر كمصائب ترمى إليهم بقصد فتصيبهم مع فقد الساتر عليهم " . [٢] على حين اختص (الغيث) دون المطر في مواطن سقيا الخلق ، وفي سياق الرحمة كما في الآيات السابقة .

ومن هنا ندرك أن اللفظة القرآنية مختارة – في موضعها وصيغتها – في التركيب بفعل السياق ، فلا يمكن أن تستبدل بلفظة أخرى ، بل قد انتقيت من بين ألفاظ أخرى دعت إلى ذلك الانتقاء ، أولتها تلاؤماً مع السياق ، وقد تكون المناسبة في ذاتها كجزالة صيغتها وسلاستها وجمال تركيبها وحسن اشتقاقها وبديع تصويرها ، كل ذلك كان داعياً إلى رجحان اختيارها وانتقائها .

* ومن ذلك – أيضاً – استعمال المفردتين : (الميزان) وهو عربي ، و(القسطاس) وهو رومي الأصل أي معرب وهو الأرجح . [٣] وقيل : إنه عربي مشتق من القِسط . [٤] وقيل : وفاق بين لغة العرب ولغة الروم كما اتفقت لغة العرب والفرس في السِّجِّيل ولغة العرب وَالتُّرك في «الْغَسَّاقِ» ولغة العرب والحبشة في «نَاشِئَةَ اللَّيْلِ» . [٥] وذلك لما يتميز به كل منهما بخاصية معنوية لا توجد في

(١) سورة البقرة الآية : (١٩) .
(٢) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز – بديع الزمان سعيد النّورسي – تح/ إحسان قاسم الصالحي صـ ١٣٧ – مصر – ط/ ثالثة ٢٠٠٢م.
(٣) المخصص ٣/٤٤٠ ، وجامع البيان ١٧/ ٤٤٥ ، والجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٥٧ .
(٤) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم – نشوان بن سعيد الحميرى – تح د/ حسين ابن عبدالله العمري ، وآخرين ٨/ ٥٤٨٧ – دار الفكر المعاصر/ بيروت ، دار الفكر/دمشق – ط/ الأولى ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م.
(٥) مفاتيح الغيب ١٨/ ٤٣٨ .

اللفظ الآخر مما جعل أحدهما لا يحل محل الآخر في سياقه ، وفي هذا رد على من ظن ترادفهما .

فقد ورد لفظ (الميزان) في القرآن الكريم عشر مرات . وفيها إما في سياق الدعوة إلى العدل باستيفاء الكيل والوزن كما في قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ [١] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [٣] ، أو النهي عن النقص فيهما أو الخسران كما في قوله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾ [٥] ؛ لذا اقترن الميزان بلفظ (بالقسط) متصلاً بباء الإلصاق وليس وليس الميزان موصوفاً به ؛ لأن الميزان يقبل الجور والعدل وليس مختصاً بواحد منهما ، فالعدل أو الجور فيه يكون بالنسبة لصاحبه وليس صفة ذاتية فيه بل صفة مكتسبة من صاحبه ، وهذا شأن موازين الدنيا والتي تتفاوت بتفاوت الناس عدلاً أو ظلماً وجورًا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُون * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾. [٦] خلافاً لموازين القيامة التي وصفت بأنها (قسط) وذلك في قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ

(١) سورة الأنعام من الآية : (١٥٢) .
(٢) سورة الأعراف الآية : (٨٥) .
(٣) سورة هود الآية : (٨٥) .
(٤) سورة هود الآية : (٨٤) .
(٥) سورة الرحمن الآيتان : (٨ ، ٩) .
(٦) سورة المطففين الآيات : (١ ، ٢ ، ٣) .

القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [1] ؛ للدلالة على أنها موازين عدل لا ظلم فيها ولا بخس كموازين الدنيا ، وكانت موازين لا ميزاناً واحد ؛ لأن الناس في هذا اليوم يكونون على درجات شتى طبقاً لموازين أعمالهم فالناس في الجنة درجات ، والذين في النار أيضاً درجات . ولم يستعمل (القسطاس) هنا ؛ لأنه لم يرد مجموعا في لغة العرب التي وضعت على خفة النطق وسلاسته ، والمفرد هنا أخف من الجمع ، ونظيره استعمال لفظ (الأرض) في القرآن مفردا دائما وعدم استعمال الأراضين وإن دعا إليه السياق ، وكذا (السمع) .

أما قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [2] فمعناه : العدل عن ابن عباس وأكثر المفسرين . مجاهد : هو الذي يوزن به ، ومعنى إنزال الميزان : إلهامه الخلق للعمل به ، وأمره بالعدل والإنصاف ، كقوله : (قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً) .

وقال علقمة : الميزان محمد – ﷺ – يقضي بينهم بالكتاب . [3]

(١) سورة الأنبياء الآية : (٤٧) .
(٢) سورة الشورى الآية : (١٧) .
(٣) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي) – أبو إسحاق الثعلبي – تح الإمام/ أبي محمد بن عاشور ٣٠٧/٨ – دار إحياء التراث العربي/ بيروت – ط/ الأولى١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م.

أما لفظ (القسطاس) فمعناه : أعدل الموازين وأقومها ، وهو ميزان العدل أَيَّ ميزان كان من موازِين الدراهم وغيرها .[١] وقد ورد في القرآن الكريم مرتين فقط ووصف فيهما بأنه مستقيم أي ميزان عدل لا يقبل الجور كما في قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[٢] ، وقوله : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ﴾ .[٣] وعلى هذا فالعدل في القسطاس يكون صفة ذاتية فيه لا في صاحبه .

وعلى هذا فقس وتنبه الفرق بين الألفاظ التي يحسبها بعض العلماء مترادفة ، وما هي مترادفة ، فلكل لفظة في سياقها من الخصوصية المعنوية ما يجعلها تكون في هذا الموضع خاصة من دون غيرها وإن قاربتها في المعنى العام أو تشابه النظم ، أو اتحدت القصة وتكررت . مثل : الريب والشك ، والولد والغلام ، والبحر واليم ، وأقسم وحلف ، ودعا ونادى ، وسلك وجعل .... إلخ .

ثانياً : المفردة القرآنية بين خفة النطق وثقله :

استعمل القرآن الكريم ما لا يزيد كثيراً عن ثلث المفردات المستعملة في لسان العرب الخلص الفصحاء ؛ وذلك لأنه اختير له من المفردات اللغوية المستعملة أخفها على اللسان وأعذبها ، وفي السمع أحسنها ، وفي تناسق الدلالة أدقها فكان بحق معجزة لغوية بحيث لا يستطيع أحد مضاهاة أجراس حروفه ، ولا حسن التئام مفرداته ، ولا دقة نظمه في تركيب جمله من مفردات ذات خصائص مبهرة ، ولا روعة أسلوبه وفصاحة بيانه ، فخلت مفرداته من غريب البلاغيين فجاءت على أبدع نسق في انسجام الحروف ، وإن اشتمل على غريب اللغويين ذي المعنى الخفي أو اللفظ القليل الاستعمال في لغة العرب فكثرت فيه المفاريد وقل فيه المكرر ، وخلت مفرداته من القبيح أو المنفر وإن كان المعنى جميلاً وإن استعمله فصحاء العرب . وتتحقق هذه الخفة في المفردات القرآنية في مظاهر شتى أهمها :

---

(١) لسان العرب (ق س ط) .
(٢) سورة الإسراء الآية : (٣٥).
(٣) سورة الشعراء الآية : (١٨٢) .

١. خفة المفردة القرآنية من حيث بنائها الصوتي :

يختار القرآن الكريم من الألفاظ أسلسها صوتاً وأرقها جرساً ونحو ذلك مما يجعلها مأنوسة الاستعمال ، وينفي من بيانه وتعبيره أشدها صوتاً وأثقلها جرساً. يقول العلوي (ت ٧٤٥هـ) : " إذا فكرت وأمعنت النظر في كلام الرسول – ﷺ – ، وفى كلام أمير المؤمنين ، وغيرهما ممن كان معدوداً في زمرة الفصحاء وكان له منطق في البلاغة في المواعظ والخطب ... وجدت القرآن متميزاً عن تلك الكلمات كلها تميزاً لا يتمارى فيه منصف ، ولا يشتبه على من له أدنى ذوق في معرفة بلاغة الكلام وفصاحته ، وذلك التميز تارة يكون راجعاً إلى ألفاظه من فصاحة أبنيتها ، وعذوبة تركيب أحرفها ، وسلاسة صيغها ، وكونها مجانبة للوحشي الغريب ، وبعدها عن الركيك المسترذل ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ﴾ [(١)] لم يقل الفلك ؛ لما في الجري من الإشارة إلى باهر القدرة ، حيث أجراها بالريح وهى أرق الأشياء وألطفها ، فحركت ما هو أثقل الأمور وأعظمها في الجرم ، وقال : (فِي الْبَحْرِ) ولم يقل في الطّمطام ، ولا في العباب وإن كانت كلها من أسماء البحر؛ لكون البحر أسهل وأسلس ، ثم قال : (كَالْأَعْلامِ) ولم يقل كالروابي ، ولا كالآكام ؛ إيثارا للأخف الملتذ به ، وعدولاً عن الوحشي المستركّ ، وتارة يكون راجعاً إلى المعاني لإغراقها في البلاغة ورسوخها في أصلها ، وسببها حسن النظم وجودة السبك ، فمن أجل ذلك يحصل قانون البلاغة ويبدو رونقها ، ولا شك أن ما هذا حاله قد حصل في القرآن على أتم وجه وأكمله ". [(٢)]

ومن استعماله – أيضاً – للخفيف من الألفاظ وتركه الثقيل المبتذل وإن استعمل على لسان الفصحاء : استعماله للفظ (الطين) دون الآجر[(٣)] أو القرمد ، وقد علل ذلك الرافعي من حيث إبداع اللفظ ودقة الدلالة فقال : " ومن الألفاظ لفظة

---

(١) سورة الشورى من الآية : (٣٢) .
(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٣/١٢٠ ، ١٢١.
(٣) آجر لفظة فارسية معربة وفيه لغات : (آجُرٌ) بالتشديد ، و(آجُرّ) بالتخفيف ينظر: (المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم – الجواليقي – تح/أحمد محمد شاكر صـ ٢١ – دار الكتب المصرية – طبعة/ ثالثة ١٩٩٥م) .

(الآجر) وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرها نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المد في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن ، فلما احتاج إليها لفَظَّها ولَفَظَ مرادفَها وهو "القرمد" وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما ، ثم أخرج معناها بألطف عبارة وأرقها وأعذبها ، وساقها في بيان مكشوف يفضح الصبح ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [1] فانظر، هل تجد في سر الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبدع من هذا ؟ وأي عربي فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملكه حسه ولا يسوغه حقيقة نفسه ولا يجن به جنونًا ولا يقول : آمنت بالله رباً ، وبمحمد – ﷺ – نبياً ، وبالقرآن معجزة ؟ وتأمل كيف عبر عن الآجر بقوله : {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ} وانظر موقع هذه القلقلة التي هي في الدال من قوله : "فأوقد" وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه ، وكأنما تنتزع النفس انتزاعًا. وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب ، ولكن ما ترمي إليه إعجاز آخر؛ فإنها تحقر شأن فرعون ، وتصف ضلاله ، وتسفه رأيه ، إذ طمع أن يبلغ الأسباب أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى ، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سلمًا ، إلا شيئًا يصنعه هامان من الطين " ! . [2]

فلفظة (آجر) مبتذلة جداً ، وإن وردت في شعر النابغة الذبياني وهو من أشهر شعراء العرب في قصيدته التي أولها : (من آل مية رائح أو مغتدي) حيث يقول :

أو دمية في مرمر مرفوعة ∴ بنيت بآجر يشاد بقرمد

يقول أحد الباحثين المحدثين معلقاً على كلام الرافعي : " مثل هذا التفسير لا علاقة له بالوجهة الفنية .... ونظرته تتسم بشيء من التقصير، فنحن نلتمس فيها استثقال الجيم والراء ، فالجيم حرف شديد ، والراء حرف يميل إلى الشدة بفضل

(١) سورة القصص من الآية (٣٨) .
(٢) تاريخ آداب العرب ٢/ ١٥٤.

تكرره على اللسان ، ولكن الرافعي لا يستوفي ما جاء في الآيات الكريمة من كلمات توالى فيها الجيم والراء مثل (أجر) ، (تجري) ، (يجرّه) ، (مجرمين) وغير ذلك . وأحياناً يتطلب مضمون الكلمة هذين الحرفين ليكونا بشدتهما عوناً على تصوير المشهد الذي تعنيه ، مثل قوله – ﷻ – عن ماء جهنم : ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ (١) ، ففي المفردة قسوة حروف في تركيب خاص ، لتصور هذه القسوة عملية الشرب لهذا الماء المغلي ، وليس هذا مما يتطلب في قول فرعون وقسوة (آجر) على كل حال في تركيبها أيضاً . ولم لا يكون السبب في تعبير القرآن بالطين هنا العمد إلى مادة تبين الضعف والوهاء يعتمد عليها فرعون في مواجهة معجزات الأنبياء والحق الأعظم ، وهو الإيمان بالله ، وهذا مما يضع فرعون موضع السخرية لدى القارئ أو السامع الذي ترتسم في ذهنه صورة الطين أداة في مواجهة ذلك كله " . (٢)

يقول الشيخ/ محمد سعيد البوطي موضحاً القيمة التعبيرية للمفردة القرآنية (الطين) في هذا السياق : " انظر كيف صور القرآن بشرية فرعون التي فرضت نفسها على كلامه لتكذبه فيما يزعم ، ولتسخر من عظم دعواه أمام ضآلة ذاته ، صور ذلك في قوله : (فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ) يدعي الربوبية ويريد الصعود إلى أجواء السماء ثم لا يرى سبيلاً إلى ذلك إلا أن يستعين بالطين وأسباب الطين ، إن الذي يضطر إلى الاستعانة بالطين فيما يسعى إلى تحقيقه لا يمكن إلا أن يكون ذلك المخلوق الضعيف الذي خلق من طين " . (٣)

على حين يرى ابن الأثير أن كلمة (الآجر) كلمة مبتذلة ؛ لذا لم ترد في القرآن الكريم شأنها في ذلك شأن بقية الألفاظ المبتذلة فيقول : " إن شئت أن تعلم شيئاً من سر الفصاحة التي تضمنها القرآن ، فانظر إلى هذا الموضع ، فإنه لما جيء فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظه ولا بلفظ القرمد أيضاً ، ولا بلفظ الطوب الذي

(١) سورة إبراهيم من الآية : (١٧).
(٢) جماليات المفردة القرآنية صـ ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٣) من روائع القرآن (تأملات علمية وأدبية في كتاب الله) – محمد سعيد رمضان البوطي صـ١٦٠ – مؤسسة الرسالة/ بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

هو لغة أهل مصر ؛ فإن هذه الأسماء مبتذلة ، لكن ذكر في القرآن على وجه آخر" . [1] أي بلفظ (الطين).

لكن مما ينبغي التنبيه عليه أن خفة البناء الصوتي ليست هي العامل الوحيد لفصاحة المفردة القرآنية وإن كانت هي العامل الرئيس والأغلب . فقد تكون خفة المفردات أمراً نابعاً من طريقة النظم وليس أمراً ذاتياً في البناء الصوتي للمفردة فحسب وهذا ما وضحه الرافعي في قوله : " وما يشذ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز ؛ حتى إنك لو تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة ، وهي بالطبع مظنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز؛ فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها ، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه ، لنظم حروف ومكانه من النطق في الجملة ؛ أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئًا فيما ليس فيه شيء . تأمل قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [2] فإنها خمسة أسماء ، أخفها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم) وأثقلها (القمل والضفادع) فقدم (الطوفان) لمكان المدين فيها ؛ حتى يأنس اللسان بخفتها ؛ ثم الجراد وفيها كذلك مد ؛ ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئًا بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه ؛ ثم جيء بلفظة (الدم) آخرًا ، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفًا ؛ ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب . وأنت فمهما قلبت هذه الأسماء الخمسة ، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع ؛ لو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر، ولأغنتك أن تجيء منها بنظم فصيح ، ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطعك دون غايتها ، ثم لخرجت الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء ؛ ليس يظهر أخفها من أثقلها ؛ فانظر كيف يكون الإعجاز فيها ليس فيه إعجاز بطبيعته . وبهذا الذي قدمناه ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقص في أمثلته لأنه أمر مطرد ، تعرف أن القرآن إنما أعجز

(١) المثل السائر ١/ ١٨٦ .
(٢) سورة الأعراف الآية : (١٣٣) .

في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع ولن تستوي هذه الطريقة إلا بكل ما فيه على جهته ووضعه ، فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه " . (١)

فالتركيب الذي دخلت فيه الألفاظ هو الذي حسن هذه الألفاظ ، وهذا رد على من قال إن الألفاظ كلها حسنة ؛ لأن الواضع لم يضع إلا ألفاظاً حسنة . ويدحض ابن الأثير ذلك حيث يرى أن الاستعمال هو الذي حسن أو نفى الحسن يقول : " وههنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت في آية من القرآن الكريم وفي بيت من شعر الفرزدق ، فجاءت في القرآن حسنة وفي البيت غير حسنة ، وتلك اللفظة هي لفظة (القمل) ، أما في الآية فقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ ، وأما البيت الشعري فقول الفرزدق :

من عزه احتجزت كليب عنده ∴ زَرْباً كأنهم لديه القمل (٢)

وإنما حسنت هذه اللفظة في الآية دون البيت من الشعر ؛ لأنها جاءت في الآية ضمن كلام ولم ينقطع الكلام عندها، وجاءت في الشعر قافية أي آخراً انقطع عندها الكلام. ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية . (٣)

كما قد تكون الكلمة غريبة ونادرة في الاستعمال ولكنها تدل أعظم دلالة على الفصاحة في تأليفها ، وقد تكون ثقيلة في اللفظ أو أن مخارجها متقاربة ولكنها في التركيب تستدعيك فلا يؤخذ غيرها . فما قد يكون غير فصيح من الألفاظ في موضع فإنه يكون فصيحاً وجميلاً في موضع آخر هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢/ ١٥٥.

(٢) كذا نسب البيت في التحرير والتنوير إلى الفرزدق ٣٦٠/١ إلا أنه برواية أخرى هي :
مِنْ عِزِّهِمْ حَجَرَتْ كُلَيْبٌ بَيْتَهَا ... زَرْبًا كَأَنَّهُمُ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

(٣) إعراب القرآن وبيانه – محيي الدين مصطفى درويش ٤٤٢/٣ ، ٤٤٣ – دار الإرشاد للشئون الجامعية/ حمص ، سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) – ط/ الرابعة ١٤١٥هـ ، و دراسات في البلاغة عند ضياء الدين ابن الأثير – د/ عبدالواحد حسن الشيخ صـ ٣٩ ،٤٠ – مؤسسة شباب الجامعة / الإسكندرية ، مصر ١٩٨٦م.

تقارب الحروف أو تنافرها ، أو ما قيل عن غرابة الكلمة و وحشيتها يكون على غاية من البلاغة والفصاحة في مواضع استعمالها ، على وجود شيء في النفس منها . فماذا يقول المرء في لفظ (عَسْعَس) ، المتقاربة المخارج من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [١] ، ولفظ (اثاقلتم) في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ [٢] فلا يشك أحد حين يردد لفظ (عسعس) و(اثاقلتم) فإنه سيجد ثقلاً على اللسان وضغطاً على الحروف ، إما لتقاربها ، وإما لتكرارها ... ويثور السؤال في الذهن ، أيُّ الألفاظ يمكن أن تقوم مقامها في سياقها ؟ فيأتي الجواب بأن المرء لا يمكن أن يجد أفصح منها في تأدية الوظيفة التي حملتها ، في سياقها ... وبهذا تكمن فصاحتها ، على تقارب مخارج حروفها ... [٣]

فتقارب مخارج (عسعس) في ذاتها لم يُخِلْ دون استعمالها في تركيب يشعر ببديعِ التصوير وعظمة التأثير ، ولهذا فإننا حين نراعي شروط الفصاحة في اللفظ المفرد كما أثبتها البلاغيون فإن هذه المراعاة تقتضي أن ينظر إليها متكاملة في بلاغة التأليف وفصاحته . فالمنهج العلمي الموضوعي هو الذي يسعى إلى استخلاص أبعاد الجمال البلاغي في اللفظ ، وما يعبر عنه سياقه من معانٍ نفسية وفكرية ... فالألفاظ تشاكل دلالتها وإيحاءاتها سواء كانت غريبة أم مألوفة ، واللفظ الغريب إذا استعمل في سياقه الدقيق ، يصبح فصيحاً كما في كلمة (ضيزى) المضروبة مثلاً للغرابة – (وهي من الكلمات المفاريد غير مألوفة في الاستعمال ؛ لعدم حسن وقعها في السمع . وأحسن الألفاظ ما كان مألوفاً متداولاً ، حيث استعملت بدلاً من نظيرها المأنوس في الاستعمال وهو(جائرة أو ظالمة) في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى﴾ [٤] فكلمة (ضيزى) تدل على

(١) سورة التكوير الآية : (١٧) .
(٢) سورة التوبة من الآية : (٣٨) .
(٣) في جمالية الكلمة – د/ حسين جمعة صـ ٤٧ – من منشورات اتحاد الكتاب العرب/دمشق ٢٠٠٢م.
(٤) سورة النجم الآيتان : (٢١ ، ٢٢) .

التعسف في القسمة ، فهي غيْر عادلة . ومثلها لفظ (أغطش) في قوله تعالى: ﴿ أأنتم أشد خَلْقَاً أم السماء بناها * رفع سِمْكَها فسوّاها * وأَغطش ليلها وأَخْرَجَ ضُحاها﴾ [1] فأغطش مساو من حيث الدلالة اللغوية لأظلم . ولكن (أغطش) تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة يستقل بها الوزن وجرس الأحرف متآلفة مع بعضها . فالكلمة بهذه الدلالة تعبّر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعمّ فيه الركود وتجلت في أنحائه مظاهر الوحشة . [2] كما أنها تدل على تقريع المعاندين المنكرين للبعث . فلو اختير غيرهما للدلالة المقصودة لما وقعنا على هذا الإيحاء الخاص الرائع في جمال الأسلوب وشدة اقتضاء اللفظ لمعناه ودقته ... فلفظ (أغطش) ، على غرابته أعظم فصاحة في الدلالة على شدة الظلمة في موقعه من كلمة (أظلم) ، التي تعد مألوفة عند البلاغيين وأكثر فصاحة ...." . [3]

فالكلمة الوحشية أو الغريبة تتسم بالحسن وتتصف بالجمال والإبداع إذا اقتضاها الموقف ، وأدت غايتها .

(١) سورة النازعات الآية : (٢٩) .
(٢) من روائع القرآن صـ ١٤٠ .
(٣) في جمالية الكلمة صـ ٤٨ .

ومن ذلك أيضا كلمة (أنلزمكموها) في قوله تعالى حكاية عن نبي الله هود – عليه السلام – : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [1] فهذه الكلمة وإن ثقلت على اللسان بكثرة حروفها التي بلغت عشرة أحرف – لا بجنس حروفها فقد تألفت من حروف هي أخف حروف العربية على اللسان باستثناء حرف الهمزة ، فضلاً عن أن مرجعها إلى الثلاثي فصارت عشرية بالسوابق واللواحق – فهي كما يقول أحد الباحثين المحدثين : " تصور بجرسها وأدائها جو الإكراه ؛ وليستشعر من ينطقها مدى ما يبذل من جهد في الإلزام والإكراه الذي ينكره نبي الله هود " . [2]

وقد علل الرافعي ورود مثل هذه المفردات الطويلة في القرآن الكريم تعليلاً بديعاً يظهر جماليات هذه المفردات الطويلة في موضعها وسنذكره في موضعه من البحث عند حديثنا عن كثرة استعمال المفردات الثلاثية في القرآن الكريم لخفتها على اللسان وسهولة النطق بها .

ومعنى هذا أن ثقل الكلمة على اللسان ليس مما يخل بفصاحتها على الإطلاق – كما ذهب علماء البلاغة – لأن هذا الثقل يكون مطلوباً إذا جسد المعنى وصوره وأشعر الإحساس به . [3] فكثرة الحروف لا تعيب اللفظ المفرد دائما كما يرى البلاغيون ؛ وإنما يظهر قبحه في التأليف إذا تكرر كقول أبي تمام :

سَمُجَتْ ونَبَّهْنا على اسْتِسْماجها ∴ مَا حَوْلَها مِنْ نَضْرَةٌ وجمالِ [4]

---

(١) سورة هود آية : (٢٨) .

(٢) البلاغة الصوتية في القرآن الكريم صـ ٣٢ ، ٣٣ بتصرف.

(٣) السابق صـ ٣٣.

(٤) كذا نسب البيت لأبي تمام في : الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي الجرجاني – تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي صـ ٢٧٧ – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، وسر الفصاحة – ابن سنان الخفاجي صـ ٨٨ – دار الكتب العلمية – ط/ أولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، وشرح ديوان المتنبي – أبو البقاء العكبري – تح/ مصطفى السقا وآخرين ٢٣/١ – دار المعرفة/ بيروت.

فكلمة (استسماجها) رديئة لكثرة حروفها ، وزاد التأليف من قبحها حين استعمل معها الفعل (سمجت).... فصار اللفظ بهما سمجاً . (١)

فشروط البلاغيين – إذن – غير مطردة ، ولا منزهة عن الغلط . فكل كلمة فصيحة في ذاتها بليغة إذا أحسن استعمالها في سياقها وقامت بدلالة أو وظيفة لا تقدر كلمة أخرى عليها ... ومن هنا نرى أن كلمة (غطش) بقيت غريبة في قول الأعشى التالي بالقياس إلى الاستعمال القرآني :

وَيَهْمَاءَ بِاللَّيْلِ غَطْشَى الْفَلَا .·. ةِ يُؤْنِسُنِي صَوْتُ فَيَادِهَا (٢)

يقول الشيخ/ عبدالقاهر موضحاً سر اختيار لفظة معينة وإن كانت غريبة أو حوشية دون غيرها مما هو في الاستعمال مأنوساً وأن العبرة إنما هي بالموقعية السياقية أو المقام وبحسن النظم أو التأليف وملاءمة معناها لمعنى جاراتها : " وهل يقع في وَهْمٍ وإن جهِد أن تتفاضل الكلمتانِ المفردتان من غيرِ أن ينظر إلى مكانٍ تقعانِ فيه من التأليفِ والنظمِ بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبةٍ وحشية ، أو أن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن ومما يَكُدُّ اللسان أبعد ، وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسنِ الاتفاقِ بين هذه وتلك من جهة معناهما وبالقلقِ والنُبَّو عن سوء التلاؤم . وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفقاً للتالية في مُؤدَّاها " . (٣)

وقد أكد ذلك في رسالة الشافية فقال : " اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى ، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى ، ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له

---

(١) في جمالية الكلمة صـ ٤٨

(٢) في جمالية الكلمة صـ ٤٩ .

(٣) دلائل الإعجاز صـ ٥٢ ، ٥٣ .

أوعى ، والنفس إليه أميل " . [١] وكذا قوله : " أن يؤتَى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأَحرى بأن يُكسبه نُبلاً ويُظهر فيه مزيَّةً " . [٢]

كذا قول ابن الأثير : " إن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب؛ لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال ، وإنما هو شيء له خصائص وهيآت وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه " . [٣]

وهذا لا يعني أننا ننكر جمالية الكلمة أو بلاغتها في اللفظ المفرد ، ولكننا نقوي من ذلك في طريقة التخير اللفظي لموضوعه ومقامه ، وفق القاعدة البلاغية (لكل مقام مقال) . فجمالية الكلمة وفصاحتها لا يكمن في ذاتها ، ولا تستند إلى الذوق الرفيع ؛ ولا دقة أدائها لدلالتها في موقعها المناسب مع أخواتها وعدم تعارضها مع المنطق والفكر، .... وإنما يعود إلى ذلك كله ... فهي لذلك كانت من القرآن الكريم ، أكثر سمواً وجمالاً، فكانت اللفظة تؤكد فصاحتها وجماليتها في سياقها الذي لا يكون غيره ؛ " ولكل شيء موضع ، وليس يصلح في كل موضع ، وقد قسم الله الخير على المعدلة.[٤]

ولا يقدح في هذه الخفة – أيضاً – استعمال القرآن الكريم لما استعمله من المفردات المعربة التي كان العرب يستعملونها ؛ لخفتها أو للحاجة إليها لعدم وجود نظير لها في لغتهم ، فاختير للقرآن الكريم من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب . ومن ذلك استعماله المسك بدلاً من المشموم ؛ لأنه أخف منه ، كما في قوله تعالى : ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ . [٥]

يقول الجويني : " إن قيل إن (إستبرق) ليس بعربي وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة ، فنقول : لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن

---

(١) الرسالة الشافية – عبدالقاهر الجرجاني صـ ١١٧ – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .
(٢) دلائل الإعجاز صـ ٥٢ .
(٣) المثل السائر ١/ ١٥٧ .
(٤) في جمالية الكلمة صـ ٤٩ .
(٥) سورة المطففين الآية : (٢٦).

يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظة تقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عنها.... وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثخن ولا يتركه في الوعد لئلا يقصر في الحث والدعاء . ثم إن هذا الواجب الذكر، إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح أو لا يذكر بمثل هذا .... ولا شك أن الذكر بلفظ الواحد الصريح أولى لأنه أوجز وأظهر في الإفادة ، وذلك إستبرق فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه ؛ لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظه متعددة ، ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس ، ولم يكن لهم بها عهد ولا وضع في اللغة العربية للديباج الثخين اسم . وإنما عربوا ما سمعوا من العجم واستغنوا به عن الوضع لقلة وجوده عندهم وندرة تلفظهم به . وأما أن ذكره بلفظين فأكثر فإنه يكون قد أدخل بالبلاغة ؛ لأن ذكر لفظين لمعنى يمكن ذكره بلفظ تطويل ، فعلم بهذا أن لفظ (إستبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه ولا يجد ما يقوم مقامه ، وأي فصاحة أبلغ من ألا يوجد غيره مثله " . [1]

فكلمة (إستبرق) إذا احتيج إلى بديل لها يقال : الديباج الثخين ، ولم يستخدم العرب هذا اللفظ في استخدامهم ، وآثروا استخدام "إستبرق" .

فهذه الألفاظ وما ماثلها من كلام العجم في القرآن الكريم – نحو : (دراهم) في قوله تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [2] و"سجيل" في قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [3] ، وكلمة "سرادق" في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [4] ، و"المجوس" في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [5] – هي في مواضعها غاية البلاغة ،

---

(١) المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب – جلال الدين السيوطي – تح/ التهامي الراجي الهاشمي صـ ٦٣ ، ٦٤ – مطبعة فضالة – بإشراف صندوق إحياء التراث الإسلامي، المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة .

(٢) سورة يوسف الآية : (٢٠) .

(٣) سورة الفيل الآيتان : (٣ ، ٤) .

(٤) سورة الكهف الآية : (٢٩) .

(٥) سورة الحج الآية : (١٧) .

وهي قمة البلاغة في إيثارها ؛ لأنها تؤدي معانيها الدقيقة في عبارة موجزة ، فإن العرب لم تضع لفظًا تدل به على معنى ما عربته فلم تعد ثمة وسيلة للتعبير عنه سوى اختيار اللفظ المعرب ، أو الإتيان بأكثر من كلمة لأداء معناها .

٢. ثلاثية الكلمات القرآنية ودورها في خفة المفردة :

لم يستعمل القرآن الكريم جميع الألفاظ الفصيحة التي كان يستعملها العرب في شعرهم ونثرهم ومخاطباتهم ، وإنما اختار من هذ الألفاظ ألفاظاً لا تتعدى ثلث الألفاظ الفصيحة المستعملة في لغة العرب كما أشرنا . " فاستعمل من الألفاظ أمسها رحماً بالمعنى ، وأفصحها في الدلالة عليه ، وأبلغها في التصوير ، وأحسنها في النسق ، وأبدعها سناء ، وأكثرها غناء ، وأصفاها رونقا وماء ".[1] وهذه دراسة قام بها د/ علي حلمي موسى بتجربة حسابية رقمية على جذور الأرقام القرآنية مستخدماً الحاسوب . قارن منها الجذور للكلمات الواردة في آيات القرآن الكريم ، مع الجذور للكلمات في أبرز معاجم اللغة العربية ، وفيما يلي بعض الأرقام والإحصاءات التي خرج بها :

١. ألفاظ القرآن الكريم التي لها جذور هي الأسماء والأفعال : (٥١٨٩٩).
٢. ألفاظ القرآن الكريم التي أخذت من جذر غير ثلاثي . بعض منها مُعرّب مثل: برزخ وخردل وسلسبيل . عددها : (١٦٧) لفظاً . أي أن نسبة ألفاظ القرآن الكريم التي لها جذر ثلاثي : (٩٨ %) . فهو بحق " لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ "
٣. أكثر ألفاظ القرآن عدداً هي المبدوءة بحرف الهمزة وعددها : (٨١٧٠) ، ثم حرف القاف وعددها : (٤٠٧٩) .
٤. عدد الجذور الثلاثية للكلمات القرآنية المبدوءة بالهمزة هو : (٧٦) جذراً ، وعددها في الصحاح للجوهري (١٨٧) . أي أن القرآن الكريم استخدم : (٤٠%) من جذور الكلمات المبدوءة بالهمزة .

(١) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم صـ ١٩٢ .

٥. مجموع الجذور الثلاثية للكلمات القرآنية هو : (١٦٤٠) ، ومجموع الجذور الثلاثية في الصحاح للجوهري هو(٤٨١٤) أي أن القرآن الكريم استخدم ما نسبته (٣٤%).

وعلى هذا يكون القرآن الكريم قد استخدم أكثر من ثلث الجذور الثلاثية للألفاظ العربية ، في (٦٠٠) صفحة فقط من القطع المتوسط . [١]

وقد جعل د/ علي حلمي موسى استخدام القرآن الكريم لثلث الجذور الثلاثية المستعملة في لغة العرب على الرغم من كونه كتاباً محدود الحجم لوناً من الإعجاز البياني في القرآن الكريم لاسيما وقد استعمل كثيراً منها غير مكرر البتة أو مكرراً لمرة واحدة أو لمرتين إذ يقول : " ومن إعجاز البيان في القرآن الكريم كذلك أن يستخدم القرآن ثلث ألفاظ اللغة العربية (١٦٤٠) جذرًا (هذا لم يحدث لأي كتاب عرفه البشر، بالرغم من أن حجم القرآن ليس كبيرا) منهم (٣٧١) جذرًا يرد كل واحد منهم في القرآن مرة واحدة فقط ، أي أن (٢٣%) من جذور ألفاظ القرآن ترد مرة واحدة . (وهي نسبة تمثل قيمة بلاغية كبرى ؛ لأن استخدام اللفظ مرة واحدة بين أكثر من خمسين ألف من الألفاظ هو قمة البلاغة ، وإذا تم هذا فيما يقرب من ربع اللغة المستخدمة كان الإعجاز البلاغي عظيمًا ، فالروس يفخرون بأديبهم " ليو تولستوي" لأنه في روايته " الحرب والسلام" أورد كلمة واحدة فقط لمرة واحدة . كما أن هناك (١٩٦) جذرًا يرد في القرآن مرتان فقط ، كذلك (١١٨) جذرًا يرد كل واحد منهم ثلاث مرات فقط " . [٢]

أما عن استعمال الأصول الرباعية في القرآن الكريم فقد وردت فيه إلا أنها كانت قليلة جدًا بالنسبة للأصول الثلاثية المستعملة فيه وأكثرها من المضاعف الثنائي الذي فاؤه ولامه الأولى من جنس واحد وعينه ولامه الثانية من جنس واحد أيضا وهو ما عده الخليل بن أحمد في معجمه (العين) من قبيل الثنائي ، وعده غيره من قبيل الرباعي ، وبعضها معرب ومنقول من لغة أخرى ، فلم تكثر كثرة

(١) نقلا عن أرشيف ملتقى أهل التفسير ١/ ١٧٦٢ ، ١٧٦٣ .
(٢) ألفاظ القرآن الكريم دراسة علمية تكنولوجية – د/ علي حلمي موسى صـ٨٢ .

الثلاثي ولم تندر ندرة الخماسي ، وأكثرها قد ورد مرة واحدة فقط أي لم يرد مكررًا البتة ، وما كرر منها فأكثره ورودًا أربع مرات فقط . ومما استعمل من الأصول الرباعية في القرآن الكريم خَرْدَلٍ ، قِطْمِيرٍ ، حَصْحَصَ ، سَرْمَداً ، زُخْرُفَهَا ، عَسْعَسَ ، زُلْزِلَتِ ، بَرْزَخٌ ، تُوَسْوِسُ ، بعثر ، سُنْدُسٍ ، زُحْزِحَ ، صَرْصَرٍ ، صَلْصَالٍ ، رَفْرَفٍ ، عَبْقَرِيٍّ ، لؤلؤا ، زَنْجَبِيلًا ، فكبكبوا .

أما عن استعمال الألفاظ الخماسية الأصول في القرآن الكريم فقد كان نادرًا وما كان منه فهو غير عربي الأصل عند ابن الأثير إذ يقول : " لا يوجد في القرآن من الخماسي الأصول شيء ، إلا ما كان من اسم نبي عرّب اسمه ولم يكن في الأصل عربيا نحو إبراهيم وإسمعيل " [1] ، وأيده في ذلك الرافعي إذ يقول معللاً ذلك : " أما أن تكون اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء ؛ لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه ، إلا ما كان من اسم عرب ولم يكن في الأصول عربيًا : كإبراهيم ، وإسماعيل ، وطالوت ، وجالوت ، ونحوها ؛ ولا يجيء به مع ذلك إلا أن يتخلله المد كما ترى ؛ فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان".[2] ومما ورد من ذلك في القرآن الكريم أيضاً لفظ (سلسبيل ، وقمطرير ، وزمهرير) .

فبتتبع ألفاظ القرآن الكريم عن طريق معجم ألفاظ القرآن الكريم نجد كثرة اشتماله على الألفاظ الثلاثية الأصول عما عداها وإن لحقتها الزيادة بأكثر من حرف لواصق كانت أو لواحق حتى غدت الكلمة الثلاثية سداسية بل عشرية في بعض الكلمات ، وذلك جرياً على عادة العرب في استعمالهم لفصيح ألفاظ لغتهم التي عدت سيدة اللغات وأفصحها وأشرفها مكاناً وأحسنها وضعاً ، وأعذبها في اللسان نطقاً ، وألذها في السمع وقعاً ، وأكثرها بتركيب حروفها ائتلافًا ، وذلك

(١) المثل السائر ١/ ١٩١ .
(٢) تاريخ آداب العرب ١٥١/٢ ، ١٥٢ .

بشهادة غير العرب ممن يدعون الفضل للغاتهم وأنها أقدم اللغات وأحسنها كالفرس ، واليهود أو العبرانيين ، واليونانيين أمثال جالينوس كما ذكر ابن حزم .[١]

ونظراً لكثرة الألفاظ الثلاثية الأصول في مفردات القرآن الكريم عما عداها فإن علماء العربية والبلاغة القرآنية قد ذكروا من شروط الفصاحة في اللفظة المفردة في العربية : أن تكون معتدلة الوزن في التأليف ، قليلة الحروف ؛ وذلك ليسهل النطق بها ، وتكون لذيذة السمع ، طيبة المجرى على اللسان . ولا جدال في أن اعتدال الكلمة في تأليف حروفها يقربها من أذن السامع ، فلا يشعر بثقل نغمها الصوتي . يقول ابن الأثير : " من أوصاف الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً " .[٢] فالثلاثي أحسن من الثنائي والأحادي ومن الرباعي والخماسي .[٣] وجعل الإمام الباقلاني ذلك خصيصة من خصائص العربية وسرًا من أسرارها .[٤]

وقد تحدث القدماء عن أفضلية الثلاثي ، وذكروا أنّه هو البناء الأعدل بين الأبنية الأخرى ، وحاولوا تعليل ذلك بعلل مختلفة ، منها : أنه لا يوجد في الثلاثي ما يكره استعماله إلا الشاذ النادر ، أما الرباعي فإنه وسط بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عددا واستعمالاً ؛ وأما الخماسي فإنه الأقل ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر، وعلى هذا التقدير فإن أكثر اللغة مستعمل على غير مكروه ، ولا تقتضي حكمة هذه اللغة الشريفة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك " .[٥] ومنها : كثرة استعمال الثلاثي لخفته ، وقلة استعمال غيره لثقله أو لقلة دورانه .[٦] ومنها : أن الثلاثي أعدلها تركيباً لتوسطه بين كثرة الحروف وقلتها كما ذكر ابن جني – رحمه

(١) انظر تفصيل ذلك في : الخصائص ٢٤٣/١ ، ٢٤٤ ، والصاحبي لابن فارس صـ١٩، والمثل السائر ١/ ١٩٣ ، ومفاتيح الغيب للرازي ٨٣/٢٧ وما بعدها ، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون – حاجي خليفة ٤٤/١ – مكتبة المثنى بغداد١٩٤١م ، وروح المعاني ١٧٣/١٢ و١٨٥/١٣ ، والتحرير والتنوير ٢٥ /٣٦ ، وأبجد العلوم ٩/٢ ، ٤٤ .
(٢) المثل السائر ١٩٠/١ .
(٣) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ١٥٩/١ .
(٤) إعجاز القرآن للباقلاني صـ ١١٨ .
(٥) المثل السائر ١٥٨/١ .
(٦) مقدمة ابن خلدون صـ ٣٥٤ .

الله – وأخف وأمكن من الثنائي – على قلة حروفه – ولا محالة أنه أخف وأمكن من الرباعي لكثرة حروفه . ثم لا شك فيما بعد في ثقل الخماسي وقوة الكلفة به.[١] ووافقه على ذلك حازم القرطاجني.[٢]

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم في استعماله لألفاظ اللغة قد كثرت فيه الألفاظ الثلاثية الأصول وقلت فيه الرباعية وندرت فيه الخماسية وكادت تتلاشى إلا ما كان من اسم نبي عرب – كما سبق – أو لفظاً أعجمياً ، أو من لهجة عربية فصيحة ، إلا أنه قد استعمل ألفاظاً طويلة جدا تبلغ عدتها بالزيادة على أصولها تسعة أحرف أو عشرة أحرف وإن كانت في الأصل مرجعها إلى الثلاثية أو الرباعية ، وهذا ما وضحه الرافعي في قوله : " وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستثقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه ، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً ، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة ، وأعذبها منطقاً ، وأخفها تركيباً ، إذ تراه قد هيّأ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف ، وتنوع الحركات ، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها كقوله : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾ ، فهي كلمة من عشرة أحرف ، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ، ومن نظم حركاتها ، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات ، إذ تنطق على أربعة مقاطع . وقوله : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ﴾ ، فإنها كلمة من تسعة أحرف ، وهي ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر

الفصاحة في الكلمة كلها " .[٣]

فاستعمال القرآن الكريم الألفاظ الزائدة على ثلاثة أحرف قليلة جدا بالنسبة لما استعمله من الألفاظ الثلاثية ، وذكر بعضهم أن غير الثلاثي في القرآن الكريم

(١) الخصائص ١/٥٦ . ٦٢ بتصرف .
(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ١/١٥٩ .
(٣) تاريخ آداب العرب ٢/١٥١

لا يزيد عن ثمانمائة لفظة . [١] وذلك حتى تكون الكلمة طيبة المجرى على اللسان ، خفيفة في الفم ، تقع على السمع أحسن موقع ، وأجمل مسمع . [٢]

٣. حسن وقع المفردة القرآنية في السمع :

جعل بعض العلماء وفي مقدمتهم ابن الأثير حسن وقع المفردة في السمع لأنها مكونة من أصوات تأتلف عن مخارج الحروف وصفاتها وجرسها معياراً حاكما في الحكم على فصاحة المفردة وجماليتها أو العكس حيث يقول : " الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح. ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير ، وصوت الشحرور ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس. والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة "المزنة" و"الديمة" حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة "البعاق" قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر، وهي تدل على معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظتي "المزنة" و"الديمة" وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال ، وترى لفظ "البعاق" وما جرى مجراه متروكاً لا يستعمل ، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير ذوق سليم " . [٣]

وكذا قوله : " من له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار، وصوتاً منكراً كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم ". [٤]

فكأن للأذن مستوى من الاستيعاب الجمالي ؛ فتَجْمُل الأصوات حين تفد على الأذن بترتيب صوتي متناسق ومتآلف ومتجانس مع المعنى ، وتَقْبُح حين ترتفع عن

---

(١) الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية – د/ فضل حسن عباس – مجلة مركز بحوث السنة والسيرة – العدد (الرابع) صـ ٥٠٦ – ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
(٢) من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) صـ ١٤.
(٣) المثل السائر ١/ ٨١ ، ٨٢ .
(٤) المثل السائر ١/١٥٦ .

هذا الترتيب أو تهبط دونه . ويقول أيضاً : " الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، وإنما كان ظاهراً بيّنا لأنه مألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ، والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ ؛ لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بفصاحة ؛ لأنه ضدها لمكان قبحه ، فإن قيل : إنك قلت : " إن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيّن ، أي المفهوم" ، ونرى من آيات القرآن ما لا يفهم ما تضمنه من المعنى إلا باستنباط وتفسير، وتلك الآيات فصيحة لا محالة ، وهذا بخلاف ما ذكرته . قلت : لأن الآيات التي تستنبط وتحتاج إلى تفسير ليس شيء منها إلا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة ؛ وإنما التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب ، لا من جهة ألفاظه المفردة ؛ لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب ، ويصير له هيئة تخصه ، وهذا ليس قدحاً في فصاحة تلك الألفاظ ؛ لأنها إذا اعتبرت لفظة لفظة وجدت كلها فصيحة : أي ظاهرة واضحة " . (١)

ومما هو من قبيل هذه الظاهرة استعمال بعض مفردات القرآن الكريم في صورة الجمع دون المفرد ؛ لأنه أخف نطقاً وأحسن سمعاً ، والعكس . فمن وسائل القرآن الكريم في اختياره وانتقائه لمفرداته اللغوية بما يحقق التناسب الصوتي ، والانسجام التركيبي للآيات القرآنية ؛ اعتماده توظيف بعض المفردات في صورتها المفردة فقط في سياقات معينة ، أو توظيفها في صورتها الجمعية فقط في سياقات محددة ، وما ذاك إلا مراعاة لاستعمال الأخف نطقاً والأحسن سمعاً ووقعاً من هذه المفردات والأكثر استعمالاً ، وقصداً لما يراد من وراء هذا الاختيار من توابع دلالية وجمالية موظفة في هذه السياقات . يقول أحد الباحثين المحدثين : " كلما أمعنا الفكر في أسرار الألفاظ عند استعماله في أساليب القرآن الكريم ، ودققنا النظر حينما ترد في آي الذكر الحكيم ، واستوفينا الكشف عنها في التعبير القرآني ، وجدنا أسرارًا عظيمة ولطائف عجيبة ، ورأينا أنه يذكر في كل موضع ما يلائمه

(١) السابق ٨٢/١ .

منها ، ويوضع كل لفظ في محله الذي يليق به ، فنشاهد في تعبيرات القرآن الكريم أنه تارة يستعمل المفرد دون جمعه ، وتارة أخرى يستعمل الجمع دون مفرده ، ولو حاولنا التغيير والتبديل ، أو إحلال أحدهما محل الآخر فسد التعبير وذهبت حلاوته ، وفاتته طلاوته " . (١)

ومن ذلك ورود لفظ (الألباب) مجموعا في القرآن الكريم ولم يستعمل المفرد (لب) مع أن هذه اللفظة الثلاثية خفيفة على النطق ، ومخارجها بعيدة ، وليست بمستثقلة ولا مكروهة وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافا إليها ؛ أما كونها مضافا إليها فكقولنا: لا يعلم ذلك إلا ذو لب ، وإن في ذلك لعبرة لذي لب ... إن كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع أو الإضافة فإنها لا تأتي حسنة كما ذكر ابن الأثير . (٢) خلافاً للرافعي الذ دلل على ثقل المفرد وخفة الجمع في قوله : " ومما لا يسعه طوق إنسان في نظم الكلام البليغ ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر وكأنها صبت على الجملة صباً ، أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعًا ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها : كلفظة "اللب" فإنها لم ترد إلا مجموعة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٣) ، وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٤) ونحوهما ، ولم تجئ فيه مفردة ، بل جاء في مكانها (القلب) ، وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة ؛ تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها ؛ نصبًا ، أو رفعًا ، أو جرا ؛ فأسقطها من نظمه بتة ، على سعة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة ، وهذا على أن فيه لفظة (الجب) ، وهي في وزنها ونطقها ، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة

(١) من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) صـ ١٢١ .
(٢) المثل السائر ١/ ٢٧٨ .
(٣) سورة الزمر من الآية : (٢١).
(٤) سورة إبراهيم من الآية : (٥٢).

. وكذلك لفظة (الكوب) ، استعملت فيه مجموعة ولم يأت بها مفردة ؛ لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ (أكواب) الذي هو الجمع . [١] يقول ابن الأثير : " إذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر في رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعي فيها الجمع دون الإفراد كلفظة كوب ، فإنها وردت في القرآن مجموعة ، ولم ترد مفردة ، وهي وإن لم تكن مستقبحة في حال إفرادها فإن الجمع فيها أحسن ، لكن قد ترد مفردة مع ألفاظ أخر تندرج معهن فيكسوها ذلك حسنا ليس لها ".[٢] وكذلك وظف القرآن الكريم كلمة (أرجاء) مجموعة دون توظيف مفردها في موضعها الوحيد في قوله تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [٣] ذلك لأن مفرد كلمة (أرجاء) الذي هو (رَجى) وهو مقصور ، ليس فيه من العذوبة والرقة ما في جمعه " . [٤]

يقول ابن الأثير : " لما وردت هذه اللفظة مجموعة ألبسها الجمع ثوباً من الحسن لم يكن لها في حال كونها موحّدة ، وقد تستعمل موحدة بشرط الإضافة ، كقولنا : رجا البئر " . [٥]

ومن ذلك – أيضاً – توظيف القرآن لكلمة (جَدَث) مجموعة دون المفرد كما في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [٦] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [٧]. ولعل سبب هذا العدول عن توظيف مفرد الكلمة ما في هذا المفرد من الثقل بسبب اجتماع حرفين متقاربين في المخرج الصوتي هما (الدال) و(الثاء) ، فلما فُصِل

(١) تاريخ آداب العرب ٢/ ١٥٣.
(٢) المثل السائر ١/ ٢٧٨ .
(٣) سورة الحاقة الآية : (١٧).
(٤) تاريخ آداب العرب ٢/ ١٥٣.
(٥) المثل السائر ١/ ٢٧٨ .
(٦) سورة يس الآية : (٥١) .
(٧) سورة المعارج الآية : (٤٣) .

بينهما بألف المد في صيغة الجمع خف اللفظ ، وراق وعذب ، ولذا تم العدول عن هذا اللفظ المفرد إلى الجمع . [١]

كذا استعمل القرآن لفظ الجمع (أصواف) ؛ لأن المقام له ، فالمراد : أصواف عدة ومتنوعة في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ [٢] ولم يستعمل لفظ المفرد ، ولما احتاج إلى استعمالِ مفرد (الأصواف) جاء بما يخالف المفرد في لفظه ، فقال – تعالى – في وصف يومِ القيامة : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنفُوشِ﴾ [٣] والعهن هو الصوف الذي قَد يكون ملَوناً مندوفاً ، واختياره في الآية أَليق بتصويرِ تخلخل الجبال يوم القيامة ، وهو أَدل على

الإعجاز العلمي ؛ لأن الجبال متنوعة الألوان . [٤]

فالقرآن الكريم قد يهجر التعبير بالكلمة المفردة إذا لم تكن فيها العذوبة التي تسم جمعها ، وذلك مراعاة لجرس الكلمة ، وخفة سريانها وجريانها على اللسان .

وعلى عكس هذا التوظيف لبعض المفردات في حالة الجمع دون مفردها ، نجد القرآن الكريم يوظف مفردات في هيئة المفرد دون العروج على جمعها ، وذلك مثلما نلحظ في توظيف كلمة (الأرض) التي لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة دائماً في كل المواضع التي ذكرت فيها والبالغ مجموعها (٤٦١ أربعمائة وواحد وستون موضعاً) بكل صورها ؛ من التعريف والتنكير وشتى الحالات الإعرابية . وحتى إذا ذكرت كلمة (السماء) مجموعة جيء بكلمة (الأرض) معها مفردة في كل موضع يقول الرافعي موضحاً حقيقة ذلك : " وعكس ذلك لفظة (الأرض) ؛ فإنها لم ترد فيه

---

(١) جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم صـ ١٨٤

(٢) سورة النحل الآية : (٨٠) .

(٣) سورة القارعة الآيتان : (٤ ، ٥) .

(٤) الألفاظ التي لم تتكرر في القرآن – رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية / جامعة أم القرى في في مكة المكرمة للباحث / حسين حسن سعيد الزهراني صـ ١٢٩ – ١٤٣١هـ/٢٠١٠م .

إلا مفردة ، فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة في كل موضع منه ، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها ، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة ، وهي في قوله تعالى : ﴿اللَّـهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ولم يقل : وسبع أرضين ؛ لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالًا ، وأنت فتأمل – رعاك الله– ذلك الوضع البياني ، واعتبر مواقع النظم ، وانظر هل تتلاحق هذه الأسباب الدقيقة أو تتيسر مادتها الفكرية لأحد من الناس فيما يتعاطاه من الصناعة ، أو بتكلفة من القول ، وإن استقصى فيه الذرائع ، وبالغ الأسباب ، وأحكم ما قبله وما وراءه " . (١)

وعلل ذلك أحد الباحثين المحدثين بقوله : " السبب يكمن في طريقة اختيار الكلمة المناسبة للمقام ، والأليق في التعبير ، والأخف على اللسان ، والأوقع في السمع ، وازن بين كلمة (السموات) وكلمة (الأراضون) فأيهما أخف على اللسان وأوقع في السمع ؟ ولهذا قال العلماء : إن هناك فارقاً لفظياً ، وفارقاً معنوياً . فأما الفارق اللفظي : فإنه لو جمع الأرض على قياس جموع التكسير لقالوا (آرُض) على قياس (فلس وأفلس) ، أو (آراض) على قياس جمل وأجمال ، أو (أُروض) على قياس فلس وفلوس ، فاستثقلوا هذه الجموع كلها ، إذ ليس فيها من الفصاحة والحسن والعذوبة ما في لفظ السموات . ولهذا الثقل المشاهد تفادى القرآن جمعه إذا أراده بثلاثة ألفاظ تدل على العدد قال تعالى: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) ... وأما المعنوي : فالأرض هي دار الدنيا التي هي بالإضافة إلى الآخرة شيء قليل ... والله – ﷻ – لم يذكر الدنيا إلا مقللاً لها ومحقراً لشأنها . والجمع فيه معنى التعظيم . وأما السموات فهي مقر الملائكة ، ومحل دار جزائه ، ومهبط ملائكته ووحيه ... وحيث أريد العدد جاء التعبير بصيغة الجمع الدال على سعة العظمة ، وحيث أريد الجهة كان التعبير بصيغة الإفراد ... " . (٢)

---

(١) السابق ٢/١٥٤ .

(٢) من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) صـ ١٢١ : ١٢٤ بتصرف .

كما نلحظ أن لفظ السماء قد ورد في القرآن الكريم مجموعاً تارة ومفرداً تارة أخرى، فكلما عبر بلفظة (السماء) مفردة فإن ذلك يكون في سياقات تتطلب هذا الإفراد ، مثلما نلمسه في : إثبات صفة العلو له – ﷻ – كما في قوله : ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ (١) . والدلالة على عموم الرزق كما في قوله : ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢) . وإرادة عموم الجنس كما في قوله : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (٣) . ومناسبة المقام كما في قوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (٤) .

وما هذا كله إلا تأكيد لما نهجه القرآن الكريم من منهج دقيق في انتقاء كلماته مراعياً سياقها الجمالي ، ونسقها الصوتي ، وارتباط هذا النسق الصوتي بالدلالات النصية في القرآن الكريم . (٥)

فجمع كلمة (الأرض) – إذن – ليس فيه من الفصاحة والحسن والعذوبة ما في لفظ السماوات ، وأنت تجد السمع ينبو عنه بمقدار ما يستحسن لفظ السماوات ولفظ السماوات يلج في السمع بغير استئذان لنصاعته وعذوبته .

ومن ذلك – أيضاً – استعمال لفظ (السمع) مفرداً دائماً ، والأبصار مجموعاً دائماً. يقول ابن الأثير : " اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج " . (٦)

(١) سورة الملك من الآية (١٦) .
(٢) سورة الذاريات الآية (٢٢) .
(٣) سورة الذاريات الآية (٢٣) .
(٤) سورة الروم من الآية (٤٨) .
(٥) العدول الصرفي في القرآن الكريم صـ ٢٧.
(٦) المثل السائر ١٨١/١ .

ثالثًا : الاقتران اللفظي ودوره في بيان جمالية المفردة القرآنية وإبداعها اللفظي والدلالي :

لقد أحس القدماء أن الألفاظ تميل إلى الاقتران بألفاظ أخرى يلتمسونها في كلام العرب " فقد خصص العرب ألفاظاً لألفاظ ، وقرنوا كلمات بأخرى ، ولم يقرنوها بغيرها ، ولو كان المعنى واحدًا " . (١) وقد اصطلحوا على تسمية هذه الظاهرة باسم الاقتران اللفظي أو المصاحبة اللفظية ومن ثم عرفوها بأنها : الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة دون غيرها " . (٢)

وبتأمل المفردات في النظم القرآني نجد بعضاً منها يميل إلى الاقتران بمفردات أخرى تقع في سياقها ، وتنتظم في تركيبها ، وتطرد في غالب الآيات التي تحمل تلك المفردة ، ومن ذلك اقتران الحلِف بالكذب ؛ لأن الحلِف يقع في القرآن الكريم ويراد به الأيمان الكاذبة ، بخلاف القسم فهو يدل على عظم اليمين ويقع غالباً في اليمين الصادق ، ومن اقتران الحلف بالكذب قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ (٦)

ومن ذلك – أيضاً – اقترن المَس بالضُر– بالضم – ؛ لأن الضر لا يقع إلا في البدن في حين اقترن الضَر– بالفتح – بالنفع ؛ لأنه يدل على الضرر عموماً ، كما أن النفع يدل على النفع عموماً . ومن اقتران الضُر بالمس قوله تعالى : ﴿وإن

(١) فقه اللغة وخصائص العربية – محمد المبارك صـ ٣١٥ – ٣١٦.
(٢) علم الدلالة – د/ أحمد مختار عمر صـ ٧٤ – عالم الكتب – ط/ رابعة ١٩٩٣م.
(٣) سورة المجادلة الآية : (١٤) .
(٤) سورة التوبة الآية : (٤٢).
(٥) سورة التوبة من الآية : (١٠٧).
(٦) سورة المجادلة الآية : (١٨) .

يَمْسَسْكَ اللَّـهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَـهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) ، وقوله : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢)

وبالرجوع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم يتبين أن غالب آيات الضُر قد اقترن بها المس ، أما اقتران النفع بما يضاده من الضَر فمنه قوله تعالى : ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ المَوْلَى وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ (٣) ، وبالرجوع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم يتبين أن جميع آيات الضَر قد اقترن بها النفع إلا آية الجن ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلاَ رَشَداً﴾ (٤) وقد تحدثت في المبحث الثاني عن القيمة التعبيرية لكلا اللفظين : الضر بفتح الضاد وضمها .

ومن ذلك – أيضاً – اقتران لفظ الصبح بلفظ تنفس في قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (٥) ؛ وذلك لقيمة دلالية وجمالية لا تتضح إلا عن طريق هذا الاقتران إذ تقول : طلع الفجر ، ولا تقول : تنفس الفجر كما في قوله تعالى : ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾ (٦) ، وتقول : تنفس الصبح ، ولا تقول تقول : طلع الصبح كما في الآية الكريمة . مما يدل على عدم ترادف اللفظين (الفجر والصبح) ؛ وذلك لانفراد كل منهما بخاصية معنوية ونظم أو تركيب معين إذ يقترن كل منهما بلفظ لا يصح أن يقترن به الآخر أي : يصاحبه ويلازمه في التركيب . يقول الباقلاني : " أنت تحسب أن وضع لفظ (الصبح) موضع (الفجر) يحسن في كل كلام ، إلا أن يكون شعراً أو سجعاً . وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع ، وتَزِلّ عن مكان لا تَزِلّ عنه اللفظة الأخرى ، بل

(١) سورة الأنعام الآية : (١٧).
(٢) سورة يونس الآية : (١٢).
(٣) سورة الحج الآية : (١٣).
(٤) سورة الجن الآية (٢١) .
(٥) سورة التكوير الآيتان (١٧ ، ١٨) .
(٦) سورة القدر الآية (٥) .

تتمكن فيه ، وتضرب بجرانها . وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار ، ومرمى شراد ، ونائية عن استقرار " . [١]

أما عن القيمة الجمالية في هذا الاقتران اللفظي أو المصاحبة اللفظية للفظ (تنفس) مع الصبح خاصة فقد بينها أحد الباحثين المحدثين في قوله : " إن شئت فانظر في قوله تعالى : (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) تجد من الروعة والجمال باجتماع كلمتي الصبح والتنفس ما لا تجده لو جيء بأي كلمة لتوضع مكان إحدى الكلمتين بهذا التأثر، فإن كلمة الفجر إذا تنفس لم تخالط نفسك هذه الروعة ، ولم تحس بهذا التأثر ؛ لأن كلمة الفجر وإن كانت رديفة لكلمة الصبح فهي تختلف معها في الاشتقاق ؛ لأنها مشتقة من الانفجار ، وهذا يعني أن الفجر أول سطوع ينشق عنه ظلام الليل ، والصبح مأخوذ من الإصباح وهو سريان الضوء لتمزق رداء الظلام الذي يجلل الفضاء ؛ ولذلك كانت كلمة الصبح هنا أليق وأنسب من كلمة الفجر لاقترانها بذكر التنفس ، والتنفس دليل الحياة ؛ لأنه عبارة عن جذب الأنفاس إلى داخل الجسم وإخراجها منه ، وبدخول الأنفاس في الجسم تعطي الجسم مادة الحياة وخروجها استمرار للحياة ، وهذا لا يناسب ذكر الفجر كما يناسب ذكر الصبح ؛ لما تصوره جملة (والصبح إذا تنفس) من ذلك المشهد الذي ينساب فيه ضوء الصباح في الفضاء فيطوي رداء الظلام وتسري الحياة في عالم الأرض فتغني الطيور وتحيا الحركة إذ ترى الناس بين آت وذاهب يغدون إلى أعمالهم ، والحيوانات تنطلق من مرابضها ساعية وراء رزق الله ، والأشجار تستقبل أزهارها وأوراقها هذا الضياء استقبال العاشق لمعشوقه " .[٢]

ويقول الإمام العلامة/ محمد أبو زهرة مبيناً دور المصاحبة اللفظية في بيان القيمة التعبيرية والخصوصية المعنوية لكلا اللفظين ، وكذا دورها في إيضاح جمالية المفردة (تنفس) والكشف عن إبداعها في موضعها أي اقترانها بالصبح دون غيرها مما يصح الاقتران به نحو : أشرق ، أو أنار ، أو أضاء : " اقرأ قوله تعالى :

(١) إعجاز القرآن صـ ١٨٥ .
(٢) الاعجاز اللغوي والبياني في القرآن صـ ٤٦٦ .

{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّس}، فإننا لو أردنا تغيير كلمة من هاتين الكلمتين لتغيرت الصورة البيانية ، ولننظر فيهما.

الكلمة الأولى : وهي الصبح ، فإنها تدل على النور الذي يتخلل الظلمة ، ويسري فيها شيئًا فشيئًا ، وينبعث في هذا الوجود فيملؤه نورًا ، وتنبعث من بعده الحياة ، ويخرج الناس إلى معايشهم بعد سبات الليل وسكنه ، وما يغشى به الكون من لباس الظلمة . ولا شك أن كلمة الفجر قد تدل على بعض معاني كلمة الصبح ، والعلماء يعدونهما من المترادفين ، ولكن عند التحقيق نجد كلمة الفجر تدل على معنى شق الظلمة ، وعلى مجرد ابتداء نهاية الظلمة ، ولذلك يقترن بها ذكر الليالي ، كما قال تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [1] ، فقد كان ذكر الليالي مع الفجر متناسبًا ؛ لأن الليل متآخٍ مع الفجر في معناه ، وقصد به مجرد نهاية الليالي . ولكن كلمة الصبح لوحظ فيها الإشارة إلى ابتداء النهار ، فإذا كان وقت الفجر والصبح واحدًا فإن الفجر فيه بيان إنهاء الليل ، والصبح ابتداء النهار ، ولذا يستحين الناس أن يقال : طلع الفجر ، ولا يقال : طلع الصبح بل يقال : أشرق الصبح ، وهنا نجد المعنى واحدًا في الجملة ، ولكن الدلالة اللغوية الدقيقة مختلفة ، فهذا إشراق وذاك إنهاء .

والكلمة الثانية : كلمة {تَنَفَّس} فإنَّ كلمة التنفس في ذاتها تدل على بدء مظاهر الحياة شيئًا فشيئًا ؛ وذلك لأن أصل التنفس من النفس ، وهي الحياة ، وهي أيضًا الريح، وهي الحركة الدائمة المستمرة في الداخل والخارج ، فهي تشمل ما يدخل في النفس من أسباب الحياة ، وما يخرج منها لتستمر الحياة ، ويقال : نفس عني ، أي : فرج عني ، وبذلك يكون كلمة التنفس يندرج فيها ثلاثة معانٍ تتصل بالحياة الدائمة المستمرة ، أولها: التنفس بمعنى الحياة ، وثانيها : حركتها واستمرارها ، وثالثها : تدرجها في الظهور شيئًا فشيئًا ، ولو أنك وضعت كلمة أشرق بدل تنفس ، كأن يقال – ولكلام الله تعالى المثل الأعلى – : " والصبح إذا أشرق ، أو أصبح أو أنار أو أضاء " ، فإن كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام

(١) سورة الفجر الآيات : (١ ، ٢ ،) .

تنفس ، ولا تغني غناءها . ولو أننا تركنا لفظ تنفس بانفرادها ، وتابعناها مقترنة بكلمة الصبح ، وهو النور الذي يبتدئ به النهار ، ونظرنا ما يصوره قوله تعالى : {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّس} ورأينا كل حي في الوجود ، يفيض عليه الإصباح بالعمل والحركة ، فالندى يصيب الزهور ، والضوء يضيء الحدائق الغناء ، والطيور تزقزق بموسيقاها ، وينبعث كل من في الوجود خارجًا من لباس الليل إلى معاش النهار، فالزارع يخرج إلى حقله ، والماشية تنبعث من مرابضها ناعقة فرحة سائرة إلى المراعي ترعاها والكلأ تنتجعه ، والصبيان يخرجون من أكنانهم كما تخرج الطير من أكنانها ، وكل ما في الوجود يخرج مما يخفيه الظلام . وهكذا نجد كل مظاهر الحياة تندرج في الظهور ، حتى يصل إلى الضحى ، فيكون المعترك القوي الصاخب اللاغب ، فهل ترى كلمة تدل على هذه المعاني أبلغ من كلمة : والصبح إذا تنفس ، وبهذا يتبين أن ألفاظ القرآن الكريم كل كلمة في حيزها ، لا يملأ غيرها في موضعها فراغها " .[1]

وبهذا يظهر أن البلاغة كما تكون في الجمل تكون في المفردات أيضاً مع الترتيب، إذ يناط بكل مفردة في سياقها أداء الأغراض والدلالات التي قصدت من وراء توظيفها في هذا السياق ، وإن كانت الكلمات المفردة لا يتجلى جمالها ولا يسطع ضياؤها إلا إذا قرنت بما يناسبها بحيث تكون كل واحدة منها آخذة بحجزة أختها بحسب ترتب المعاني في النفس .

رابعًا : المجاز ودوره في بيان جمالية المفردة القرآنية وإبداعها اللفظي والدلالي

لا خلاف بين العلماء في كون المجاز خلاف الأصل ؛ لأنه يتوقف على الوضع الأول ، والمناسبة ، والنقل وهى أمور ثلاثة . والحقيقة على الوضع وهو أحد الثلاثة ، فكان أكثر ؛ ولأن المجاز لو ساوى الحقيقة لكانت النصوص كلها مجملة ، بل المخاطبات . فكان لا يحصل الفهم إلا بعد استفهام وليس كذلك . [2]

(١) المعجزة القرآنية – الإمام/ محمد أبو زهرة صـ ٨٤ ، ٨٥ – دار الفكر العربي .
(٢) المزهر ١/٣٦١ .

ومما يدل على أن الحقيقة هي الأصل ، وأن المجاز خلاف الأصل : أن المجاز هو المنقول إلى معنى ثان لمناسبة شاملة ، والثاني له أول ، وذلك الأول لا يجب فيه المناسبة ... كما أنه أيضاً إذا دار اللفظ بين احتمال المجاز واحتمال الحقيقة فاحتمال الحقيقة أرجح . [١] فالكلام لا يحمل على المجاز إذا أمكن حمله الحقيقة وذلك مثل قوله تعالى : ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[٢] فالمراد بعبده رسول الله محمد – ﷺ – ، وأن النذير في الآية هو هذا العبد ، وبهذا فسره الإمام الرازي ، ولم يرتض رأى من ذهب إلى أن النذير هو الفرقان ؛ لأنه ذهاب إلى المجاز مع إمكان الحقيقة . [٣]

وإذا كانت دلالة اللفظ على معناه الحقيقي هي الأصل ، والمجاز بخلاف الأصل ، بل إذا كانت الحقيقة مقدمة على المجاز عن عدم وجود القرائن ، فلم يُعْدل عن الحقيقة إلى المجاز ؟ حدد ابن جنى ثلاثة أهداف مترابطة يتم بها العدول من الحقيقة إلى المجاز هي : الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه . [٤] كما ذكر القدماء عدة أسباب لوقوع المجاز في اللغة منها : حقارة معنى الحقيقة ، وأن يكون في المجاز تعظيم ، والتغير الاجتماعي والثقافي ، وما أحدثه مجيء الإسلام كان له أثر في نقل استخدام الألفاظ من الحقيقة إلى المجاز وقد نقل رسول الله – ﷺ – الأسماء الشرعية من دلالتها اللغوية إلى دلالتها الشرعية الخاصة وهذا نقل مجازى ، ومنها : ثقل لفظ الحقيقة على اللسان . [٥] يقول البارزي : " لأجل التخفيف والاختصار استُعْمِل لفظُ الرحمة والغضب والرِّضَا والحُبِّ والمَقْتِ في أوصاف اللَّه تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة لأنه لو عبَّر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام كأن يقال يعامله معاملة المُحِبِّ والماقت فالمجاز في مثل هذا أفضل من

(١) السابق نفسه .
(٢) الفرقان آية : (١) .
(٣) المباحث البيانية في تفسير الرازي دراسة بلاغية تفصيلية – د/ أحمد هنداوي هلال صـ ١٨٥ – مكتبة وهبة – ط/ أولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩.
(٤) ينظر تفصيل ذلك في : الخصائص ٤٤٤/٢ ، ٤٤٥ ، وكتابنا بحوث دلالية صـ ١٣١ وما بعدها.
(٥) الإتقان في علوم القرآن ٢٦/٤ .

الحقيقة ؛ لخفته واختصاره وابتنائه على التشبيه البليغ فإن قوله : {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ } [1] أحسن من " فلما عاملونا معاملة المغضب" أو " فلما أتوا إلينا بما يأتيه المُغْضَبُ " . [2]

أما عن أهمية معرفة المفسر بالمعنى المجازي في المفردات القرآنية فتبدو في أن الجهل بالمجاز يؤدى إلى الخطأ الشنيع في تفسير القرآن الكريم . ويصرح الزمخشري في مقدمة تفسيره (الكشاف) بأنه لا يستطيع أحد أن يفسر القرآن على وجهه الصحيح إلا إذا كان عالماً بعلمي البيان والمعاني . [3]

ومجازات القرآن وتمثيلاته وكناياته كثيرة وكلها في نهاية الروعة وفى أسمى درجات البلاغة . [4]

فمجاز القرآن في الذروة من البيان العربي ، والقرآن كتاب العربية الأكبر ، وهو ناموسها الاعظم ، يحرس لغتها من التدهور ، ويحفظ أمدادها من النضوب ، ويقوّم أودها من الانحطاط . وقد كان إعجازه البياني موردا متأصلا من موارد إعجازه الكلي ، وتفوقه البلاغي حقيقة ناصعة من تفوقه في الفن القولي ، وقد وقف العرب عاجزين أمام حسّه المجازي ، وبعده التشبيهي ، ورصده الاستعاري ، وتهذيبه الكنائي ، وأعجبوا أيما إعجاب بوضع ألفاظه من المعنى المراد حيث يشاء البيان السّمح؛ والإرادة الاستعمالية المثلى ، تأنقا في العبارة ، وتحيزا للمعاني ؛ فلا غرابة أن يكون القرآن مصدرا للثروة البلاغية الكبرى عند العرب ، وأصلا لتفجير طاقات تلك البلاغة ، والمجاز منها عقدها الفريد . ولذلك يرى بعض البلاغيين :

---

(١) سورة الزخرف من الآية : (٥٥).

(٢) ينظر تفصيل ذلك في : دراسة المعنى عند الأصوليين د/ طاهر سليمان حمودة صـ ١٠١ ١٠٢ – دار الجميل ٢٠٠١م ، والمجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع – د/ عبد العظيم المطعني ٥٦٢/١ – مكتبة وهبة – ط/ثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، والعربية خصائصها وسماتها – د/ عبد الغفار هلال صـ ٤٣٠ – مطبعة الجبلاوي/ مصر – ط/ رابعة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

(٣) الكشاف ٢/١ .

(٤) دلالة الألفاظ – د/ إبراهيم أنيس صـ ١٦٠ – الأنجلو المصرية ١٩٩٧م.

أن المجاز هو علم البيان بأجمعه ، وأنه أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة ؛ لأن العبارة المجازية تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال حتى أنه ليسمح بها البخيل ويشجع الجبان . (١)

ومن نافلة القول التوسع في بحث إمكان وقوع المجاز في القرآن دون طائل فقد ثبت وقوعه دون أدنى شك في كوكبة متناثرة من ألفاظه تعد في القمة من الاستعمال البياني . (٢)

فقد اتخذ القرآن الكريم مفردات معينة لإقامة علاقات جمالية بينها وبين سائر الجملة أو الصورة القرآنية وهذا يوحي بشيئين :

١. أهمية هذه اللفظة أو تلك في بناء صورة أدبية عامة .
٢. جمالية اللفظة المفردة لتكوين الصورة الأدبية المطلوبة .

وبالنظر في هذه المفردات المجازية والتي تتسم بالجمالية في موضعها نجد منها مفردات مشرقة باسمة موحية بمشاعر الرضى والبهجة مثل : الروح ، الهدى ، الحياة ، الوجه ، الناصية . ومنها مفردات ذات دلالة خاصة مثل : غشاوة ، أكنة ، الحجاب ، سكارى ، المرض . ومنها مفردات مهيبة مروعة موحية بظلال القوة والحزم مثل : حديد ، الختم ، الطبع ، السوء ، ربطنا ، الموت الصدع . ومنها مفردات عفة مهذبة الدلالة بعيدة عن التهافت والابتذال مثل : تغشاها ، الحرس ، الملامسة ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، النكاح ، هيت لك والقرآن قد اختارها واختار معها أن يرصفها في صورة معبرة أو ينقلها إليها فتزداد حسناً . (٣)

أما عن الفائدة من استعمال المفردة القرآنية في معناها المجازي بدلاً من استعمال غيرها في ذات المعنى على سبيل الحقيقة ومدى علاقة ذلك بجمالها وإبداعها اللفظي والدلالي فيقول الإمام عبد القاهر مبينا قيمة هذا العلم (علم البيان) فقال : " ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً وأبسق فرعاً وأحلى جنًى

(١) مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية – د/ محمد حسين علي الصغير صـ ٨.
(٢) السابق صـ ٨ .
(٣) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم صـ ٣٣ ، ٣٤ بتصرف .

وأعذب وِرداً وأكرم نَتاجاً وأنور سراجا من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحُوك الوشي ويصوغ الحَلْيَ ويلفُظُ الدُّرَّ وينفث السحر ويقري الشَّهْدَ ويُريك بدائع من الزهر ويُجنيك الحلو اليانع من الثمر . والذي لولا تحفَّيه بالعلومِ وعنايَته بها وتصويره إياها لبقيت كامنة مستورة ولما اسْتَبَنتْ لها يدَ الدهرِ صورة ولا استمر السرار بأَهِلَّتِها واستولى الخفاء على جملتها . إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء " . (١) كذا قوله : " ومن شأن هذه الأجناس – (الكناية والاستعارة والتمثيل) – أن توجِب الحسن والمزية وأن المعاني تتصور من أجلها بالصور المختلفة وأن العلم بإيجابها ذلك ثابت في العقول ومركوز في غرائز النفوس " . (٢)

وهكذا يحمل المجاز في العبارة من المعاني الممتدة الواسعة ، ومن الإبداع ذي الجمال الْمُعْجِب ، ما لا يؤديه البيان الكلامي إذا اسْتُعْمِل على وجه الحقيقة في كثيرٍ من الأحيان . مع ما في المجاز من اختصارٍ في العبارة وإيجاز ، وإمتاعٍ للأذهان ، وإرضاءٍ للنفوس ذوات الأذواق الرفيعة التي تتحسَّن مواطن الجمال البياني فتتأثر به تأثر إعجاب واستحسان . (٣)

فالمجاز اللغوي يأتي في القمة من حيث دقة التعبير وقوة التصوير ، يقول د/ محمد بكر إسماعيل موضحاً قيمة المجاز اللغوي في القرآن الكريم : " ومع جمال التعبير تكون دقة التصوير ، وهي نوع آخر من أنواع الجمال الفني المعجِز الذي تتيه فيه عقول البلغاء في كل زمان ومكان . فالقرآن الكريم يبرز المعاني المعقولة في صور محسَّة منتزَعة من الواقع المشاهد ، مؤتلفة ائتلافًا عجيبًا في قوالب كلية متحركة ، تشعر فيها بالأصوات والألوان والحركات ، مما يجعلك تعيش مع الواقع الذي تصوره لك هذه التشبيهات والاستعارات والكنايات ، المسبوكة سبكًا فريدًا يأخذ بمجامع القلوب ، ويملك على الإنسان حسَّه ومشاعره فلا يحتاج إلى مزيد تصوير

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) دلائل الإعجاز صـ ٣٩٠ .
(٣) الاجتياز إلى أسرار المجاز صـ ٣.

للحقائق التي يذكرها القرآن في ثنايا هذه اللوحات البارعة البديعة في عناصرها ، وائتلافها وانسجامها مع معانيها ومراميها . إنها تشبيهات واستعارات وكنايات حيوية ، تستمد حيوتها من الطبيعة في أسمى مظاهرها وأبهج مناظرها ، فكانت خالدة على مرِّ الزمان ، لا يمسها وهَنٌ ، ولا يعتريها ضعف ، ولا يطويها نسيان ، تمثل في الذهن ، فلا تفارقه ، وتكمن في القلب فلا تغادره ، وذلك لما تتميز به من السمات البلاغية التي ينقِّب عنها الأدباء والبلغاء ، فلا يجدون منتهى يقفون عنده حتى يكون هذا المنتهى هو المبتدى ، فيعودون في التنقيب على بدء ، وهكذا إلى أن يشاء الله . ومن سماته التي اكتشفوها بالاستقراء والتتبُّع لهذه الصور البيانية أنها تصوِّر الغائب حتى يصبح حاضرًا، وتقرِّب البعيد النائي حتى يصير قريبًا دانيًا " [١] .

وقد أشار أحد الباحثين المحدثين إلى دور صنوف المجاز في جمال التعبير ودقة التصوير فقال : " المجاز المرسل من الوسائل التي تساعد على بلاغة التعبير ، وعلى جماله ، وحسن وقعه في نفوس المتذوقين ، ذلك أن المعنى ينقل من مدلول اللفظة الأصلي أو الوصفي إلى مدلول جديد هو أكثر اتساعاً وأبعد أفقاً وأدعى إلى التأمل". [٢]

والاستعارة صورة من صور التوسع والمجاز في الكلام ، وهى من أوصاف الفصاحة والبلاغة العامة التي ترجع إلى المعنى . ومن خصائصها التشخيص والتجسيد فى المعنويات ، وبث الحركة والحياة والنطق في الجماد .... إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون [٣] .

والكناية مظهر من مظاهر البلاغة ، وأسلوب من أساليب البيان ، وغاية لا

(١) دراسات في علوم القرآن – د/ محمد بكر إسماعيل صـ ٣٣٢.
(٢) البلاغة العربية في ثوبها الجديد – د/ بكرى شيخ أمين صـ ٩٨ – دار العلم للملايين . الطبعة /الخامسة ١٩٩٥م .
(٣) السابق صـ ١٣٠ ، ١٣١.

يقوى على الوصول إليها إلا كل بليغ متمرس لطف طبعه ، وصفت قريحته . ومن أسباب بلاغتها أنها تضع لك المعاني في صورة المحسات وتلك هي خاصة الفنون ، فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل واليأس بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنها واضحاً ملموساً . (١)

وتصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكناً من النفس وتأثيراً فيها ففي قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ (٣) ترى قدرة (ختم) في تصوير امتناع دخول الحق في قلوب هؤلاء الناس . وفي قوله تعالى : ﴿اللَّه وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤) تجد كلمتي الظلمات والنور أقوى في إثارة العاطفة وتصوير الحق والباطل ... (٥)

ومن ذلك – أيضاً – قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾ (٦) ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق فيه تصوير لهذه الخلة المذمومة في صورة بغيضة منفرة ؟ فهذه اليد التي غلت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد ، وهذا التعبير التصويري مثل لك صورة البخيل الذى لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطية مجسمة محسة كأنك تراها وتلمسها ، وكانت الكناية وسيلة إلى هذا الهدف المنشود . (٧)

ومن هنا ندرك أن الأساليب المجازية في القرآن الكريم لها قدرة فائقة على

---

(١) السابق صـ ١٦٨.
(٢) البقرة من الآية : (٧).
(٣) الجاثية من الآية : (٢٣).
(٤) البقرة من الآية (٢٥٧).
(٥) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم صـ ٣٥ وما بعدها بتصرف .
(٦) الإسراء آية (٢٩) .
(٧) دلالة الألفاظ ص ١٣١.

توضيح المعنى وإبراز الصورة في أبهى تعبير يبرز خصائصها ويوضح معالمها مما قد لا يستطيع أن يحل لفظ أو ألفاظ أخرى محلها في ذات السياق . وعلى هذا فالأساليب المجازية لا تعني بتحسين اللفظ فحسب وإنما هي أيضا راجعة إلى المعنى ، إذ لها من القدرة ما يجعلها قادرة إلى إظهار الخفي من المعاني وإيضاح الظاهر الذي ليس بجلي أو بحصول المبالغة .

خامساً : المشاكلة ودورها في بيان جمالية المفردة وإبداعها اللفظي والدلالي:

المشَاكَلة في اللغة المشابهة والمماثلة . واصطلاحا : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً ، أو تقديرًا . (١)

وقد وردت كثيرا في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾(٢) فالجزاء على السيئة في الحقيقة ليس بسيئة ، وإنما هو عقوبة يراد بها الإصلاح ، فالمعنى حينئذ: وجزاء سيئة عقوبة تعادلها ، فتعبيره عن العقوبة بلفظ {سَيِّئَةٌ} مشاكلة ؛ لوقوعه في صحبة ذلك اللفظ . (٣)

فالأولى سيئة حقيقة ، والثانية مجازاً للمشاكلة ، وفي تسميتها سيئة نكتة وهي الإشارة إلى أن العفو أولى ، والأخذ بالقصاص سيئة بالنسبة إلى العفو ، ولذلك عقبه بقوله : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ) بينه وبين خصمه بالتجاوز والإغضاء (فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) ، وهي عِدَةٌ مبهمة لا يقادر قدرها ، (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) الذين يبدؤون بالظلم ، أو : يتجاوزون حدّ الانتصار . (٤)

فالفرق بين السيئتين أن الأولى جرم من صاحبها ، فهي سيئة ساءت غيره والثانية : عقوبة لهذا الظالم الذي يستحق العقوبة ، والعقوبة حسنة وليست سيئة ، وسميت الثانية سيئة كمشاكلة لفظية . فمعاقبة الظالم حسنة ، وهي عدل من الله – ﷻ – فقوله : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ) يعني : من أساء إليك فقابله وجازه بالمثل ، وهذا

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة – عبد المتعال الصعيدي ٤/ ٥٨٨ – مكتبة الآداب – الطبعة (١٧) ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع – أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي – ضبط وتدقيق وتوثيق د/ يوسف الصميلي صـ ٣٠٩– المكتبة العصرية/ بيروت ، والبلاغة العربية – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة ٢/ ٤٣٨.

(٢) سورة الشورى من الآية : (٤٠).

(٣) المنهاج الواضح للبلاغة – حامد عوني ١/ ١٦٥ – المكتبة الأزهرية للتراث .

(٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد – أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني – تح/ أحمد عبد الله القرشي رسلان ٥/ ٢٢٤ – الناشر د/ حسن عباس زكي – القاهرة ١٤١٩هـ.

عدل ، لكن أطلق عليها لفظ سيئة لأجل المشاكلة ، وذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ؛ لأنه مجرد المجاورة والصحبة جعل أطلق على الاثنين سيئة ، فهذه هي المشاكلة ، لكن في الحقيقة هي ليست سيئة ، بل هي عدل ومجازاة بالمثل . وقيل سميت العقوبة بالسيئة لأن فيها إساءة للظالم فعومل بما يسوؤه ويزعجه ويؤدبه ويردعه، (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) أي : جزاء الإثم والإجرام : العقوبة ، والعقوبة حسنة وليست سيئة ، لكن بالنظر من ناحية المجرم ، فحين وقعت العقوبة عليه أساءت إليه وقبحته أمام الناس . وهنا معنى المشاكلة اللفظية : أن اللفظة هي اللفظة ، ولكن تختلفان في المعنى ، فجزاء الإساءة من الإنسان أن يعاقب على إساءته " . (١)

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن القرآن أجلّ من أن يسمى الشيء بغير اسمه لمجرد وقوعه في صحبته ، فهذا التعبير يحمل معنى ، وجيء به ليوحي إلى القارئ بما لا يستطيع أن يوحى به ولا أن يدل عليه ما قالوا إنه الأصل المعدول عنه ، فتسمية جزاء السيئة سيئة ؛ لأن العمل في نفسه سوء، وهو يوحى بأن مقابلة الشر بالشر، وإن كانت مباحة ، سيئة يجدر بالإنسان الكامل أن يترفع عنها ، وكأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل وأولى " . (٢)

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ واتقوا الله واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين﴾ (٣) ، فمقابلة العدوان لا يسمى عدواناً ، وإنما أطلق عليه لفظ العدوان للمشاكلة .

إن مقابلة الاعتداء بمثله لا يسمى في الأصل اعتداءً ، ولكن سوَّغ هذا الإطلاق داعي المشاكلة ، ولِيُعْطيَ اللَّفْظُ معنى المماثلة في تطبيق العُقُوبَةِ دون زيادة ، لأنّ معنى كلمة (اعتدى) في الأصل تجاوز حدود الحق ، ومن العدل أن

(١) تفسير أحمد حطيبة ٤٣٧/٥ ، بترقيم الشاملة آليا .
(٢) من بلاغة القرآن ١٤٢/١
(٣) سورة البقرة الآية : (١٩٤) .

يقابل التجاوز مماثل له . [١]

ومن ذلك – أيضاً – قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون﴾[٢] فقد سمى الله – ﷻ – تدبيره لنجاة نبيه صالح – عليه السلام – من كيد قوم ثمود والذين أرادوا هلاكه هو وأهله (مكرا) مشاكلة لوقوعه في صحبة مكر أعداء نبيه ، لأن المكر على حقيقته لا يصح أن ينسب إلى الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا بمعناه الحقيقي ، إذ المكر تحايل لجلب الضرر إلى الغير ، وذلك ينبئ عن ضعف وخور – تعالى الله – عن ذلك.[٣] ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [٤] .

سادساً : استعمال اسم الإشارة البعيد في موضع القريب ودوره في إبداع اللفظ والدلالة :

تجعل العربية الفصحى لاسم الإشارة في السياق الفصيح نظاماً معيناً ، فتضع اسم الإشارة (هذا ، وهذه ، وهنا) لتعبر به عن القريب ، سواء أكان هذا القرب حسياً وذلك في المسافات الزمانية أو المكانية ، أو معنوياً وذلك في قرب المنزلة أو المكانة . كذا تستعمل اسم الإشارة (ذلك ، وتلك ، وهنالك) لتعبر به عن بعد المسافة أو المنزلة. وتضع لما بين القرب والبعد وهو ما كان وسطاً في المكان أو غيره اسم الإشارة (هنالك). لكن بتأمل مواقع ورود اسم الإشارة في القرآن الكريم نجد عدولاً في استعماله عن هذا النمط الفصيح في لغة العرب مما يدلنا دلالة واضحة على أن هناك سراً ما في هذا الاستعمال وقيمة تعبيرية ودلالية من وراء هذا التعبير أو العدول ينبغي للباحث في القرآن أن يتأمله ويفتش عن مكنونه ويبحث عن بلاغته .

ومن ذلك قوله تعالى في أول سورة البقرة : ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ

(١) البلاغة العربية ٢/ ٤٣٨ .
(٢) سورة النمل الآية : (٥٠).
(٣) دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن ابن الاثير صـ ١٩٤.
(٤) سورة النساء من الآية : (١٤٢) .

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [١] يقول أحد الباحثين المحدثين : " المشار إليه بـ (ذلك الكتاب) هو القرآن ، فإنه منزل منزلة المشاهد بالحس البصري ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه ، وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف إثر تنويهه بذكر اسمه ، وتنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحقيقي كما في قوله تعالى : ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ سورة البقرة إذ جعل البعد ذريعة للتعظيم ذهاباً إلى بعد درجته ولذ قالت امرأة العزيز : ﴿فذلكن الذى لمتننى فيه﴾ ولم تقل (فهذا) وهو حاضر رفعاً لمنزلته وتمهيداً للعذر في الافتتان " [٢].

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِير﴾ [٣] يقول أبو السعود العمادي : " (ذلك) إشارة إلى السبق بالخيرات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته في الشرف " [٤].

وعلى هذا يكون لاستعمال اسم الإشارة في القرآن الكريم ظلال معنوية يضفيها على دلالة السياق فوق الدلالة الأصلية للألفاظ والتراكيب مما يدلنا دلالة واضحة على دور السياق لا في تحديد الدلالات المتنوعة فحسب بل إنه يفرض نمطاً محددا للمفردة في تراكيب ذات أبعاد دلالية خاصةً وأساليب معينة ؛ ليؤدي دلالة خاصة لا تفهم إلا من خلاله وهي دلالة تكميلية في سياق الكلام .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

❁ ❁ ❁ ❁

(١) سورة البقرة الآيتان : (١ ، ٢) .
(٢) العدول في التعبير القرآني – د/ عامر مهدي صالح العلواني صـ ٦ .
(٣) فاطر من الآية (٣٢) .
(٤) إرشاد العقل السليم ١٥٣/٧

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من بعثه الله هادياً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً ، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين .

وبعد ...

فقد تم هذا البحث بنعمة الله وفضله ، وقد خلص البحث إلي نتائج كثيرة ، أهمها ما يلي:

١. المفردات القرآنية هي المادة الأساسية للإعجاز القرآني وإبداعه وبيان جمالياته ، في الصورة والحوار والقصة والحكمة والتشريع والتوجيه الخلقي والتربوي .
٢. تميزت المفردة في السياق القرآني بخصائص عدة على مستوى نسيجها الصوتي ، وبنيتها الصرفية ، من حيث اللفظ ، ومن حيث الدلالة .
٣. دقة المفردة القرآنية في الاستعمال أو الوضع حتى تبدو بطريقة استعمالها وبدقة دلالتها كأنها فوق اللغة ؛ لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع ، وتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم ، وتكوّن بتركيبها المعجز طبقة خاصة داخل طبقات اللغة .
٤. يختار القرآن الكريم المفردة اختياراً دقيقاً يتناسب مع مضمون الخطاب ، فكانت له خصوصيات في استعمال الألفاظ مما يدل على القصد الواضح في انتقاء المفردة من دون غيرها في هذا الموضع أو ذاك حتى أضحت كالعقد الثمين ذي الفصوص المتنوعة .
٥. اتساق المفردة القرآنية تمام الاتساق مع المعنى المراد من الآية ، بل مع السورة كلها أو القرآن الكريم بأجمعه ... وذلك لا يكون إلا للكلام المعجز الذي تحدى أرباب الفصاحة أن يأتوا بمثله .

٦. لدلالة السياق القرآني أهمية بالغة في تفسير كلام الله – ﷻ – ، فهي أصل أصيل من أصول هذا العلم ، وبإهمالها يضع المفسر قدمه على عتبات الزلل ويركب مراكب الخلل ، وتوسم آراؤه بالعلل ، فيعظم الخطب ويصبح جللا .

٧. لدلالة الصيغة التي ترد عليها المفردة القرآنية أثرها الواضح في الكشف عن إبداع المفردة وبيان جماليتها في موضعها الأشكل بها أو الأخص ؛ لما تذخر به من المعاني ودرر الكلام ، وذلك من خلال السياق القرآني الذي ترد فيه بحيث تكون فيه كالدرة الثمينة وسط عقد أحكم نظمه ، والبحث عن أسرار النص القرآني وتوضيح مراميه أو مقاصده وغاياته يوقفنا على جمالية المفردة القرآنية وإبداعها في شتى صورها .

٨. أن نظم القرآن الكريم وطريقة تأليف مفرداته على نحو خاص عد وجهاً من وجوه الإعجاز ، وليس النظم في ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق لكنه تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل ، فإدراك العلاقات بين الألفاظ ونظمها نظماً معيناً يؤدي إلى معنى معين بحيث لو تغير النظم لتغير المعنى ، ولا فصاحة في اللفظ إلا وهي موصولة بغيرها ومعلقة معناها بمعنى ما يليها .

٩. أن إبداع المفردة وجماليتها لا يكمن في ذاتها ، ولا تستند إلى الذوق الرفيع ؛ ولا دقة أدائها لدلالتها في موقعها المناسب مع أخواتها ، وعدم تعارضها مع المنطق والفكر، .... وإنما يعود إلى ذلك كله ... فهي لذلك كانت من القرآن الكريم ، أكثر سمواً وجمالاً ، فكانت اللفظة تؤكد فصاحتها وجماليتها في سياقها الذي لا يكون غيره ؛ فلكل شيء موضع ، وليس يصلح في كل موضع.

١٠. أن ما يبدو خروجاً عن القياس العقلي والمنطق في القرآن الكريم من حيث استعماله للمفردات الغريبة تارة ، والثقيلة تارة ثانية ، والطويلة تارة ثالثه ، والمعربة تارة رابعة ، أو في الدلالة غير المعهودة تارة خامسة ... هو داخل في نظامه مقصود لغايات دلالية دقيقة ، وأسرار بديعة ، وجمالية وحكمة إلهية . وهو وجه إعجازي ، وليس أمراً اعتباطياً .

١١. استعمل القرآن الكريم في صوغ مفرداته وفق صيغ العربية استعمالا معجزا وفريدا جاء من تنوع الصيغ ذات الأصل الاشتقاقي الواحد تبعا للسياق ، فكانت المفردة على صيغتها الواردة عليها غاية في الدقة والإبداع والإعجاز بحيث لا تصلح صيغة في موضع أختها وإن اتحد التركيب ، أو تشابه النظم ، بل وإن اتحدت القصة . وكلما أمعن الباحث الفكر في أسرار هذه الصيغ عند استعمالها في أساليب القرآن الكريم ، ودقق النظر فيها حينما ترد في آيات الذكر الحكيم وجد أسراراً عظيمة في استعمال كل صيغة في موضعها المناسب

١٢. لمتشابه النظم في القرآن الكريم دور رئيس في الكشف عن خصائص المفردة القرآنية وإبداعها في موضعها ، ووجه إعجازها اللغوي حيث هو الميدان الرئيس للموازنة بين المفردات في سياقتها المتعددة ، وإدراك قيمها التعبيرية ، وخصائصها الدلالية .

١٣. استعمل القرآن الكريم بعض الألفاظ المعربة وترك نظيرها العربي استعمالا دقيقا فجاءت في الإعجاز غاية ، وفي الإحكام آية .

المصادر والمراجـــع

- القرآن الكريم .
- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم – صديق بن حسن القنوجي – تح / عبد الجبار زكار – دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٧٨م .
- الأبنية الدالة على اسم الفاعل في القران الكريم دراسة دلالية – رسالة دكتورة بقسم اللغة العربية في كلية الآداب / جامعة بغداد سنة ٢٠٠٣م – للباحثة/ أفراح عبد علي كريم الخياط .
- الإتقان في علوم القرآن – السيوطي – تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م
- الإحكام في أصول الأحكام – الآمدي – مطبعة المعارف ١٩١٤م .
- أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين) أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد – أبو حيان التوحيدي – تح/ محمد الطنجي – دار صادر/بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- أدب الكاتب – ابن قتيبة الدينوري – تح/ محمد الدالي – مؤسسة الرسالة .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود – دار إحياء التراث العربي/ بيروت .
- أسرار التعبير القرآني – محمد سعيد باصالح – مقال في النت .
- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز – بديع الزمان سعيد النّورسي – تح/ إحسان قاسم الصالحي – مصر– ط/ ثالثة ٢٠٠٢م.
- أصوات الحركات العربية دراسة دلالية جمالية – د/ منال محمد هاشم نجار – المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها – المجلد(٦) العدد(٣) – سنة ٢٠١٠م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين الشنقيطي – دار الفكر/ بيروت – ١٤١٥هـ /١٩٩٥م .

- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن – د/محمد الأمين الخضري– مطبعة الحسين الإسلامية – ط/ الأولى١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية – د/ عبد الحميد هنداوي – مكتبة المدينة .
- الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم دراسة دلالية – د/ دفة بلقاسم – مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة محمد خيضر بسكرة/الجزائر ٢٠٠٩م .
- إعجاز القرآن – أبو بكر الباقلاني – تح/ السيد أحمد صقر – دار المعارف – مصر – الطبعة/ الخامسة ١٩٩٧م .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي – دار الكتاب العربي / بيروت – الطبعة/ الثامنة ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م.
- الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم - جامعة المدينة - مناهج جامعة المدينة العالمية - الناشر/ جامعة المدينة العالمية .
- الاعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم – جمع وإعداد / علي بن نايف الشحود – المكتبة الشاملة .
- إعراب القرآن – أبو جعفر النَّحَّاس – وضع حواشيه وعلق عليه/ عبد المنعم خليل إبراهيم – دار الكتب العلمية/ بيروت – الطبعة/ الأولى ١٤٢١هـ .
- إعراب القرآن وبيانه – محيي الدين مصطفى درويش – دار الإرشاد للشئون الجامعية/حمص ، سورية ، (دار اليمامة/دمشق، بيروت) – ط/الرابعة ١٤١٥هـ.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين – ابن قيم الجوزية – تح/ محمد عبد السلام إبراهيم – دار الكتب العلمية / بيروت – الطبعة/ الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م .
- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب – ابن السيد البطليوسي – المطبعة الأدبية/ بيروت ١٩٠١م .

- الألفاظ التي لم تتكرر في القرآن – رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية / جامعة أم القرى بمكة المكرمة للباحث / حسين حسن سعيد الزهراني – ١٤٣١هـ/٢٠١٠م .
- الإمَامُ البِقَاعِيّ جهادُه ومنهاجُ تأوِيله بلاغة القرْآن الكَرِيم – محمود توفيق سعد– مكتبة وهبة – ط/ أولى ١٤٢٤هـ.
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف – ابن المنير الإسكندري – بحاشية الكشاف .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي – تح/ محمد عبد الرحمن المرعشلي – دار إحياء التراث العربي/ بيروت – ط/ الأولى ١٤١٨هـ.
- البحر المحيط – أبوحيان – تح/صدقي محمد جميل– دار الفكر/بيروت ١٤٢٠هـ.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد – أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني – تح/ أحمد عبد الله القرشي رسلان – الناشر د/ حسن عباس زكي – القاهرة ١٤١٩هـ.
- بحوث دلالية – د/ ممدوح إبراهيم محمود – مصر .
- بدائع الفوائد – ابن القيم الجوزية – دار الكتاب العربي/ بيروت .
- البرهان في علوم القرآن – الزركشي – تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاه – ط/أولى ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة – عبد المتعال الصعيدي – مكتبة الآداب – الطبعة (١٧) ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ،
- البلاغة الصوتية في القرآن الكريم – د/ محمد إبراهيم شادي – الرسالة / مصر – ط / الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
- البلاغة العربية – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة – دار القلم/ دمشق، الدار الشامية/ بيروت – الطبعة/ الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م

- البلاغة العربية في ثوبها الجديد – د/ بكرى شيخ أمين – دار العلم للملايين – ط /الخامسة ١٩٩٥م .
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني – د/ فاصل صالح السامرائي – شركة العاتك لصناعة الكتاب / القاهرة – ط/ ثانية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- بيان إعجاز القرآن – أبو سليمان الخطابي – ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني) – سلسلة ذخائر العرب – تح/ محمد خلف الله ، ود/ محمد زغلول سلام – دار المعارف / مصر – ط/ثالثة – من دون تاريخ.
- البيان في روائع القرآن – (دراسة لغوية وأسلوبية للنص للقرآني) – د/تمام حسان – عالم الكتب .
- البيان والتبيين – الجاحظ – تح / فوزي عطوى – دار صعب/ بيروت – ط/الأولى ١٩٦٨م .
- تاج العروس من جواهر القاموس – مرتضى الزَّبيدي – تح/ مجموعة من المحققين – دار الهداية.
- تاريخ آداب العرب – مصطفى صادق الرافعي – دار الكتاب العربي – من دون.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب – د/ إحسان عباس – دار الثقافة/ بيروت – ط/ الرابعة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.
- تاريخ نزول القرآن – محمد رأفت سعيد – دار الوفاء/ المنصورة، مصر – ط/ أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م
- تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة – تح/ إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية/ بيروت .
- التبيان في إعراب القرآن – أبو البقاء العكبري – تح/ علي محمد البجاوي – عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر/ تونس ١٩٨٤هـ.

- تحولات الأفعال في السياق القرآني – د/ عبدالله الهتاري – جامعة ذمار – اليمن
- التسهيل لعلوم التنزيل – أبوالقاسم بن جزي الكلبي الغرناطي – تح د/ عبد الله الخالدي – شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم / بيروت – ط/ الأولى ١٤١٦هـ .
- التصريح بمضمون التوضيح في النحو – الشيخ/ خالد الأزهري – دار الكتب العلمية / بيروت – ط/ أولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .
- التصوير الفني – الشيخ/ سيد قطب – دار الشروق/ مصر – ط/ رابعة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .
- التضمين النحوي في القرآن الكريم – محمد نديم فاضل – دار الزمان/ المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .
- التعبير القرآني – د/ فاضل صالح السامرائي – دار عمار/ عمان ، الأردن – ط/رابعة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- تفسير أحمد حطيبة – المكتبة الشاملة .
- تفسير السمرقندي (بحر العلوم) – أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي – تح د/ محمود مطرجي – دار الفكر/ بيروت .
- تفسير القرآن العظيم – ابن كثير القرشي – تح/ محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية / بيروت – ط / الأولى ١٤١٩هـ .
- التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم يونس الخطيب – دار الفكر العربي/ القاهرة.
- تفسير مقاتل بن سليمان – أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخى – تح/ عبد الله محمود شحاته – دار إحياء التراث/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٢٣هـ.
- التناسق الصوتي في لغة القرآن الكريم – د/ ممدوح إبراهيم – بحث منشور في مجلة كلية أصول الدين بأسيوط ٢٠١٢م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن – ابن جرير الطبري – تح د/ عبد الله بن عبدالمحسن التركي – دار هجر للطباعة والنشر – ط/ أولى ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م .

- الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله القرطبي تح / أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش – دار الكتب المصرية/القاهرة – ط/ الثانية ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم – د/ أسامة عبد العزيز جاب الله – رسالة دكتوراة في قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ .
- جماليات المفردة القرآنية – د/ أحمد ياسوف – دار المكتبي دمشق/ سوريا – ط/ ثانية ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع – أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي – ضبط وتوثيق د/ يوسف الصميلي – المكتبة العصرية/ بيروت.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، الْمُسَمَّاة (عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي) – شهاب الدين أحمد الخفاجي – دار صادر / بيروت .
- الحيوان – الجاحظ – دار الكتب العلمية / بيروت – ط/الثانية ١٤٢٤هـ .
- الخصائص – ابن جنى – تح / محمد على النجار – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط/ ثالثة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني – د/ محمد محمد أبوموسى – مكتبة وهبة – ط / السابعة .
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية – د/عبد العظيم المطعني – مكتبة وهبة – ط/أولى ١٤١٣هـ /١٩٩٢م.
- دراسات في البلاغة عند ضياء الدين ابن الأثير – د/ عبدالواحد حسن الشيخ – مؤسسة شباب الجامعة / الإسكندرية ، مصر ١٩٨٦م.
- دراسات في علوم القرآن – محمد بكر إسماعيل – دار المنار – ط/ الثانية ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .
- دراسات في فقه اللغة – د/ صبحى الصالح – دار العلم للملايين – طبعة (١٢) ١٩٨٩م.

- دراسة المعنى عند الأصوليين د/ طاهر سليمان حمودة – دار الجميل ٢٠٠١م
- درة التنزيل وغرة التأويل – الخطيب الإسكافي – تح د/ محمد مصطفى آيدين – جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة – ط/أولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني – رسالة دكتوراة بكلية التربية / جامعة بغداد للباحث / محمد ياس خضر الدوري – ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- دلالة الألفاظ – د/ إبراهيم أنيس – الأنجلو المصرية ١٩٩٧م .
- الدلالة الصوتية عند ابن جني – مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط العدد (٢٦) جـ (٢) سنة ٢٠٠٧م.
- دلائل الإعجاز– عبدالقاهر الجرجاني – تح د/ محمد التنجي – دار الكتاب العربي / بيروت – ط/أولى ١٩٩٥م.
- الرسالة الشافية – عبدالقاهر الجرجاني – ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني) – سلسلة ذخائر العرب – تح/ محمد خلف الله ، ود/ محمد زغلول سلام – دار المعارف / مصر – ط/ثالثة .
- روح البيان – إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي – دار الفكر/ بيروت .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – شهاب الدين الألوسي – تح/ علي عبدالباري عطية – دار الكتب العلمية / بيروت – ط/أولى ١٤١٥هـ.
- سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن – د/عودة الله منيع القيسي – مؤسسة الرسالة / بيروت – ط/ أولى ١٤١٦/١٩٩٦م .
- سر الفصاحة – ابن سنان الخفاجي – دار الكتب العلمية – ط/ أولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- سر صناعة الإعراب – ابن جني – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/الأولي ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- **شرح الشافية ابن الحاجب – رضي الإستراباذي– تح/ محمد نور الحسن ، وآخرين – دار الكتب العلمية / بيروت ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.**
- **شرح العقيدة الواسطية للعثيمين – حمد بن صالح بن محمد العثيمين – تح/ سعد فواز الصميل – دار ابن الجوزي/ الرياض، المملكة العربية السعودية – ط/ الخامسة ١٤١٩هـ**
- شرح الكافية الشافية – ابن مالك الطائي – تح/ عبد المنعم أحمد هريدي – الناشر/ جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة – الطبعة/ الأولى .
- **شرح ديوان المتنبي – أبو البقاء العكبري – تح/ مصطفى السقا وآخرين – دار المعرفة/ بيروت.**
- **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم – نشوان بن سعيد الحميرى – تح د/ حسين بن عبد الله العمري ، وآخرين – دار الفكر المعاصر/ بيروت – لبنان) ، دار الفكر / دمشق – سورية – ط/ الأولى ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م.**
- **الصاحبي – أحمد بن فارس– دار الكتب العلمية – ط/ الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.**
- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية – أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري – تح/أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين/بيروت – ط/الرابعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.**
- **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ) – مسلم بن الحجاج– تح/ محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي/ بيروت**
- **الصوت اللغوي في القرآن – محمد حسين الصغير – دار المؤرخ العربي/ بيروت – ط/ أولى بدون .**
- **الصورة الفنية في المثل القرآني : دراسة نقدية وبلاغية – د/ محمد حسين الصغير – دار الهادي١٩٩٢م.**

- صيغ المبالغة وطرائقها في القرآن الكريم دراسة إحصائية صرفية ودلالية – رسالة دكتوراة بكلية الدراسات العليا / جامعة النجاح الوطنية – للباحث/ كمال حسين رشيد صالح سنة ٢٠٠٥م
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي – المكتبة العصرية/ بيروت – ط/أولى ١٤٢٣هـ .
- ظاهرة التخفيف في العربية – د/ أحمد عفيفي – الدار المصرية اللبنانية – ط/ أولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم – نذير حمدان – دار المنايرة جدة/ السعودية – ط/ أولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- العدول الصرفي في القرآن الكريم – د/ ماجدة صلاح حسن – مجلة جامعة السابع من إبريل – العدد (١١) ٢٠٠٩م.
- العدول عن صيغة اسم المفعول ودلالاته في التعبير القرآني – د/عبد الناصر هاشم الهيتي – مجلة جامعة الأنبار للغات والآداب العدد (٣) عام ٢٠١٠م .
- العدول في التعبير القرآني وأثره في الدلالة – رسالة دكتوراة في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع أسيوط للباحث/ رجب شحاته سنة ٢٠١٤م .
- العربية خصائصها وسماتها – د/ عبد الغفار هلال – مطبعة الجبلاوي/ مصر – ط/ رابعة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .
- العزف على أنوار الذِّكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة . محمود توفيق محمد سعد – المكتبة الشاملة.
- العلة اللغوية عند ابن جني في ضوء علم اللغة الحديث – د/ ممدوح إبراهيم محمود – مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط العدد (٢٧) سنة ٢٠٠٨م .
- علم الدلالة – د/ أحمد مختار عمر – عالم الكتب – ط/ رابعة ١٩٩٣م.
- علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق – د/ فايز الداية – دار الفكر/ دمشق – ط/ ثانية ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .
- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري – بدر الدين العيني – دار إحياء التراث العربي / بيروت .

- غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني – أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، شهاب الدين الشافعيّ – من أول سورة النجم إلى آخر سورة الناس – تح / محمد مصطفي كوكصو(رسالة دكتوراه – الناشر: جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية / تركيا ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- غريب الحديث – الخطابي – تح/عبد الكريم الغرباوي – دار الفكر١٤٠٢هـ/١٩٨٢م
- غريب القرآن – ابن قتيبة – تح/ أحمد صقر– دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- فتح البيان في مقاصد القرآن – أبو الطيب محمد صديق خان البخاري القِنَّوجي المَكتبة العصريَّة / صيدا – بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
- فتح القدير– الشوكاني – دار ابن كثير، دار الكلم الطيب/ دمشق، بيروت – ط/ الأولى ١٤١٤هـ .
- الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري – تح/ محمد إبراهيم سليم – دار العلم والثقافة / مصر.
- فقه اللغة وخصائص العربية – محمد المبارك – دار الفكر الحديث / لبنان – ط /ثانية ١٩٦٤م.
- فقه اللغة وسر العربية – أبو منصور الثعالبي – تح/ عبد الرزاق المهدي – إحياء التراث العربي – ط/ الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .
- في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية) – د/ حسين جمعة – من منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ٢٠٠٢م .
- في ظلال القرآن – الشيخ / سيد قطب – دار الشروق / بيروت ، والقاهرة – الطبعة/ السابعة عشر ١٤١٢هـ .
- الكتاب – سيبويه – تح/ عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجي / القاهرة – ط/ الثالثة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- كتاب العين – الخليل بن أحمد – تح د/ مهدي المخزومي، ود/ إبراهيم السامرائي – دار ومكتبة الهلال .

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – الزمخشري – دار الكتاب العربي / بيروت – ط/ الثالثة ١٤٠٧هـ
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون – حاجي خليفة – مكتبة المثنى/ بغداد ١٩٤١م.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي) – أبو إسحاق الثعلبي – تح الإمام/ أبي محمد بن عاشور – دار إحياء التراث العربي/ بيروت – ط/ الأولى١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م.
- الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية – د/ فضل حسن عباس – مجلة مركز بحوث السنة والسيرة – العدد (الرابع) – ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- اللباب في علوم الكتاب – ابن عادل الحنبلي الدمشقي – تح الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ/ علي محمد معوض – دار الكتب العلمية / بيروت – ط/ الأولى١٤١٩هـ/١٩٩٨م
- لطائف الإشارات (تفسير القشيري) – عبد الكريم بن عبد الملك القشيري – تح/ إبراهيم البسيوني – الهيئة المصرية العامة للكتاب / مصر – ط/ الثالثة.
- اللغة – فندريس – تر د/ عبد الحميد الدواخلى ، و د/ محمد القصاص – طبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٠م .
- لغة القرآن دراسة توثيقية فنية – د/ أحمد مختار عمر– مؤسسة الكويت للتقدم العلمي – ط/ الثانية ١٤١٨هـ/١٩٩٧ م .
- المباحث البيانية في تفسير الرازي ، دراسة بلاغية تفصيلية د/ أحمد هنداوي هلال – مكتبة وهبة – ط/ أولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩.
- مباحث في علوم القرآن – د/ صبحي الصالح – – دار العلم للملايين – ط/ الرابعة والعشرون ٢٠٠٠م.
- المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية – رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية – جامعة أم القرى / السعودية – للباحث / صالح عبدالله محمد الشثري – ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين ابن الأثير – تح/ محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية / بيروت ١٤٢٠هـ .
- مجاز القرآن – أبو عبيدة معمر بن المثنى – تح/ محمد فواد سزكين – مكتبة الخانجى / القاهرة ١٣٨١هـ .
- مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية – د/محمد حسين الصغير– المكتبة الشاملة .
- المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع – د/ عبد العظيم المطعني – مكتبة وهبة – ط/ثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ،
- مجمع البيان في تفسير القرآن – الطبرسي – دار الفكر / بيروت ١٩٩٣م.
- مجموع الفتاوى – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني – تح/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية الأندلسي – تح/ عبد السلام عبد الشافي محمد – دار الكتب العلمية / بيروت .
- المحكم والمحيط الأعظم – ابن سيده – تح/عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية / بيروت – ط/ الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
- المخصص – ابن سيده – تح/ خليل إبراهم جفال – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط/ الأولى ١٤١٧هـ /١٩٩٦م ،
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها – السيوطي – تح/ محمد جاد المولى وآخرين – المكتبة العصرية / بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها – جلال الدين السيوطي – تح/ فؤاد علي منصور – دار الكتب العلمية / بيروت – ط/ الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل – أحمد بن حنبل الشيباني – تح/ شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد ، وآخرين – مؤسسة الرسالة – ط/أولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)- أبو محمد الحسين البغوي – تح/عبدالرزاق المهدي – دار إحياء التراث العربي/بيروت – ط/الأولى ١٤٢٠هـ .
- معانى القرآن – الأخفش – تح د/ هدى محمود قراعة – مكتبة الخانجي/ القاهرة – الطبعة/ الأولى ١٤١١هـ /١٩٩٠م.
- معاني الأبنية – د/فاضل صالح السامرائي – دار الرسالة/بيروت – ط/ أولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- معاني القرآن – الفراء – تح/ أحمد يوسف النجاتي ، وآخرين – الدار المصرية للتأليف والترجمة/مصر – ط/ أولى .
- معاني القرآن وإعرابه – أبو إسحاق الزجاج – تح/عبد الجليل عبده شلبي – عالم الكتب / بيروت – ط/أولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- المعجزة القرآنية – الإمام/ محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي .
- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى ، والصيغ والأساليب المتشابهة – د/ محمد محمد داوود – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع .
- معجم مقاييس اللغة – أحمد بن فارس الرازي – تح/عبد السلام محمد هارون – دار الفكر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم – الجواليقي – تح/أحمد محمد شاكر – دار الكتب المصرية – ط/ ثالثة ١٩٩٥م .
- مفاتيح الغيب – الرازي – دار إحياء التراث العربي / بيروت – ط/ثالثة ١٤٢٠هـ.
- المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني – تح/ صفوان عدنان الداودي – دار القلم ، الدار الشامية / دمشق ، بيروت – ط/ الأولى ١٤١٢هـ .
- المقتضب – المبرد – تح/ محمد عبد الخالق عظيمة – عالم الكتب/ بيروت .

- المقدمات الأساسية في علوم القرآن – عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب – مركز البحوث الإسلامية ليدز/ بريطانيا – ط/أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- مقدمة ابن خلدون – ابن خلدون – دار القلم/ بيروت – ط/خامسة ١٩٨٤م .
- مقدمة في أصول التفسير – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية – دار مكتبة الحياة/ بيروت – ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل – أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي – وضع حواشيه/ عبد الغني محمد علي الفاسي – دار الكتب العلمية/ بيروت.
- من أسرار البيان القرآني – د/فاضل السامرّائي – دار الفكر – ط/ أولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة – د/عبدالفتاح لاشين– دار المريخ للنشر/ الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- من أسرار اللغة – د/ إبراهيم أنيس – الأنجلو المصرية – ط / سابعة ١٩٩٤م.
- من أسماء الله الحسنى غافر،غفار،غفور مقاماتها ودلالاتها في القرآن الكريم – د/ سعيد جمعة.
- من بلاغة القرآن – أحمد عبد الله البيلي– نهضة مصر/ القاهرة ٢٠٠٥م.
- من روائع القرآن (تأملات علمية وأدبية في كتاب الله) – محمد سعيد رمضان البوطي – مؤسسة الرسالة/ بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- مناهج البحث في اللغة – د/ تمام حسان – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٠ م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد عبد العظيم الزرقاني – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – ط/ الثالثة .
- المنهاج الواضح للبلاغة – حامد عوني – المكتبة الأزهرية للتراث .

- المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب – جلال الدين السيوطي – تح/ التهامي الراجي الهاشمي – مطبعة فضالة – بإشراف صندوق إحياء التراث الإسلامي، المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة .
- الموافقات – الشاطبي – تح/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان – دار ابن عفان– ط/أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- الموسوعة القرآنية(خصائص السور)– جعفر شرف الدين– تح/عبد العزيز بن عثمان التويجري السور– دار التقريب بين المذاهب الإسلامية/ بيروت – ط/الأولى ١٤٢٠هـ.
- النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) – د/ محمد عبدالله دراز – دار طيبة /السعودية – ط/أولى١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .
- نشأة الذرية – د/ حسني حمدان الدسوقي حمامة – مقال على شبكة الألوكة.
- نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا – د/ سامي محمد هشام حريز– دار الشروق / عمان ، الأردن ٢٠٠٥م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – برهان الدين أبي الحسن البقاعي – تح/ عبد الرزاق غالب المهدي – دار الكتب العلمية / بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- النكت في إعجاز القرآن من خلال كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن(للرماني والخطابي وعبدالقاهرالجرجاني) تح/محمد خلف الله أحمد ، ود/محمد زغلول سلام . سلسلة ذخائر العرب – دار المعارف / مصر – ط/ ثالثة .
- النكت والعيون – أبو الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي – تح /السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم – دار الكتب العلمية / بيروت .
- النهاية في غريب الحديث والأثر – ابن الأثير – تح/ طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي – المكتبة العلمية / بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي – تح د/ عبد الحميد هنداوي – المكتبة التوفيقية / مصر .

- الوجوه والنظائر – أبو هلال العسكري – تح/ محمد عثمان – مكتبة الثقافة الدينية/ القاهرة – ط / الأولى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .
- الوحدات القطعية في لغة القرآن الكريم عددها واستعمالاتها وملامحها الصوتية المميزة لها – د/ ممدوح إبراهيم محمود – مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط العدد (٣٠) ج (٤) سنة ٢٠١١م .
- الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي الجرجاني – تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد – أبو الحسن النيسابوري – تح / عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين – دار الكتب العلمية/بيروت – ط/الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- وظيفة الصورة الفنية في القرآن – عبد السلام أحمد الراغب – فصلت للدراسات والترجمة والنشر/ حلب – ط/ أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.